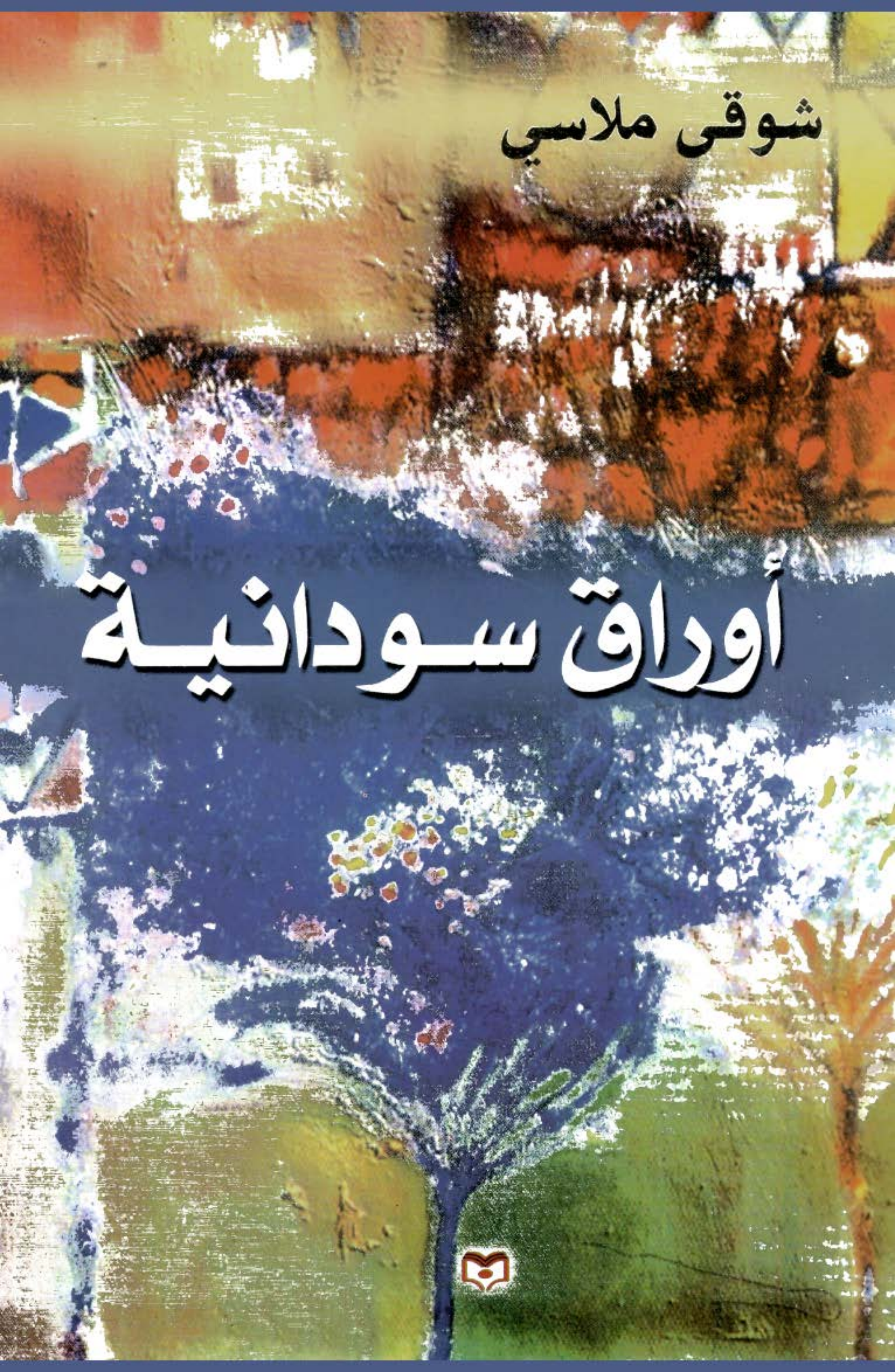


شوقي ملاسي
أوراق سودانية


دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان
ناشرون وموزعون ووكلاء دور نشر

شوقى ملاسي المحامي

أوراق سـودانيـة

مشاهدات وشهادات

تحرير وتقديم

محمد سيد أحمد عتيق



دار عزة للنشر والتوزيع

الخرطوم - السودان


دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان

الكتاب : أوراق سودانية مشاهدات وشهادات

المؤلف : شوقي ملاس المحامي

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٧٥٢١

تاريخ النشر : ٢٠٠٤

الناشر : دار عزة للنشر والتوزيع

الإدارة : شارع الجامعة – الخرطوم – جنوب وزارة الصحة .

ت : ٨٣٧٨٧٢٠٠ فاكس : ٨٣٧٩٧٠٨٤ (١ – ٢٤٩ +)

التوزيع : دارعزة للنشر والتوزيع ت : ٨٣٧٨٧٢٠١

السودان – الخرطوم . ص.ب : ١٢٩٠٩

بريد إلكتروني **azza ph @ yahoo.com**

تقديم

بقلم: محمد سيد أحمد عتيق

ما يجري في بلادنا طوال العقدين الأخيرين وفي السنوات القليلة الماضية بشكل خاص يشير إلى نهاية مرحلة تاريخية كاملة وبداية مرحلة جديدة في تاريخ التطور الوطني، مرحلة جديدة تؤدي إلى تغييرات جذرية في كافة مجالات الحياة وفي مقدمتها أحزابنا السياسية. فقد نشأت هذه الأحزاب في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية والنضال ضد الاستعمار. وطوال الخمسين عاماً الماضية فشلت في استكمال انجاز أهداف مرحلة ما بعد الاستقلال السياسي، وساهمت، مع عوامل أخرى، على رأسها سيطرة الأنظمة العسكرية على معظم سنوات ما بعد الاستقلال، في إدخال البلاد في أزمة وطنية شاملة. ولذلك هنالك كتابات تحمل هذه الأحزاب ورواد الاستقلال وجيل ما بعد الاستقلال بعض أو كل مسؤلية تدهور أوضاع البلاد ودخولها مرحلة الأزمة الوطنية الشاملة الجارية الآن. ولا أريد هنا تأييد أو معارضة هذا الاتهام الخطير، فذلك يحتاج إلى بحث واستقصاء في تطورات الفترات السابقة، ويتطلب في البداية تشجيع رموز الاستقلال وأحزابنا السياسية وقيادات تلك الأجيال لكتابة مذكراتها وشهاداتها حول ما جرى خلال السنوات الماضية انطلاقاً من مواقعها ومساهماتها في مختلف جوانب العمل العام. ومن خلال ذلك وحده يمكننا تحديد الظروف والجهات والعقبات التي تحكمت في مسيرة البلاد خلال الفترة المذكورة وبالتالي تحديد مسؤلية هذه الأحزاب والأجيال المعنية بايجابياتها وسلبياتها وتلخيص تجربتها لمصلحة التطور الوطني بشكل عام وتطور الحزبية السودانية بشكل خاص. ومن هنا تجيء أهمية

تشجيع هذه الرموز والقيادات لكتابة مذاكراتها.

صحيح أن غالبية المثقفين السودانيين زاهدون في الكتابة في هذا المجال، لأسباب عديدة تشمل سيطرة الشفاهية في أوساطهم وتقدير العلاقات الاجتماعية والخوف من النقد والنقد الذاتي وغيرها، ولكن ذلك يجب أن لا يثنينا عن مواصلة الجهد وتذليل كل الصعاب القائمة، خاصة أن بعض هذه الرموز قد بدأ في تقديم ونشر مذكراته خلال العامين الماضيين، مثل مذكرات أحمد محمد يس، القيادي البارز في الحزب الوطني الاتحادي وعضو مجلس السيادة الأول الذي تشكل عند إعلان الاستقلال، ومذكرات الخبير الاقتصادي المعروف المرحوم مأمون بحيري والسفير والوكيل الأسبق في وزارة الخارجية خليفة عباس العبيد وغيرهم. وسبقهم في ذلك أحمد خير المحامي وخضر حمد والمعلم العصامي بابكر بدري ويشكل ذلك مؤشراً إيجابياً يساعد في كسر حاجز الكسل والتردد في اقتحام هذا المجال – وفي هذا الإطار تجئ مشاهدات ومذكرات الأستاذ شوقي ملاسي المحامي والقيادي البارز في حزب البعث السوداني ونقابة المحامين السودانيين. فهو من جيل ما بعد الاستقلال، الجيل الذي تفتح وعيه في النصف الثاني لأربعينات القرن الماضي، بعد الحرب العالمية الثانية وصعود الحركة الوطنية في موجتها الثانية واقترابها من تحقيق الاستقلال في مطلع ١٩٥٦. وشب هذا الجيل مع انتصار الحلفاء ضد النازية والفاشية وظهور الأحزاب السياسية الكبيرة وتصاعد نضالها ضد الاحتلال. وفي السنوات اللاحقة شارك في بناء تنظيمات الحركة النقابية وحركات الطلاب والشباب والنساء وشهد ظهور الحركة السياسية الجنوبية ومؤتمر البجا، أولى التنظيمات الإقليمية في البلاد. وشهد

وشارك أيضاً في الصراعات السياسية الحادة بين دعاة الاستقلال والسودان للسودانيين بالتعاون مع حكومة السودان (حزب الأمة) ودعاة وحدة وادي النيل والكفاح المشترك من خلال العلاقة الحميمة مع الشقيقة مصر (الأحزاب الاتحادية) ومن خلال كل ذلك تبلور وعيه وشارك بفعالية في معركة الاستقلال وفي بناء تنظيمات سياسية واجتماعية مؤثرة وسط القوى الحديثة وكان لها دورها في الحياة العامة وفي مواجهة أحزاب القوى المهيمنة والمؤسسة السودانية، خاصة في فترة الحكم الذاتي وسنوات ما بعد الاستقلال. ومع تسارع الخطوات نحو الاستقلال وتصاعد حركة التحرر القومي العربية، خاصة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ المصرية، وحركات التحرر الوطني في أفريقيا وآسيا، مع كل ذلك ازداد وعيه واتسعت أفاقه وطموحاته لتمتد إلى تدعيم الاستقلال السياسي بالاستقلال الاقتصادي والتنمية. ونتيجة لذلك نشأت حركات وتيارات جديدة شملت: التيار الماركسي ممثلاً في الحزب الشيوعي وتنظيمات أخرى، والتيار الإسلامي (الأخوان المسلمون والجماعة الإسلامية بقيادة بابكر كرار وميرغني النصري والحزب الجمهوري بقيادة الشهيد محمود محمد طه) والتيار الاشتراكي الديمقراطي وسط الأحزاب الكبيرة وخاصة الوطني الاتحادي وتنظيمات المستقلين وسط الطلاب والنقابات، والتيار القومي الاشتراكي الذي ظهرت ارهاصاته في جمعية أبو روف ووسط الاتحاديين وفي وقت لاحق ظهرت تنظيمات حزب البعث والناصريين. ووجدت هذه التيارات والحركات نفسها منذ البداية في مواجهة مع أحزاب القوى المهيمنة التي سيطرت على البلاد بعد الاستقلال، وبرز دورها بشكل واضح ومؤثر في ثورة أكتوبر ١٩٦٤ والفترات اللاحقة وربما حتى الآن.

واستندت في ذلك إلى نفوذها الواسع وسط العاملين في جهاز الدولة وفئات المهنيين وبالتالي ارتكازها على فئات نشطة ومؤثرة وسط فئات الطبقة الوسطى وقطاعات العمال والمزارعين المستفرين. وهكذا، يمكن متابعة نشاط جيل ما بعد الاستقلال في هذا الإطار المحدد. وإذا كانت ثورة أكتوبر تمثل أهم انجازات هذا الجيل، فإن ذلك لا ينفي قصوره في مجالات عديدة. ويلاحظ هنا استمرار ظاهرة التشتت والتعدد الحزبي والصراعات الحزبية التي كانت سائدة وسط جيل رواد الاستقلال كما هو واضح في تشتت قوى الديمقراطية والتقدم وصراعاتها مع بعضها وعدم تمكنها من بناء حركة موحدة ومؤثرة حتى الآن. ويلاحظ أيضاً استخفاف هذه القوى بقضية الديمقراطية السياسية وتركيزها على الديمقراطية الاجتماعية، وعلى التغيير الاجتماعي من خلال الثورات والانقلابات العسكرية، بحكم ارتباطها بالمناخ العام السائد في المعسكر الاشتراكي وحركة التحرر القومي العربية في تلك الفترة حتى سبعينات القرن الماضي.

وفي هذا الإطار تجئ مشاهدات وشهادات شوقي ملاسي المحامي. فهو يمثل جزءاً من هذا الجيل، ومن هذا الموقع شارك في كل نشاطاته وحركاته. فقد ولد في أسرة تنتمي للطبقة الوسطى، طبقة الأفندية، ولها اهتماماتها الثقافية والفنية والسياسية، ومن داخلها برز عمه علي ملاسي كقائد متقدم في حركة اللواء الأبيض وثورة ١٩٢٤ وحكم عليه بالسجن لسنوات عديدة. وفي مدينة بورسودان عاش كاتبنا وتلقى تعليمه الأولي والأوسط. وبحكم دورها كميناء وحيد للسودان كانت المدينة تتميز باحتكاكها مع العالم الخارجي وبتركيبة سكانية مدينية متنوعة ونشاط سياسي واجتماعي واسع. وفي هذا المناخ تفتح

وعيه وهو طالب في المدرسة الوسطى وشارك في مظاهراتها ضد الاستعمار.

وفي عام ١٩٤٧ انتقل إلى مدرسة حنتوب الثانوية (كانت هناك مدرستان فقط، حنتوب ووادي سيدنا قبل افتتاح الثالثة في ١٩٥٠) وشارك في بدايات تأسيس الحركة الطلابية السودانية من خلال (مؤتمر الطلبة) وبذلك وجد نفسه في قلب قوى المستقبل، قوى الاستقلال والديموقراطية والتقدم. وشارك في نشاطها بحماس واندفاع. وأدى ذلك إلى فصله من الدراسة في ١٩٥٠ وهو في السنة الثالثة. وفي النهاية قادته أقداره للالتحاق بجامعة القاهرة فرع الخرطوم عند افتتاحها في عام ١٩٥٥ لدراسة القانون. وبعد التخرج عمل بالمحاماة في الخرطوم. ومن خلال نقابة المحامين ظل يمارس نشاطه السياسي العام. والمهم هنا أن الجامعة ساعدته في بلورة توجهاته الفكرية والسياسية، حيث ارتبط بالفكر القومي الاشتراكي البعثي وأسس مع مجموعة من زملائه تنظيماً باسم حزب البعث، بشكل عفوي ودون علاقات مع تنظيمات بعثية أخرى في الداخل أو في الخارج. وهكذا كان لكل هذه العوامل والظروف دور كبير في تكوينه وتدريبه ودفعه للارتباط بالحركة الوطنية الناهضة بشكل عام وتيارها الديمقراطي الاشتراكي بشكل خاص. وذلك من خلال مؤتمر الطلبة الذي كان يسيطر عليه الشيوعيون. ومع ذلك لم يرتبط بالحزب الشيوعي لعدم اقتناعه بالفكرة الماركسية في الأساس. ويبدو أنه كان يبحث عن أرضية فكرية ملائمة لواقع السودان ومحيطه العربي والأفريقي ومع تكوينه الثقافي المرتبط بجهات أسرته الاتحادية ونشاطاته العملية في بورسودان ومدرسة حنتوب والمناخ العام السائد في الحركة الوطنية السودانية وحركة التحرر القومي العربية في تلك الفترة. وفي حديثه حول هذه الفترة هناك ما يؤكد

انشغاله بهذه المشكلة من خلال رفضه الحازم لحركة الأخوان المسلمين وتردده في الأرتباط بالشيوعيين. ولذلك جاءت استجابته بشكل فوري وعفوي عندما أبلغه بعض زملائه وأصدقائه الحميمين بلقائهم بمشيل عفلق وصلاح البيطار، أبرز قيادات حزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا، عند زيارتهم للقاهرة ودمشق في الإجازة الصيفية وقدموا له بعض الكتب البعثية. فقال دون تردد (لقد وجدت ما كنت أبحث عنه منذ مدة طويلة)، ويبدو أن هؤلاء كانوا يشاركونه قلقه الفكري وبحثه عن ايديولوجية سياسية ملائمة. ولذلك بدأوا العمل في تنظيمهم الجديد، ولكن في إطار الخط السياسي العام الذي بلورته نشاطاتهم السابقة. وكان طبيعياً أن يجد هذا التنظيم معاداة الشيوعيين والأخوان المسلمين لأسباب فكرية وسياسية. وفي ذلك تشير المذكرات إلى مساعدات قيمة قدمها لهم أساتذة مصريون وسوريون مرتبطون بالفكر القومي الاشتراكي (لبيب شقير ورفعت المحجوب وعبد الله عبد الدائم)، وهذا الاختيار الفكري والسياسي ظل يحكم نشاطه السياسي في الفترات اللاحقة حتى اليوم. ولكنه لم يكن نتيجة صدفة أو لقناعة ذاتية معزولة، بل كان تعبيراً عن حاجة موضوعية للحركة الوطنية السودانية فرضها عاملان هامان، تمثل الأول في فشل الأحزاب الوطنية الكبيرة في تدعيم الاستقلال السياسي بمضمون سياسي اقتصادي اجتماعي تقدمي، كما وضح خلال فترة الحكم الذاتي وشعار (تحرير لا تعمير) وبعد إعلان الاستقلال حيث سيطرت الصراعات الحزبية الضيقة. وتمثل العامل الثاني في صعود حركة التحرر القومي العربية بقيادة جمال عبد الناصر والثورة المصرية وحزب البعث في المشرق العربي وانعكاسات كل ذلك على القضايا الوطنية وقوى الديمقراطية

والتقدم في البلاد. والواقع أن البعد العربي القومي في الحركة الوطنية السودانية ظل بارزاً منذ جمعية اللواء الأبيض وثورة ١٩٢٤ كما يشير تيم نبلوك في كتابه (صراع السلطة والثروة في السودان) وتواصل بعد ذلك في جمعية أبو روف والحركة الاتحادية. وأمتد أيضاً إلى الأحزاب الأخرى، بما في ذلك حزب الأمة والأخوان والشيوعيين، بدرجات متفاوتة. ونتيجة لذلك ظهرت في تلك الفترة (٥٥ – ١٩٦٠) تنظيمات طلابية قومية في تفكيرها ونهجها السياسي العام في عدد من المدارس الثانوية (وادي سيدنا، الأبيض، بورسودان إلخ ..) وفي جامعة الخرطوم. وكلها كانت تشترك في توجهها القومي الاشتراكي والارتباط العام بقيادة عبد الناصر وشعارات حزب البعث العربي الاشتراكي. وظهرت أيضاً تاثيرات مماثلة في الأحزاب القائمة ووسط الحركة النقابية والثقافية. وهذا كله يؤكد أنها كانت تعبر عن حاجة موضوعية في قلب الواقع الوطني. وهنا لا أريد أن استرسل. ففي الكتاب ما يكفي لمتابعة تطورات هذا التوجه الفكري في مجال البناء التنظيمي والثقافي وفي علاقاته مع القوى السياسية الأخرى ونشاطه السياسي العام. وأهم من كل ذلك في مجال تحديد هويته الفكرية والاجتماعية ومواجهة مشاكل السودان في إطار خصوصية انتمائه ودوره في محيطه العربي والأفريقي وخاصة مشكلة الجنوب وبناء الدولة الوطنية الموحدة في بلد يتميز بالتعدد والتنوع والهوية المزدوجة. فالانتماء الفكري وحده لا يكفي. إذ لابد من ربطه بالواقع وتعقيداته.

لقد كان لي شرف تسجيل وإعادة تحرير هذه المشاهدات والشهادات من خلال عدة جلسات مع الأستاذ شوقي. وكان يتحدث بطريقة مرتبة ويرجع أحياناً

لمذكراته الشخصية ووثائق يحتفظ بها في مكتبته أو متزله وشمل الحديث تطورات الأحداث كما عاشها في فترة ما قبل الاستقلال وفترة الحكم الذاتي وفترة ما بعد الاستقلال. ولذلك اتسم حديثه بالحيوية والإثارة وتطرق لجوانب عدة تشكل شهادات قيمة تضيئ بعض جوانب التطور السياسي والاجتماعي في الفترات المذكورة. وشملت الشهادات أيضاً جوانب أخرى تتعلق بنشأة التيار القومي الاشتراكي وحزب البعث في السودان ودوره في حركة التطور الوطني وخاصة في ثورة أكتوبر ١٩٦٤ وفترة الحكم المايوي ٦٩ — ١٩٨٥. وركزت على هذا الجانب بحكم اهتمامي بتوثيق تاريخ وتطور هذا التيار. والأستاذ شوقي خير من يتحدث في ذلك، بحكم ارتباطه بتطورات هذا التيار منذ بداياته الأولى وسط الطلاب حتى الآن. فهو من الرواد الأوائل الذين تحملوا عبء تاسيس التنظيم القومي الاشتراكي وحزب البعث في السودان وذلك اعتماداً على قدرات وامكانيات طلابية محدودة وفي مناخ سياسي تميز بالاستقطاب السياسي الحاد بين الأخوان المسلمين والشيوعيين. وفي بداية الستينات كان ظهور هذا التنظيم، رغم محدوديته، من أهم افرازات فترة الحكم العسكري الأول وثورة أكتوبر ١٩٦٤. وتطور بعد ذلك ليلعب دوراً مشهوداً في مقاومة الحكم العسكري الثاني وانتفاضة مارس/ أبريل ١٩٨٥ والفترات اللاحقة. ونأمل أن يجد القارئ في هذه المذكرات ما يفيده وأن تكون حافزاً يدفع آخرين من زملاء الأستاذ شوقي وجيله من القوميين والبعثيين والتيارات الأخرى لكتابة مذكراقم. ونعد القارئ

بالعمل في هذا الاتجاه وإصدار الجزء الثاني من المذكرات في وقت قريب أن شاء الله.

وفي الختام لابد من شكر كل من ساعد وساهم في نشر الكتاب ووصوله للقراء خاصة دار عزة للنشر بالخرطوم. فلهم جميعاً الشكر والتقدير.

أكتوبر ٢٠٠٣م

ميونخ، سويسرا

أوراق سودانية
مشاهدات وشهادات

(١)

البلاد وظروف النشأة :

رأيت النور بمترل جدي لوالدتي بمدينة بورتسودان، الـــذي كـــان معروفاً باسم "السرايا"، وذلك يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٣٣م، كأول حفيد لذلك الجد.. وبحكم ظروف والدي العملية بالجمارك التي كانت تتطلب التنقل الدائم في أقاليم السودان، ونزولاً عند رغبة جدي، فقد عشت معه في السرايا تحـــت إشراف خالتي .. وبما أنني كنت الحفيد الأول فقد لقيت في البداية تدليلاً ولكن بدأت الأمور تتغير عندما بلغت سن التعليم. فالتحقت بأحد الكتاتيب لفترة ثم بمدرسة حي العرب الأولية وكان ذلك في العام الذي نشبت فيه الحرب العالمية الثانية. ونظراً لبعد المدرسة عن المترل كانت سيارة الأجرة التي يقودها العم أبو بكر تأخذنا إلى المدرسة ثم تعود بنا .. ولا زلت أذكر الغارات الجويـــة الـــتي كانت تقوم بها القوات الإيطالية على مدينة بورتسودان. إذ كثيراً ما كنا نخرج من التاكسي ونرتمي أرضاً حتى تنتهي الغارة. وكان لدينا خندق واسع في المترل نلجأ إليه نحن والجيران، وكثيراً ما كنت أنال العقاب من جدي لأنني كنـــت أبقى خارج الخندق لمشـــاهدة الطـــائرات البريطانية **Spit fire** وهي تتصدى

للطائرات الإيطالية التي غالباً ما كانت تلقي قنابلها في البحر وتهرب. أما طائرة البوستة (البريد) الإيطالية ذات الصوت الضخم فإن الإنجليز لم يكونوا يتصدون لها.

في مطالع الوعي علمت أن عمي "على ملاسي" كان أحد مؤسسي جمعية اللواء الأبيض وأحد أبطال ثورة ١٩٢٤م في بورتسودان، وأنه قام في يوم انطلاقة الثورة بمساعدة بعض قادة قبائل البجة – وعلى رأسهم الشيخ بامكار والشيخ حمد آدم – بالاستيلاء على المدينة، وكانت بعض الإذاعات الأجنبية تسميه "اللواء على ملاسي".. قامت البوارج البريطانية بقصف بورتسودان ونجحت في استعادة المدينة من الثوار وتم اعتقال العم على ورفاقه ومحاكمتهم. وكان نصيبه من الأحكام السجن لمدة ٥ أعوام وأضيفت لها سنتان قضاها كلها في سجن كوبر بالخرطوم بحري. وبعدها صدر ضده أمر بعدم الخروج من حدود بورتسودان وحُظر من الالتحاق بأي وظيفة أو مزاولة أي عمل خاص .. وفي هذه المناسبة أذكر ما سمعته آنذاك من أن أحد أبناء البجة من المتهمين حاول أن يتحايل على المحكمة، فذكر لها أنه اشترك في المظاهرات" لأن علي ملاسي دعانا للتظاهر احتفالاً بميلاد ابن ملكة بريطانيا العظمي." وبالتالي فإنه كان واجباً علينا الاشتراك، ولكنه عندما صدر ضده الحكم بالسجن عاد وصرخ بأعلى صوته أنه اشترك في الثورة ولا يمكن أن يحتفل بميلاد ابن ملكة تستعمر بلاده..

أعود إلي جدي السيد "إبراهيم محمد حمو" لأذكر أن له أصولاً كردية في تركيا "منطقة ديار بكر" ويُقال أنه كان على قرابة بالأمير عثمان دقنه وأن والدته حملته عند مولده إلى عثمان دقنه ليباركه..

نشأ جدي هذا في سواكن حيث أكمل تعليمه وتزوج من جـــدتي السيدة أم الحسن الكابلي، ابنة السيد محمد الكابلي، سر تجار سواكن.. كــان يعمل في وظيفة باشكاتب لما كان يُسمي بـــ "الايســترن" أي التلغــراف الإنجليزي بميناء سواكن .. وفي العام ١٩٠٢م تم نقل الإيسترن مع المصــالح الحكومية الأخرى إلى الميناء الجديد "بورتسودان" الذي أنشأه الإنجليز لتــدمير سواكن لأنها لم تسقط في يد المهدية وبالتالي ظلت تحت سيطرة خديوي مصر دون أن تخضع للإنجليز عند إعادتهم احــتلال الســودان عــام ١٨٩٨م.. في بورتسودان أصبح جدي - باشكاتب الإيسترن – من أعيان البلد الذين كانوا على علاقة طيبة بالانجليز. وقد تولى أيضاً رئاسة المجلس البلدي وكان عضــواً بالمحكمة، ورغم ذلك فقد كان منزله هو مركز لقاء كل أهل البلد من المتعلمين – أطباء وموظفين ورجال بوليس وقضاة – بين الساعة السادسة والثامنة مساءً حيث كان يستقبلهم في المصطبة الواسعة المطلّة على حديقة المــنزل ليقضــوا وقتهم في التفاكر والتحليل لما يجري، وبعد انصرافهم كان يستمع إلى إذاعــة لندن وأحياناً أمدرمان وخاصة عندما تغني عائشة الفلاتية .. وكــان النظــام السائد في هذا المنزل في غاية الصرامة. مثلاً غير مسموح البقاء خارج المــنزل بعد الثامنة مساء وإلا فلن يدخل أحد المنزل بعد ذلك حتى الفجر، والوجبات

في مواعيد محددة، والمذاكرة كذلك في كل مساء عدا أمسيات نهاية الأسبوع والعطلات، إضافة إلى مهمة استقبال الزوار والقيام على خدمتهم.. وقد قرأت مؤخــراً أنه كان على علاقة قوية بقائد الثورة العربية الكبرى، شريف مكة، "الشريف حسين"..

في صــباي أدمنت قراءة القصص البوليسية (أرسين لوبين وشرلوك هولمز..) وكنت أختفي في سقف الدولاب عند قراءتها خوفاً من جدي الذي كــان يــراها إهــداراً للوقت، ثم بدأت قراءة مجلة المختار (ريدرز دايجست) الأمريكية معجباً بما كانت تقوله حول الديمقراطية والحرية وحق تقرير المصير لدرجــة أن أحد أعمامي كان يسميني "ريدرز دايجست"، بعدها انتقلت إلى المكتــبة الضخمة التي تخص جدي وعمي "حسين ملاسي" والتي كانت تحوي العديد من عيون كتب التراث العربي وآدابه القديمة والحديثة وعدداً لا بأس به من الكتب الإنجليزية، لأنفق الساعات الطويلة في قراءتها، ثم مع ازدياد الوعي توجهت لقراءة الصحف السودانية التي بدأت آنذاك في الظهور إضافة للصحف المصرية التي كان يشتريها جدي بكثرة من الاهرام إلى المقطم والمصور والاثنين وآخر ساعة والمسامرات.. الخ..

كــان سكان منزل جدي مؤيدين للحلفاء في الحرب ما عدا احدى خالاتي والتي كانت تدرس في مدارس الكاثوليك. حيث تقوم بالتدريس فيها الراهــبات الإيطاليات، كانت تؤيد دول المحور .. وفي هذا تحضرني قصة أحد سكان الحي الذي كان في دخيلة نفسه مؤيداً للمحور ولكنه بالطبع لا يستطيع



صـــورة أرسلهـا والده حسب الله ملاســـي إلي شقيـقه حسـين ملاسي في عطبـــرة وكـــتب عـلي ظهـرهـا (اهديك رسم شـــوقي الصـــغـــيـــر)

الجهــــر بذلك. فكان يستمع سراً لإذاعة برلين والمذيع "يونس بحري" الشهير، أثناء تناوله الخمر، وعندما يسكر يخرج إلى الشارع وهو يهتف "ايوه أديلو" أي "نعم أضرب" ثم يهتف بحياة الحلفاء وهو يعلم أن الحرب في تلك الأيام كانت تسير لصالح المحور!!

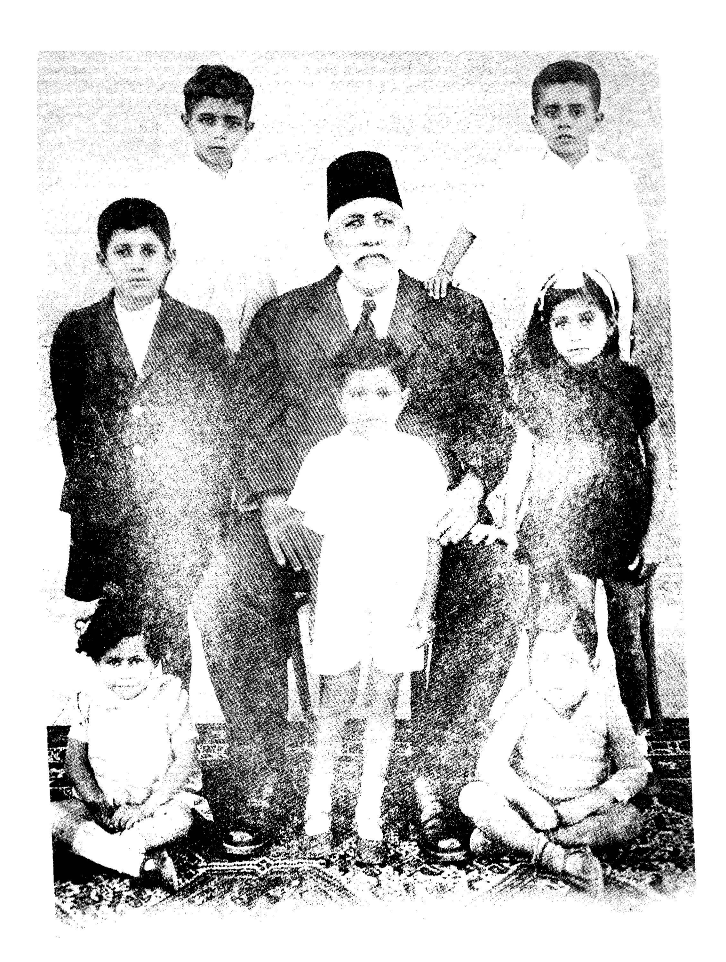
بعــــد الخامسة من عمري التحقت بــــ "خلوة القرآن وكتابته على الألواح بقلم الطابشير، وكان الفكي (والفكي تحوير سوداني للفقيه) في الغالب قاســـياً وصـــارماً. وهو أسلوب التربية الذي كان سائداً آنذاك.. ومن هناك انتقلت إلى مدرسة ديم العرب الأولية (الكُتّاب) مع بداية الحرب الثانية، كما أسلفت، وأكملت هذا التعليم الأولي (الأولية) بالمدرسة الأميرية ببورتسودان ثم انتقلت إلى المرحلة الابتدائية (الوسطى في التسميات اللاحقة) وكانت في نفس المبنى. وكانت هي المدرسة الابتدائية الأميرية (الحكومية) الوحيدة آنذاك في كل شــــرق السودان، وكان بها قسم داخلي للطلاب القادمين من خارج المدينة.. كانـــت مناهج المرحلة الابتدائية آنذاك جيدة للغاية يكاد مستواها يتفوق على المستوى الثانوي الحالي،خاصة في اللغتين العربية والإنجليزية والنشاط المسرحي والثقافي ..

أذكر من أساتذتي الاجلاء في ذلك الوقت : حسن الطاهر زروق – أبو زيد محمد صالح من أهالي برى – عبد المنعم عبد اللطيف – الشيخ الجاك – ضرار صالح ضرار – محمد صالح ثابت – عبد الرحمن مدني – والناظر محمد الأزرق .. اشـــتهر الأستاذ عبد المنعم عبد اللطيف بعبارة "ياليلة الأربعاء بالله

عــودي" الــتي كان يردّدها عندما يعاقب المخطئ ضرباً بالسلسلة الحديدية الخاصة بمفاتيحه، و لم نعرف المقصود بالعبارة حتى الآن، أما الأستاذ عبد الرحمن مدني فقد كان مشهوراً بالنسيان الشديد خاصة للأسماء. فكان ينادي الجميع باســم "جلال"، بينما كان الشيخ الجاك "الأزهري البارع في اللغة العربية" لا يعرف شيئاً في الإنجليزية أو عن العالم الخارجي لدرجة أن بعض الطلاب كان يورد أسماء ممثلين مثل جارى كوبر وغيره في مواضيع الإنشاء باعتبارهم أدباء أو فلاســفة وينسبون لهم ما يشاءون دون أن يكتشفها!!، وعندما تزوج كان معــروفاً عنه أنه يغلق باب المترل على زوجته بالمفتاح حتى عودته، وكان يجد صعوبة في السيطرة على الفصل، وإذا حكم عليك سلباً فإن تقييمه هذا لا يتغير طــوال تدريســه لــك خلال المرحلة كلها، مهما تحسن مستواك. والعكس بالعكس مهما تدهور مستواك ..

درس معــنا في تلك المدرسة ابن خالي الفنان الكبير عبد الكريم عبد العزيز الكابلي، حيث تفتحت مواهبه فيها منذ أن كان في التاسعة من عمره. فكان يغني في حفلات المدرسة بمصاحبة الطالب الفنان "خليفة" بالعزف على العود..

أنشئت مدينة وميناء بورتسودان – كما أسلفت – لتحل محل ميناء ســواكن، وتم تخطيطها على شكل العلم البريطاني، وبالتالي فهي مقسومة إلى قسمين هما :



مع جده لوالدته المرحوم إبراهيم محمد حمو

- البر (الشاطئ) الشرقي : وبه الميناء وأحياء العاملين بالميناء مثل "ديم أبو حشيش"..

- البر الغربي : حيث الحديقة الجميلة المشهورة والسوق الافرنجي الذي يضم المطاعم والبارات والمقاهي.

وكانت من أشهرها "رامونا" و "باركوبلي" و"بار الضلمة"، ثم المناجر التي كان يملكها ويديرها الأغاريق، الذين كانوا جالية كبيرة في بورتسودان ويسكنون في أرقى أحيائها" الحي الاغريقي،" ثم مبني المديرية ومساكن كبار موظفي الحكومة والقضاة والشركات الأجنبية التي كانت تسيطر على اقتصاد البلاد مثل: "جلاتلي هانكي" "متشل كوتس" "ماركنتايل" و"بوكسول" ولم تكن هنالك شركات وطنية سوى شركة أبو العلا التجارية وعبد المنعم محمد وشركاه والزهران وآل بعشر وكانت تعمل في مكاتب متواضعة وتستخدم عدداً قليلاً من الموظفين والعمال، وكانت هنالك مكتبة الجدّ إبراهيم على وابن أخيه عثمان حسين ضرار (شقيق قطب الجهة الإسلامية مؤخراً موسى حسين ضرار) وظلت لفترة طويلة المكتبة الوحيدة التي تتولى بيع الكتب والمجلات المصرية والسودانية، حيث كانت "الاهرام" هي الصحيفة الأولى التي يحرص المتعلمون على قراءتها، وفي فترة لاحقة افتتح الأخ يحي الغصين "مكتبة" وكان الغصين من ابرز أعضاء حزب الأشقاء المتحمسين للوحدة تحت التاج المصري، وكانت تدور بينه وبين القطب الشيوعي عبد الرحمن الوسيلة مناقشات حامية يختتمها الغصين بأنه "تاج وعندو قرنين" لأغاظة الوسيلة .. في البر الغربي هناك

أيضـــاً الاحياء السكنية بدرجاتها المختلفة مثل : ديم المدينة، ديم سواكن، حي العـــرب، ديم فلاتـــه، ديم رملة، ديم اليمانية، بالاضافة إلى سجن بورتسودان وقشـــلاق القوات المصرية، وفي مرحلة لاحقة أُقيم داخل المدينة، بجوار منزلنا، معسكر عمل للأسرى تحت حراسة جنود من الهند وآسيا وإفريقيا..

كـــان جدي قد اشترى منزله هذا (السرايا)، الواقع في أحد الأحياء الراقـــية بالمدينة، من الشريفة "مريم الميرغينة" المقيمة في سنكات وكان يسمى "ســـراية الميرغيـــنة". وكان السيد على الميرغني ينزل في هذا المنزل عندما يأتي لزيارة بورتسودان، وذلك قبل أن يبني منزله الخاص بها. فيتم اخلاءنا من المبني الرئيســـي لـــلمنزل لاستضافته فيه.. وكانت احدى زياراته تلك بغرض تفقد أحـــوال اتـــباعه عندما ضربت المجاعة المنطقة في أعوام ٤٦-١٩٤٩م فكانوا ينصـــبون له منصـــة خشبية داخل أسوار المنزل ليقف عليها ويطل منها على الشـــارع لتحية المريدين والاتباع.. كان هذا الحي يضم أيضاً سرايا بازرعة، ومـــنازل مـــن الحجر كمنزل حسين بدوي وآل السمكري إضافة إلى منازل أخرى من الخشب، أذكر منها منزل آل شمس ومنزل العم أمين الشاذلي ومنازل أعمـــامي حســـين وعلي ومنازل آل نصر وغيرهم .. وكان منزل جدي كما أسلفت مركزاً يلتقي فيه أغلب المتعلمين في الأمسيات، وكانت الجلسة الواحدة تضـــم في بعض الأحيان أكثر من خمسين شخصاً، أذكر منهم الدكتور مختار (حكيمباشى المستشفى) والدكتور أبو الريش والدكتور زكي مصطفى وعدد من الشعراء والأدباء، وكان من أبرز الحضور الدائمين الجدّ إبراهيم على والجدّ

محجوب بك أمين والجدّ صالح ضرار، وكنت أقوم بالخدمة ومعي آخرين بتقديم الشاي والقهوة، حيث كنت أجلس للمذكرة في الغرفة المجاورة للمصطبة التي يجلسون عليها وأقوم بفتح الباب للطارقين..



المرحوم حسب الله ملاسي بملابس مصلحة الجمارك

(٢)

*** المظاهرة الأولى .. الخطوة الأولى، في بورتسودان :**

الحياة في بورتسودان – وعموم السودان – في تلك الأيام كانت طيبة وسهلة، خاصة بالنسبة للعاملين في الحكومة أو الشركات والبنوك، وكان منتهى طموح الشباب هو إكمال الدراسة الابتدائية (المتوسطة) والالتحاق بوظيفة .. ولأن جدّي كان يحرص على إيقاظي مبكراً للصلاة ثم ليرسلني لشراء اللحوم والخضروات من السوق، فإنني إذكر أن "وقة "اللحم (أكثر من كليو) كانت بخمسة قروش، وكانت أسواق المدينة تعج بكل أنواع الفواكه القادمة من كسلا أو المستوردة من مصر بأسعار في متناول الجميع، فقد كانت – ولا زالت – مشكلة بورتسودان هي المياه لأنها تعتمد على مياه "آبار أربعات" التي لا تكفي للشرب، ناهيك عن الزراعة، إضافة إلى ملوحة الأرض .. ومع ذلك كان جدّي حريصاً على مزرعته داخل المترل والتي كان يغذيها بطمي النيل الذي يجلبونه له من عطبرة ويزرع فيها أنواعاً من الخضروات والفواكه والنخيل والتمرهندي، وكنا نحتفي بموسم بدء الثمار ونتسابق لالتقاطها بعصا طويلة على رأسها سلك معقوف نسميها "القطافة"..

كان لجدّي عدد من البنات وولدين، هما حسن وعلي، وكان الابن الأكبر الخال "حسن" على علاقة متوترة بابيه لأنه تزوج دون أن يستشيره، ولذلك سكن مع أسرته خارج السرايا وكان ذلك يترك آثاراً سلبية في أجواء المترل.. أما الخال "علي" فقد كان يسكن بالمترل ويطيع والده في كل شيء،

وكــان يشغل وظيفة باشكاتب "الحوض" وكانت لديه سيارة .. كان بالمترل أيضــاً العــم "عثمان حمو" الذي تبناه جدّي وأعتبره أحد ابنائه (ابنه الثالث) وأصــبح مــن أميز اللاعبين في كرة القدم بفريق "السواكنية" ثم فريق "حي العرب". ومن خلاله عشقت كرة القدم لدرجة الهوس، غير أن جدّي منعني من اللعب خارج المترل. فاشترى لي كرة حقيقية وسمح لنا أن نلعب ونتبارى داخل حــوش الســرايا تحت رقابته، وأذكر من اللاعبين الممتازين الذين يشاركون اللعب في الحوش مصطفى عبد الجواد، شقيق الأستاذ المرحوم محمد عبد الجود، وكمــال حماســي، ومحمد الحسن أحمد، لاعب الدرجة الأولى لاحقاً بفريق "ونجت" ثم "الشبيبة" .. من جهة أخرى كان والدي من المهتمين بالرياضة ومن كــبار أقطاب فريق "السواكنية" ولا زلت أذكر صورته الضخمة على الجدار وإلى جانــبها قصيدته الطويلة في تحية الفريق عند فوزه بأحد الدروع، وكان مطلعها"

"دامت سواكن في عزّ وأبهة   ودام سوداننا بل دامت العرب"

كنت من المشجعين المتحمسين لفريق حي العرب وبي حنين له حتى الآن، رغم بعــد المسافة والزمن، كانت المنافسة الحادة تنحصر بين "حي العرب" وفريق و"نجت" (الهلال فيما بعد) .. لاعبو حي العرب كانوا من أبناء المنطقة، بينما كــان أغلب اللاعبين في "ونجت" (الهلال) من الموظفين والعمال القادمين من خارج بورتسودان ومن الخرطوم.. من أبرز لاعبي حي العرب الذين أذكرهم آنذاك اللاعب الموهوب أحمد عبد الله وشقيقه عبد القادر – عواض – كتري

– افتيمو (حارس المرمي الاغريقي) – ومن بعدهم : محمد إسماعيل – لونج – محمــد سعيد – أدروب جيلاني – محمد بشارة – عبد الله عثمان – اللاعب الفنان القادم من "نادي النيل" بالخرطوم عبد الكريم سرور (هدو) – اللاعب المخضرم الكابتن كشيب – المايسترو عبد الحفيظ ميرغني (الذي لعب فيما بعد بالسعودية ثم الأهلي القاهري).. أما أبرز لاعبي "ونجت" على الاطلاق فكان هــو زكي صالح (كابتن الهلال العاصمي فيما بعد) .. ومع مرور الزمن ظهر فريق جديد قوامه الاشبال باسم "الشبيبة" وأصبح منافساً ثالثاً لذينك الفريقين وكــان من أبرز لاعبيه: حسين فقيري – شيبة تكروني – ثم تكاثرت الفرق الجديدة كالاتحاد والمريخ والثغر.. الخ.

أمــا مناســبات الــزواج والوفاة فقد كانت لها طقوسها، كانت الاحتفالات بالأفراح تستمر أسبوعاً، وفنان بورتسودان الأول الذي يحي أغلب الحفلات كان الأستاذ محمد عثمان الشايقي .. في يوم الزفاف يتم عقد القران في المسجد الكبير ومن هناك تبدأ "زفة العريس" الذي يرتدي في الغالب الزي الوطــني محلــواً بالحناء و"الجرتق"، وذلك سيراً على الأقدام، محفوفاً بأصدقائه الذين يمارسون معه المداعبات الخشنة واللطيفة طوال الطريق .. وكانت للنساء أيضــاً احتفالاتهن الخاصة التي تغني فيها الفتيات بمصاحبة المغنيات المشهورات ذوات الأصــوات الجميلة. إذ لم يكن عيباً أو ممنوعاً أن تغني النساء حتى من الأسر الكبيرة والمحافظة أيضاً وأن تبرز من بينهن مغنيات مشهورات، وكانت مــن أشــهرهن زوجة العم نصر عثمان، والدة الضابط المعروف عثمان نصر

عــثمان، وعلى ما أذكر كانت أغنية "جاهل صغير وحمامة" من تأليفها هي، وكــان قد تغنى بها الأخ غير الشقيق لابنها الضابط عثمان، اللواء محمد نصر عثمان، عضو المجلس العسكري الأعلى في انقلاب الفريق إبراهيم عبود لاحقاً، وتقــول في الأغنية: "جاهل صغير وحمامه، يوم لبّسو الكمامة، ودوهو خشم القــربة، ياحاج أنا" (والحاج اشارة إلى شقيق محمد، الحاج عبد الرحيم نصر) وتقول أيضاً: "طلعت فريد في الكورة، يوم لبّسُو الدبورة، ودّوه خشم القربة، يا حاج أنا"

كانت الأفراح – أفراح الزواج – مناسبات حقيقية للحبور والبهجة البرئية يأتي لحضورها والمشاركة فيها الأهل والأصدقاء والمعارف من العاصمة ومن الأقاليم البعيدة.. ومن المناسبات التي لم تغب عن ذاكرتي حتى الآن مناسبة زواج الأخ حســن فقيرى والأداء المتميز لمغني الشلّة فيها الأخ الأستاذ حسين باذرعة، الشاعر المعروف، الذي كان يمتاز أيضاً بالعزف على العود والصوت العذب، بمشاركة الأخ الصديق "محمد بشارة" .. كذلك أذكر أن فاصل رقصة "الكلاكيــت" كــان من الفقرات الثابتة في الحفلات والأفراح آنذاك وكان يقدمهــا شابان يرتديان البدلة الافرنجية الكاملة البيضاء والقبعة واللذان اشتهرا فــيما بعد شهرة واسعة في عالم الغناء والموسيقى، وهما الأخ "محمدية" عازف الكمــان الــبارع والأشــهر في السودان حتى الآن، والفنان ذو الموهبة الفذّة المرحوم صالح الضي"..

في حالة الوفيات كان العزاء بالنسبة للرجال أسبوعاً كاملاً يأتي خلاله الأهل والجيران والأصدقاء يومياً إلى المأتم، وتتم استضافة القادمين من الأقاليم لحين مغادرتهم .. أما بالنسبة للنساء فقد تمتد فترة العزاء لمدة أربعين يوماً..

وفي مرحلة لاحقة تم تكوين أول فريق سوداني لكرة السلة ليمارس نشاطه في إطار نادي سواكن، الذي كان يضم أيضاً أنشطة أخرى مثل البلياردو والشطرنج، وكان لديه مسرحاً لتقديم الأنشطة الفنية والمسرحية واستضافة المطربين القادمين من الخرطوم .. وكان يجاور نادي سواكن نادي ونجت (الترسانة ثم الهلال فيما بعد)، ويليه أو يجاوره نادي الخريجين الذي كان مسرحاً لنشاطات مؤتمر الخريجين ثم مهداً للأحزاب عند نشوئها، كحزب الأشقاء، وكان العم المرحوم حسين ملاسي رئيساً لمؤتمر الخريجين، ومن الأيام المشهودة بأحداثها آنذاك كان يوم إزالة الحواجز الخشبية التي كانت بمثابة الأسوار بين الناديين الكبيرين تأكيداً لمبادئ الوحدة الوطنية الرياضية وإنهاءً لعهد طويل من المنافسة العصبية.

تظاهرة ١٩٤٦م الخطوة الأولى :

كنت في الصف الثالث الابتدائي عام ١٩٤٦م الذي شهد تصاعداً ملحوظاً للمطالب الوطنية في حق تقرير المصير وإنهاء الاستعمار، عندما أرسلت القوى السياسية وفداً منها إلى الأمم المتحدة للتعبير عن تلك المطالب .. وتم

الاتفـــاق عـــلى تسيير تظاهرات شعبية تأييداً لتلك الخطوة، وكانت المدرسة "الأهلـــية الابتدائـــية" ببورتســـودان تضم عدداً كبيراً من الأساتذة الوطنيين واليساريين، أذكر منهم على سبيل المثال الأساتذة: "ناظر المدرسة محمد أحمد سليمان (والد المحاميان بدر الدين وغازي سليمان) – الباجوري – محمد عبد الجواد – عوض عبد الرازق – عبد الرحمن الوسيلة – حاج الطاهر" .. ونحن أيضاً قررنا في مدرستنا (الأميرية الابتدائية) (الحكومية) أن نشترك في التظاهرة مـــع المدرســـة الأهلية، وقمنا، باستثناء طلاب الصف الأول لصغر أعمارهم، وطـــلاب الصف الرابع وهو النهائي لانشغالهم بالامتحان النهائي للمرحلة .. ولأن إدارة المدرسة الأميرية أغلقت كافة أبواب المدرسة قررنا القفز من النوافذ قبل دخول الأستاذ علينا للحصة الثالثة، وكان "ألفة" فصلنا (راس المجموعة) هو الأخ "عبد اللطيف السمكري" الذي تربطه قرابة بضابط المدرسة الأستاذ الجيد والصارم في نفس الوقت "أحمد فرح" .. وعندما ظهرت طلائع تظاهرة المدرسة الأهلـــية أعطانـــا عبد اللطيف السمكري الإشارة لنقفز من ورائه. فقفزنا .. اندمجـــت في التظاهرة بكل حواسي مستحضراً سيرة عمي "على ملاس" الذي قاد ثورة ١٩٢٤م في بورتسودان" وما عاناه بعد ذلك من سجن وحرمان من العمـــل والسفر، وعندما وصلت التظاهرة إلى منطقة السوق الأفرنجي، حيث المحـــلات الـــتجارية الفخمة التي يملكها الأغاريق والبنيان (أي الهنود) تحولت الـــتظاهرة إلى العنف لتحطّم في طريقها تلك المحال التجارية والمقاهي وتعتدي عـــلى مـــن تجده من أجانب (أغاريق وهنود غالباً) تعبيراً عن سخطها عليهم

باعتبارهم أعواناً للمستعمر البريطاني.. ولأن الشرطة لم تحضر حتى تلك اللحظات لتفريق التظاهرة فقد استمرت التظاهرة بقيادة ذلك الشخص الغريب الأطوار، الأخ عبد الغفار، ابن الشيخ ساتي إمام المسجد الكبير والذي كان مشهوراً بركوب الخيل دون سرج وتقليد رعاة البقر الأمريكيين والقفز من على قمة الجسر الذي يربط الشاطئين الغربي والشرقي في المدينة .. تلفت فجأة بحثاً عن زملائي الذين قفزوا معي دون جدوى، وعندما بدأت الشرطة في الوصول أخذت التظاهرة في التفرق فاتجهت إلى المترل. وعندما سألتني خالتي التي ترعاني عن سبب عودتي مبكراً هكذا من المدرسة ادعيت لها أنني مريض، أما جدّي الذي حضر إلى المترل بعد ذلك فقد كان على علم بما جرى فأمرني بالعودة فوراً إلى المدرسة .. وفي المدرسة اكتشفت أن الأخ "الألفة" عبد اللطيف السمكري وآخرين لم يشتركوا في التظاهرة وإنما عادوا إلى الفصل بعد القفز وذلك عندما رآهم ضابط المدرسة الأستاذ أحمد فرح!! وجدت المربي الجليل ناظر المدرسة، المرحوم محمد الأزرق، يرغى ويزبد. وما أن رآني صاح بي أن أعود إلى الفصل عن طريق الباب لإنني حاولت التسلل بالنافذة .. اتضح أن عدد المشاركين بالفعل لم يتجاوزوا العشرة وأنهم أوائل الفصل، قام الناظر بتوبيخ المشتركين ووصفنا بالخونة لأننا تركنا الدراسة بينما البلاد تنتظرنا أن نتعلم ونكون عدّة لها في المستقبل، وفي ختام حديثه أعلن قراره بفصلنا من المدرسة وأمرنا بتسليم الكتب والأدوات ومغادرة المدرسة نهائياً .. أذكر من تلك المجموعة الأخ سر الختم عبد الماجد (الطبيب الاختصاصي فيما بعد)

والأخ ســر الخــتم عمر ثابت (الطبيب أيضاً) .. وفي المترل واجهت العقاب والتوبيخ أيضاً من جدّي ... غير أن الآباء وأعيان البلد بدأوا اتصالاتهم بإدارة المدرســة فــوراً لتعديل عقوبة الطرد النهائي وتخفيضها لعقوبة أخرى أنسب، وبــالفعل وافقــت الإدارة على التخفيف بأن يكون الطرد من الدراسة لمدة أسبوع واحد اضافة إلى الجلد عشرة جلدات لكل واحد، واكتشفت أن هنالك طالــباً واحداً كان قد اشترك من الصف الثاني هو الأخ الصديق "محمد عثمان كوداي"..

كان ذلك الأسبوع بالنسبة لنا عيداً، كنا نلتقي صباح كل يوم بالبر الشرقي ونصطاد السمك ثم نذهب ظهراً لمترل أحدنا لتناول وجبة الغداء ولعب الــورق (الوســت) وفي المساء نذهب جميعاً إلى السينما.. وفي ذلك الأسبوع شــربت "البيرة" لأول مرة في حياتي وكنت مسبقاً قد تعلمت التدخين حيث كنا نذهب في ساعة الفطور خارج المدرسة ثم إلى الفناء الخلفي لقهوة الشايقية لشــرب الشــاي والكاكاو. وهناك كنا نلتقي بالأخ الشرطي الرشيد، الذي أصبح فيما بعد صديقاً للكثيرين من بيننا وسيرد ذكره لاحقاً ..

وعــندما انــتهى ذلــك الأسبوع ذهبنا إلى المدرسة في اليوم المحدّد وأرتــدى كل واحد منا عدداً من الملابس الداخلية والأردية – الشورتات – (مــردّفين كما كنا نقول) لزوم تخفيف آثار الجلد على مؤخراتنا.. ورغم أن ذلك كان واضحاً علينا فقد غض الناظر والمعلمون أبصارهم وأمروا أن يكون الجلــد خفــيفاً،ذلك أنهــم كانوا في قرارة أنفسهم فخورين بنا وبمشاركتنا

الجســـورة، مثلهم في ذلك مثل كل أفراد شعبنا المناهضين للاستعمار .. تلك قصة أول مشاركة في نشاط وطني سياسي وكانت خطوة أولى لمسيرة طبعت حياتي كلها وارتبطت بها..

* أيــام حنتــوب :

كانت أول وأمتع رحلة أقوم بها بمفردي في حياتي هي رحلتي بالقطار من بورتسودان إلى حنتوب للالتحاق بمدرستها الثانوية. وقد وصلتني برقيـة القبول فيها متأخرة عن بقية زملائي .. صعدت إلى القطار المتجه إلى الخرطوم محفوفاً بالعشرات من المودعين من الأهل والأصدقاء والمعارف، حقيبتي ملأى بالجديد من الملابس والأحذية، والزاد، زاد الطريق "قفة الزوادة" مترعة بما لذّ وطاب من الدجاج المحمر والجبنة والطحنية والرغيف الفينو. وحنتوب الأمينة، حنتوب الصور الغائمة في الخيال " هل حقاً سأراها والتحق بها وأغني لها مـع فنانها، فنان ود مدني الكبير "الخير عثمان" : "حنتوب الجميلة، للنيـل عاملـة شامة، والهدهد علامة؟.." كنت طوال الرحلة مع نفسي فقط وحنتوب تلوح في الخيال.. لم أنم لحظة واحدة إلى أن وصل القطار بنا محطة الخرطوم بحـري التي ينتظرني فيها العم المرحوم مختار، زوج خالتي العزيزة، التي كانـت تقـوم بالعناية بي بمنزل جدّي قبل زواجها، ليأخذني إلى منزله ريثما استأنف الرحلـة إلى مدني بقطار آخر.

كان ذلك في النصف الثاني من العام ١٩٤٧م وكان بالسودان آنذاك مدرستان ثانويتان فقط قبل تأسيس "خور طقت" هما: "وادي سـيدنا" الـتي كانت السلطات الاستعمارية قد خصصتها لأبناء مديرية الخرطوم والمديريـة الشمالية، ومدرسة "حنتوب" المخصصة لأبناء الشرق والغرب والجزيـرة .. وحجز لي العم مختار "قمرة" (كابينة) بالدرجة الثانية – وهي الدرجة التي كان

يسافر عليها موظفو الحكومة وعائلاتهم — في العربة الوحيدة من عربات القطار التي ستنفصل وتبقى في مدينة ود مدني ليواصل القطار ببقية عرباته سفره نحو اقاليم أخرى .. أخذني العم مختار إلى مكاني داخل عربة القطار واعطاني المزيد مـــن الفواكه، فجلست اتسلى بالبرتقال وحيداً ليس معي أحد في "الكابينة"، غلبني النوم بعد ساعة واحدة من اقلاع القطار فنمت ..

لم تـــبارح خيالي حتى الآن مشاهد ذلك اليوم بتفاصيلها، والتي تبدأ من لحظة استيقاظي من النوم في صبيحة اليوم التالي لأجد نفسي وحيداً داخل عـــربة قطار، هي أيضاً تقف وحيدة وسط شبكة من خطوط السكة حديد، بصورة موحشة ملأتني خوفاً لم يتبدد إلا عندما وجدني بعض العمال وقادوني إلى مكتـــب ناظـــر المحطة، حيث علمت أنني فعلاً في مدينة مدني المحطة التي أقصدها لأعبر منها النيل الأزرق إلى حنتوب، ثم حمّال الأمتعة الذي أوصلني إلى المشرع "مرسى اللنش" الذي يعبر إلى حنتوب. وهو رجل مدهش اسمه "الجمل" فهو ضرير لكنه لا يخطئ طريقه بين محطة القطار والمشرع، والذي يخترق مدينة ود مدني بالكامل، وسائق اللنش "الأسطى عبده" الشاب اللطيف الهميم الذي يـــتطوع بمســـاعدة الطلاب في حمل أمتعتهم من ضفة حنتوب إلى مدرستها وأصبح صديقاً لأجيال من طلاب جنتوب..

اســـتقبلني ضابط المدرسة المرحوم الأستاذ عبد المنعم فهمي في مكتبه وأطلعـــني عـــلى أنظمـــة المدرسة والداخلية : الداخليات السكنية بمجموعتين "الشـــرقية والغربية" وكل واحدة تضم ٣ داخليات مسماة بأسماء قادة وطنيين

من ابطال مقاومة الاستعمار التركي ورموز الثورة المهدية، فالداخليات الشرقية تضم داخليات الزبير – عثمان دقنة – الملك نمر ، والغربية تضم داخليات النجومي – ابو عنجة – ود ضيف الله (اسم المؤرخ الشهير صاحب طبقات ود ضيف الله).. تمّ توزيعي للسكن بداخلية الزبير، بالعنبر الشمالي الواقع جوار الحمامات عند المدخل الرئيسي، وهناك استقبلني عامل الداخلية الرجل البشوش، العم حمدان، أما داخلية أبو عنجة فقد اشتهرت بفتوتها ولاعبيها في كرة القدم ورئيس الدكتاتورية الثانية بالسودان فيما بعد، جعفر نميري، الذي عرف بـ "طيش حنتوب"،لأن عرف بممارسة الألعاب الرياضية وعدم الاهتمام بالجوانب الدراسية ومن هناك إلى الفصل الذي تمّ تسجيلي فيه من بين الأنهر الخمسة في المدرسة، وكان المشرف عليه هو الاستاذ هاشم ضيف الله، لاعب الهلال الكبير، أما المشرف على الداخلية فقد كان المؤرخ البريطاني المعروف المستر هولت .. في الفصل يجلس كل طالبين على "كنبة" وكانت الكنبة الوحيدة التي بها طالب واحد وأجلسوني بجواره. وبعد نهاية الحصة تعارفنا أنا وجاري الذي كان الطالب "حسن عبد الله الترابي" والذي سيصبح "الشيخ أو الدكتور حسن الترابي" فيما بعد زعيم الدكتاتورية الثالثة في السودان .. كان ناظر المدرسة هو المستر براون الشهير باسم "طرزان" لأنه كان يعشق السباحة وكرة القدم ويتجول بملابس السباحة أو عارياً بالشورت فقط .. تبدأ الدراسة بعد شاي الصباح عند الساعة السابعة، وقبل نهاية فسحة الفطور ينعقد لقاء عام الـ Assembly ويخاطبه الناظر براون، وكان هنالك ما يسمونه

"المائدة العالية" التي يتصدرها الناظر أو نائبه وبعض الأساتذة والرؤساء الأوائل للداخليات، حيث كان لكل داخلية رئيس أول ورئيس ثاني من بين طلابها، وكان الرئيس الأول لداخليتنا الأخ المهندس عبد العاطي محمد والثاني، الاداري ورئيس نادي الهلال لاحقاً، الأخ الطيب عبد الله. وبالداخلية أربعة عنابر وغرفة للرؤساء وغرفة للعامل وغرفة عامة بها أدوات تسلية وكرة مضرب ..

تجدّدت صداقاتي مع زملاء بورتسودان خاصة الاخوة : جعفر علي الحاج، الرياضي البارز الذي التحق بالشرطة ثم تركها ليعمل في الزراعة والتجارة – محمد الأمين ترك، ناظر قبائل الهدندوة والبرلماني لاحقاً – علي حسين المليك، بطل القفز العالي لكل المدارس ومؤسس مؤتمر البجة – الاقتصادي الأستاذ قاسم صالح ضرار – الدكتور سيد حمد نقد الله، أحد قادة الحركة الشيوعية وعضو قيادة انقسامها الأول – الخبير الزراعي مصطفي بعشر – الروائي الكبير الأستاذ الطيب صالح – الناظر بالمدارس الثانوية لاحقاً الأستاذ عبد السيد محمد وغيرهم. وفي الغام الأول انتقلت إلى العنبر المواجه لنا وكان من سكانه الكاتب محمد علي بقادي – والصحفي محمد أحمد عمر – والوزير في عهد نميري أحمد بابكر عيسي – الشهيد الطيار اسماعيل مراد – الشهيد موسى عبد الغني، الذي استشهد في التمرد الأول بالجنوب في عهد الحكومة الانتقالية الأولى برئاسة اسماعيل الأزهري – الأستاذ أحمد عبد العظيم – الفنان علي عبد الرحمن – مهدي محمد أحمد (الحلبي) الذي ترك الدراسة في حنتوب دون أن يكملها ..

قبل إمتحانات العام الدراسي الأول (١٩٤٨م) أعلنت الادارة البريطانية عن انشاء الجمعية التشريعية التي رفضتها كافة القوى الوطنية وقال فيها الزعيم الأزهري قولته المشهورة "سنقاطعها حتى لو جاءت مبرأة من كل عيب" وخرج كل السودان في مظاهرات احتجاج ورفض عنيفة، عدا القلة التابعة الانجليز، وقتل فيها العديد من الموطنين برصاص السلطة الاستعمارية وتمّ اعتقال عدد من القيادات، وقتل في بورتسودان وحدها حوالي ٥ من أبناء قبائل البجة وجرح عدد كبير منهم في معركتهم البطولية ضد الشرطة ..كان بديهياً أن يشترك الطلاب بفعالية في تلك المظاهرات في كل مكان، فخرجنا كل طلاب حنتوب في مظاهرة ضخمة تنديداً بالاستعمار ومطالبين برحيله وأعلنا الاضراب عن الدراسة، وكان المستر براون (الناظر) حريصاً على عدم التحام طلاب حنتوب مع جماهير مدينة ود مدني، التي كانت في حالة تظاهر مستمر. ولذلك أصدر أمره باغلاق المدرسة وترحيل الطلاب إلى ذويهم حتي اشعار آخر .. وبعد ذلك الاشعار الآخر عدنا إلى المدرسة لنجلس مباشرة للامتحانات، ونعود مرة أخرى لذوينا في العطلة، بعد أن احرزت نتائج جيدة في تلك الامتحانات منقولاً للصف الثاني، أما جاري حسن الترابي فقد كان ترتيبه الأول على كل الدفعة (٥ فصول) وبفارق كبير بينه وبين الثاني. ولذلك تمّ تحويله إلى الفصل الخاص بالمتفوقين بشكل غير عادي، كان ذكياً للغاية..

عندما عدنا إلى حنتوب وفي عام ١٩٤٩م، كانت المسألة الكبيرة التي واجهتنا هي قضية طلاب كلية الخرطوم الجامعية (جامعة الخرطوم فيما بعد)

وكيفية التضامن مع قادتهم المفصولين، وسبب ذلك أن الطلاب قاموا بتأسيس اتحـــاد لهم، فرفضت الادارة الاعتراف بالاتحاد، فأعلن الطلاب الاضراب عن الدراسة، فقامت إدارة الكلية بفصل قادة الاتحاد من الكلية، وكان أول رئيس لذلـــك الاتحاد هو الدكتور مصطفي السيد الشعار (اختصاصي العيون لاحقاً) وسكرتيره العام المرحوم الدكتور سيد حمد نقد الله، الشيوعي المتحمس آنذاك قـــبل أن يختلف مع الشيوعيين ويشارك في تأسيس "الجبهة الوطنية" التي عمل على إفشالها من داخلها سكرتيرها العام، المرحوم الرشيد نايل. واتضح فيما بعد أن الرشيد كان مكلفاً من الحزب الشيوعي للقيام بذلك الدور المرسوم .. المهم شرعنا في حنتوب في عقد اجتماعات عامة لمناقشة قضية اتحاد طلاب الجامعة وقادتـــه المفصولين. فكان القرار أن نضرب عن الدراسة احتجاجاً، ونخرج في مظاهرات للمطالبة بإعادة المفصولين والاعتراف بالاتحاد، وكان قائد الاضراب هـــو الأخ مولانا عبد الله أبو عاقلة (القاضي فيما بعد) وقد قام ناظر المدرسة المســـتر براون بمحاولات محمومة لإثناء الطلاب عن الاضراب لدرجة أنه بكي وهـــو يخاطـــب ويترجى الطلاب في اجتماعهم العام. ولكن دون جدوى .. وكان من ضمن قراراتنا أن نرسل وفداً إلى الخرطوم يلتقي بقيادة اتحاد طلاب الكلية لأبلاغهم بتضامننا والاتفاق معهم على الخطوات التالية، ووقع الاختيار على الاخوة ميرغني النصري والمرحوم بابكر كرار ليقوما بتلك المهمة، وسافرا بالفعل، إلا أن المستر براون كان قد لحق بهما في مدينة الحصاحيصا واستطاع اقـــناعهما بـــالعودة إلى حنتوب والغاء الاضراب. وبالفعل عادا وأعلنا تراجع

الاخـــوان المسلمين عن الاضراب بحجة أنه عمل شيوعي يهدف إلى مناصرة الشـــيوعيين المفصولين. وبذلك انقسم الصف الطلابي فانهار الاضراب وعقدنا اجـــتماعاً استبســـل فيه مولانا عبد الله ابو عاقلة لتوحيد الطلاب مجدداً حول الاضراب دون أن تنجح جهوده، إلا أنه تمسك بالاضراب بمفرده وانتهى الأمر بفصـــله عن الدراسة و لم يعد إليها إلا بعد تدخل الوسطاء، ولا زالت عبارته الشـــهيرة تـــرن في أذني ((Stick to it, stick to your word (تمســـكوا بكلمـــتكم) .. واحـــتد الصراع بعد ذلك للسيطرة على حركة الطلاب بين الـــيمين واليسار، اليمين هم الأخوان المسلمين وانصار الاحزاب التقليدية، التي كـــان وجودها محدوداً وغير منظم، وقادة الاخوان في حنتوب آنذاك كانوا : المـــرحوم بابكر كرار – المرحوم الرشيد الطاهر – الأستاذ ميرغني النصري – الأســـتاذ محمـــد يوسف محمد – الفريق بشير محمد علي – الدكتور مأمون يوسف. وفي قيادة الشيوعيين : المرحوم برير الانصاري – محمد إبراهيم نقد – أحمـــد بابكـــر عيسى – عبد الوهاب سليمان (تلاجة) (شقيق أحمد سليمان المحامي) – محمد أحمد عمر ، الذي أصبح رئيساً لتحرير صحيفة اتحاد العمال ثم انقسم – والأخ بقادي .. في تلك الظروف بدأت مع مجموعة تضم الأخ بابكر عبد الرازق وآخرين في العمل مع الشيوعيين وتأسيس تنظيمهم الواجهي آنذاك "مؤتمر الطلبة" ثم في توسيعه بتجنيد الطلاب وضمهم لعضويته، وأذكر من بين الذين قمت بتجنيدهم في مؤتمر الطلبة وأصبحوا فيما بعد من الأعضاء البارزين في الحـــزب الشـــيوعي الاخوة : صديقي الشاعر الكبير المرحوم صلاح أحمد

إبراهيم – الأستاذ فيصل عبد الرحمن كبيدة – الأخ حسن التاج، رجل الاعمال المعروف – الأستاذ فاروق أبو عيسى – وعثمان عبد الرحيم أبو شيبة .. كان اليساريون يقرأون ويوزعون كتب خالد محمد خالد خاصة كتاب " من هنا نبدأ" في محاربة الاخوان المسلمين، الذين كانوا يوزعون كتب المرحوم سيد قطب .. وعندما تم اختياري موجهاً ثقافياً لداخليتنا قمت، بالاشتراك مع الأخ الأديب الدبلوماسي أحمد محمد الأمين، باصدار مجلة حائطية تحت اسم "الثائر"، بينما كان الأخ الشاعر " عبد الرحمن شيبون" (الذي انتحر فيما بعد، رحمه الله) يصدر في داخليته مجلة "السامر" وعندما اصدرت الادارة قراراً يمنع اصدار "السامر" قمنا بالتضامن معه واشراكه في مجلتنا وتغيير اسمها إلى "سامر الثائر !! أما المرحوم صلاح إحمد إبراهيم فقد كان يصدر صحيفة اسمها "الاشمئزاز" في داخلية الملك نمر وكانت وجودية الاتجاه والتبشير ..

لم نكن قد اطلعنا على الماركسية بقدر ما كنا معجبين بالخط السياسي والحديث عن الكادحين. وكان الأخ محمد إبراهيم نقد يتمتع بصوت جميل ويغني لنا أغنية :

"ربانها أبو شنب، والرفاق بيديرو مسرح السوفيت، كيف تضل سفينة :."

وبعد وفاة ستالين كان يغني :

"ستالين لم يمت ولكن انتقل من قصور الكرملين ليسكن في قلوب الكادحين .."، وعندما جاءنا بلاغ بأن قائداً شيوعياً خطيراً سيزور حنتوب

سراً ويلتقي بنا، وكان هو المرحوم مصطفى كمال راشد (كيشو)، أنشدنا له هذه القصيدة ترحيباً.

ومن خلال مؤتمر الطلبة بدأنا الاعداد للاضراب عن الطعام احتجاجاً على سوء التغذية كماً ونوعاً، وبالفعل نفذنا الاضراب وكان ناجحاً واضطرت ادارة المدرسة أن تتفاوض معنا من خلال لجنة الطعام التي كنت عضواً فيها ممثلاً عن داخلية الزبير، ونتج عن ذلك التفاوض موافقة المستر براون على أن تشترك لجنة الطعام في عملية استلام الأغذية والتعيينات من المتعهد وفق معايير الكمية والجودة التي قررتها وزارة المعارف وأن تراقب عملية الطهي .. وبالفعل تم اكتشاف ثغرات التلاعب والقضاء عليها تماماً وتحسين الطعام كماً ونوعاً ووصل الأمر بعد حين درجة توفير الفواكه واللبن بالارز .. الخ للطلاب .. هكذا مضى نشاطنا في "مؤتمر الطلبة" في الانتشار والتوسع بين الطلاب وكذلك جماعة الاخوان المسلمين وخفت حدة المصادمات كثيراً بين الجماعيتن.

من ناحية أخرى كنت أمارس عدداً من الهوايات الأدبية والرياضية التي كانت فرصها وامكانياتها آنذاك وفيرة ومتعددة في المدارس .. على الصعيد الرياضي برزتُ في كرة المضرب (بنج بونج) على مستوى المدرسة، ومثلت الداخلية في سباق السباحة على الظهر وعبور النيل الأزرق من حنتوب إلى مدني، وعضواً في فريق الزوارق الشراعية.. وفي المسابقات الثقافية أذكر أن المدرسة أقامت مرة مسابقة في القصة القصيرة عن قضية فلسطين والحرب

الدائـــرة بـــين العصـــابات الصهيونية والشعب الفلسطيني في تلك السنوات، ولدهشتي فازت القصة بالجائزة الأولى وأشاد بها أستاذنا الكبير أبو النجا، رئيس لجنة المسابقات، واستلمت الجائزة من المستر براون في الاجتماع العام وكانت عبارة عن خمسة جنيهات كاملة وهي ثروة آنذاك ..

لا اســتطيع أن اختتم فقرة النشاط الرياضي والثقافي دون أن أذكر أكبر عملية تحايل قمت بها وهي كيفية فوزي في سباق اختراق الضاحية الذي كان يقوم بتنظيمه والاشراف عليه المستر براون شخصياً .. ففي تلك الدورة الــتي اشـــتركت فيها باسم داخليتي، وبعد أن بدأنا العدو من نقطة الانطلاق انســـحبت بهدوء واختفيت في "القيف" قريباً من نقطة سيعود إليها المتسابقون وهي أقرب محطة من نقطة انتهاء السباق، وتسللت إلى تلك النقطة وانتظرت قـــدوم المتسابقين في طريق عودتهم إلى مكان انتهاء السباق .. وعندما رأيت الزمـــيلين الذين كانا يتصدران السباق قد اقتربا من المكان، وهما الصديقان " جعفر على الحاج (جاسبر)، وعبد الرحمن علي (الذي أصبح فيما بعد رئيساً لما يسمى بجمهورية الصومال الشمالي)، خرجت من المخبأ وانطلقت أمامهما إلى نقطة النهاية وسط دهشة وتصفيق الحاضرين، وظلت المدرسة تتحدث عن هذا "الانجـــاز" الضـــخم لفترة طويلة – لكنني ذهبت إلى الرئيس الأول للداخلية، صديقي الأخ الطيب سيف الدين، وكاشفته بما جرى حتى لا يعتمد عليّ مرة أخرى، وكانت لي مع الأخ الطيب قصص ومواقف كثيرة..

مضـــى العام الدراسى الثالث هادئاً قبل أن تنفجر قنبلتان متتاليتان، كانـــت الأولى اجتماعـــية وغير هامة، لكنها شغلت المدرسة ومجتمعها زماناً. وقعـــت هـــذه الحادثـــة في داخلية أبو عنجة، التي كان يرأسها جعفر نميري، وعرفت بقصة "كشكوش الترابي" عندما انتشر خبر عن اعتداء أو محاولة اعتداء مـــن الطالـــب كشـــكوش على الطالب حسن الترابي وراجت قصص وسط الطـــلاب حـــول الأمر، ونتج عن ذلك الحادث طرد الطالب كشكوش من المدرســـة، ثم طلب المستر براون من الطالب حسن الترابي أن يستعد لامتحان الشـــهادة مـــن الصف الثالث. وبالفعل امتحن الترابي ونجح في احراز شهادة كمـــبردج مـــتفوقاً حتى على زملائه الذين امتحنوا معه بعد اكمالهم للصف الرابع..

أمـــا القنـــبلة الثانـــية فقد كانت سياسية، وتفجرت عندما وصلتنا المعلومـــات عن قرار وزير المعارف، المرحوم عبد الرحمن على طه، الذي أعلن فيه طرد مائة طالب من مدرسة "خور طقت الثانوية" وحرمانهم من التعليم.. فاجتمعنا كقيادة تنظيم "مؤتمر الطلبة" واتخذنا قراراً بالدخول في اضراب مفتوح عـــن الدراســـة والخـــروج في مظاهـــرات ضد الوزير وقراراه وضد السلطة الاستعمارية، التي تقف من ورائه، لحين اعادة كل الطلاب المفصولين من خور طقـــت إلى الدراسة .. وقمنا بتنفيذ ذلك بحشد الطلاب في اجتماعات عامة بمـــيادين كرة القدم حيث القيت القصائد والخطب العصماء وأعلنا الاضراب وانطلقـــت تظاهرتـــنا وهي تهتف بسقوط الوزير وأسياده الانجليز .. وعندما

استمر الاضراب ناجحاً والمظاهرات هادرة لعدة أيام وفشلت كافة الوساطات، الخبيثة منها والحميدة، تخوفت السلطات من انتقال العدوى إلى جماهير ود مدني فقـــررت اغـــلاق المدرسة والداخليات لحين اشعار آخر وترحيل الطلاب إلى ذويهم.

غادرت حنتوب إلى بورتسودان دون أن أعلم حينها أنها آخر رحلة لي من حنتوب ونهاية وجودي بها كطالب. فبعد فترة قصيرة استلمت — ومعي آخرون — خطاباً بالفصل النهائي من المدرسة، وكان من بين المفصولين معي الـــزملاء والأصدقاء : عثمان عبد الرحيم — بابكر عبد الرازق — عبد المنعم مصطفي — فيصل عبد الرحمن كبيدة — حسن التاج — صلاح أحمد إبراهيم — يوسف بشارة — عبد الوهاب سلميان (تلاجة) — عبد الرحمن عبده — فاروق أبـــو عيســـى — أنور أدهم .. وكنت في القطار أثناء رحلتي الأخيرة تلك من حنـــتوب إلى بورتسودان قد التقيت بالأخ الشفيع أحمد الشيخ الذي كان قد أنتخب سكرتيراً لهيئة العمال وتحادثنا طويلاً عن الوضع في البلاد ..

لقد كان ذلك العام ١٩٥٠م إذن نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة في حياتي.

(٤)

عـــندما عـــدت إلى بورتسودان في ذلك العام (١٩٥٠م) وجدت المديـــنة تمور بالنشاط السياسي والحزبي وتصاعد الحركة الوطنية بشكل عام، خاصة حزب الأشقاء ذو الحظ الوحدوي مع مصر، وشهد أيضاً ظهور حزب الأمـــة، الـــذي كان يوصف تأسيسه بأنه "الترياق المضاد للحركة الوطنية"، وأعضـــاءه المتعاونين مع الاستعمار بأنهم "الانجليز السود" وفي ذلك اشتهرت قصيدة الشاعر محمود الفكي" والذين يمضون الأمر بشاي العصر"، كان نفوذ الحـــركة الاتحاديـــة هو الطاغي جماهيرياً في بورتسودان في حين لم يكن لتيار (الاستقلال التام والسودان للسودانيين) بقيادة حزب الأمة أثر يذكر .. وبينهما كـــان الحـــزب الشيوعي "الجبهة المعادية للاستعمار" أيضاً ناشطاً وكان أبرز كوادره من المعلمين

قضينا أياماً جميلة قبل أن تصلنا قرارات الفصل عن الدراسة، خاصة الأيـــام التي زارنا فيها وقضاها معنا الأخ الصديق يوسف بشارة والتي حفلت بالمرح الكثير والمواقف الطريفة، مثل قصة حذائه الوحيد مع الكلب والتي رواها الدكتور فيما بعد يالصحافة السودانية ... وبعد صدور قرارات الفصل جرت محـــاولات عديـــدة لاستيعاب المفصولين في مدارس غير حكومية ولكن وزير المعارف بالحكومة الاستعمارية، السيد عبد الرحمن على طه، أصدر قراراً آخر بعـــدم قـــبول أي منا في أية مدرسة أخرى. فهيأت نفسي للاندماج في حياة بورتسودان، أقضي الوقت مع الأصدقاء : محمد بشارة والشاعر الرقيق حسين

بازرعـــة، الذي كان يأتي في عطلاته من مدرسة وادي سيدنا الثانوية. وأذكر أنني التقيت الفنان الكبير عثمان حسين لأول مرة بأحد مقاهي "سوق الموية" في أمدرمـــان برفقة الأخ حسين بازرعة، أيام قصيدته الرائعة "القبلة السكرى" الـــتي شـــدا بهـــا عثمان حسين، وكان حسين بازرعة، رغم صغر سنه، كثير الاطـــلاع ومشتركاً في العديد من المجلات الأدبية مثل "الآداب" و "الأديب"، وكنا في بورتسودان نلتقي في مكتب شقيقه الكبير، المرحوم الأخ على بازرعة، الـــذي كـــان أيضـــاً رئيساً لحزب الامة في المدينة، وذلك أثناء النهار، وفي الأمســـيات بالمقاهي والأندية مثل نادي حي العرب، ونادي سواكن، وقهوة الصـــادق أو مقهى رامزنا نلعب الطاولة وكرة المضرب، وأذكر أيضاً من بين هؤلاء الاصدقاء المرحوم محمد اسماعيل طويل (لونج) ومحمد سعيد .. وأدروب جـــيلاني (وكانوا من أبرز لاعبي كرة القدم) — والأخ حسين فقيري — اضافة إلى صديقنا "علي مرحوم" التاجر اليماني الذي هرب من اليمن في عهد الامامة قافزاً من سطح مترلهم، لأن شرطة الامام حاولت القبض عليه لأنه كان يستمع إلى فونوغـــراف !!.. وكـــنا أحياناً أنا ومحمد بشارة وحسين بازرعة نلتقي بصـــديقي الأخ الفيلسوف محجوب عمر باشري، المدرس بالمدارس الاغريقية ببورتسودان آنذاك، والذي كان كعادته يمشي متأبطاً الكتب والمجلات، وكثيراً مـــا كـــان يدور الجدل بينه وبين بازرعة حول مواضيع أدبية وفلسفية وكان بازرعة يسخر من باشري ويتهمه بأنه يدّعي الثقافة والاطلاع وهو لا يقرأ من الكتب إلا عناوينها ومقدماتها .. هذا وكانت المرة الأولى التي أعرف فيها اسم

"حـــزب البعـــث" في مكتب الأخ المرحوم علي بازرعة، عندما وجدت لديه رسالة كتبها الأستاذ الجليل صلاح الدين البيطار عن "البعث". فقرأت الرسالة الـــتي تركت أثراً عميقاً في وجداني وقمت بكتابة رسالة للأستاذ البيطار طالباً مـــنه مســـاعدتي في الانضمام لحركة البعث العربي، و لم أتلق منه رداً غير أن الأقدار شاءت أن أكون.من بين مؤسسي حزب البعث في السودان لاحقاً..

وفي تلـــك الفترة أيضاً حاول الشيوعيون تجديد وتحريك صلتهم بي. فعندما ذهبت لوداع الأخ حسين بازرعة أعطاني مجموعة من النشرات وجريدة المـــيدان وطلـــب مني قراءتها ثم تسليمها لأحد ضباط الجمارك وأن استلم منه ماعـــنده مـــن وثائق وتوصيلها للأستاذ سيد الطاهر، المعلم بالمدرسة الأهلية الابتدائية .. وبينما كنت شارعاً في تنفيذ ذلك الاتفاق، ذهبت إلى "الميز" الذي يســـكن فـــيه ضـــابط الجمارك المذكور (لا أذكر أسمه الآن بالضبط) رأيت "الرشيد" (رجل الشرطة الذي ذكرته من قبل) واقفاً في منتصف غرفة ضابط الجمـــارك وبملابسه الرسمية. فهالني الأمر لاعتقادي أنه جاء لاعتقال الضابط بســـبب نشـــاطه الشيوعي. فترددت قليلاً ثم اندفعت داخلاً لاستجلاء الأمر. فاكتشـــفت أن الشرطي جاء ليأخذ أقوال سكان "الميز" ومن ضمنهم ضابط الجمـــارك في حادث سرقة حصلت في "الميز" في الليلة السابقة. وبعد أن غادر الشرطي رفع ضابط الجمارك حقائبة التي كانت على الأرض وأخرج من تحتها مجموعـــة المنشورات والوثائق التي بحوزته وقال لي : أرجو اعادة هذه الأشياء

للأستاذ سيد وأطلب منه ألا يرسل لي أي شئ من الآن فصاعداً وأنني مستقيل من الحزب .."..

وفي أحـــد الأيـــام فاجـــأني الوالد بنبأ من المدرسة الأهلية الثانوية بامدرمان أنها قررت أن تتحدى قرار وزير المعارف بقبول كل من يرغب من الطلاب المفصولين من حنتوب لاكمال دراستهم بها، وبما أنني أرغب في ذلك فقـــد ســـافرت بسرعة والتحقت بامدرمان الأهلية، حيث وجدت عدداً من الأصـــدقاء القدامى وعدداً آخر من الزملاء المفصولين معي من حنتوب، مثل الأخ مولانا عبد الرحمن عبده والأخ مهدي محمد أحمد وصديقي القديم أحمد الحـــاج، الذي فارقته منذ نهاية المرحلة الابتدائية، وآخرون ممن سيصبحون من أعز الأصدقاء في مقبل حياتي، مثل الأخ صلاح أحمد حسن عبد المنعم، رجل الأعمـــال المعروف، الذي كان والده رئيساً لمجلس ادارة المدرسة الأهلية ومن أكبر المساهمين في تأسيسها وقيامها، والأخ فتحي حسن كاشف الذي التحق بالشـــرطة ثم عمل بالمحاماة، والأخ معاوية إبراهيم، القائد الشيوعي والوزير ثم الســـفير في عهد نميري، ومن نجوم كرة القدم في البلاد الأخ الراحل حسن ابو العائلة، نجم الهلال آنذاك قبل أن ينتقل للمريخ، ولاعب المريخ والسودان الفنان بـــرعي أحمد البشير، والأخ كمال عبد الرحيم الذي انتقل للعمل ببورتسودان وهناك أصبح هداف نادي حي العرب في عهده الذهبي، برئاسة الأخ المرحوم مكي الأمين الحاج ..

كـــان ناظر المدرسة هو الأستاذ الجليل "حسن فريجون" الذي كان محـــبوباً من كل الطلاب، وكان به شبه شديد بالممثل الكوميدي حسن فائق شـــكلاً وحديثاً وانفعالاً، وكان يطارد الطلاب بالخيزرانة التي كانت دائماً في يده عندما يخرجون في المظاهرات، وكان ناظر المدرسة الابتدائية الأستاذ الجليل محمد حمزة الذي جمعني به العمل السياسي فيما بعد في صفوف حزب الشعب الديمقـــراطي وكان رجلاً فاضلاً وحازماً في آن .. فانتظمنا في المدرسة الأهلية وانـــتظم بها نشاطنا الوطني بالخروج في المظاهرات وتنظيم الاضرابات وكان هتافـــنا الدائـــم : " هاو .. هاو.. يسقط هاو.." وهاو هو اسم الحاكم العام البريطاني للسودان آنذاك..

دائمـــاً كانـــت تحـــدث لي حوادث صغيرة في الامتحانات النهائية للانتقال من مرحلة إلى المرحلة الاعلى لتحول دون نجاحي وبامتياز، سوء حظ أم عقدة امتحانات ؟ لا أدري .. ونحن على أبواب الامتحان لشهادة كمبردج والتي انعقدت بقاعات مدرسة الاحفاد الثانوية بامدرمان، نصحني أستاذنا للغة الانجليزية، وكان بريطانياً اسمه "ويكفيلد" على ما أذكر، ويعتبرني من المبرزين في كـــتابة الانشـــاء الانجليزي "ال composition"، نصحني أن اختار في الامـــتحان الموضوع الأكثر غرابة والذي لن يختاره بقية الطلاب للكتابة عنه لأضـــمن درجة عالية، وبالفعل، عملاً بنصيحة الأستاذ، أهملت موضوعاً عن "الواجـــبات المدرسية" باعتباره معروفاً للجميع قمت باختيار الموضوع الثاني وكـــان عنوانه من كلمة واحدة هي Preposterous وكتبت فيه وخرجت

من القاعة لأجد المستر ويكفيلد بالخارج وعندما اخبرته بما كتبت صدمني بقوله off point (اخطـــأت الهـــدف)!! وكـــان معنى ذلك أنني لن انجح في اللغة الانجليزية وبالتالي لن أنال الشهادة لأن القاعدة كانت تقضي بعدم منحها لغير الـــناجح في الانجليزية حتى لو حصل على الامتياز في بقية المواد، وقد حدث ذلك بالفعل .. كان ذلك في أوائل العام ١٩٥٢م عندما عدت إلى بورتسودان والتحقت بعمل كموظف بقسم الشحن والتخليص بشركة "جلاتلي وهانكي" واصـــبحت فـــيها جـــزءً مـــن أسرة جميلة من الأخوة والاعمام أذكر منهم الباشـــكاتب الأخ شمـــام والأخ طواف عمر شقيق الضابط أنس عمر والأخ بشـــرى ادريس والعم محي الدين المحلاوي صاحب روح الدعابة والسخرية، وكان يدير المكتب انجليزي لم يكن يتدخل في شئوننا إلا نادراً تاركاً التفاصيل اليومية للباشكاتب، وكنا نذهب للافطار في سوق الأسكلة .. لم يتعكر صفونا ذلـــك إلا بمجئ موظف جديد من الأغاريق ذو طيبيعة شرسة ولسان سليط، ســـرعان ما اشتبك معنا متهماً اياناً بالتقصير فقام المدير بفصلنا عن العمل أنا والأخوة طواف وبشرى .. وحاول خالي المرحوم "حسن حمو" أن يتوسط مع المديـــر العـــام لشـــركة جلاتلي لاعادتي للعمل ولكن محاولته فشلت عندما اصطدمت بالمدير بسبب مبادرته لي بالصراخ والسباب وضرب الطاولة باليد، وكـــان ذلك الاصطدام يعني أنني لن أجد عملاً في أي مكان آخر. فقد كان المســـئولون في المؤسســـات الحكومـــية وغالبـــية أصحاب الاعمال التجارية والشـــركات في ذلك الوقت من الأجانب الانجليز والأغاريق وغيرهم وكان

المواطـــن السوداني يأتي في الدرجة الثانية والثالثة بعد هؤلاء الأجانب. وك مدير عام "جلاتلي وهانكي" في ذلك الوقت أهم شخصية في المدينة، أهم حتى من المعتمد البريطاني. فهي كانت الشركة الأولى من حيث النفوذ الاقتصادي والـــتجاري في الـــبلاد.. وبذلك باءت كل المحاولات للحصول على عمل بالفشـــل. فعـــدت مرة أخرى إلى حياة العطالة بالمقاهي مع اصدقائي بازرعة وبشارة وإبراهيم البربري ودكان صديقنا اليماني علي محرم..

ولكـــن، ولأنني كنت على موعد آخر مع سوء الحظ وافقت على رغبة والدي بالتحضير لأداء امتحانات شهادة اكسفورد، وذهبت إلى الخرطوم وأكملـــت التحضـــير بدرجة ممتازة، ثم جلست للامتحانات وكنت الطالب الوحـــيد الذي اختار مادة الدين المسيحي من بين المواد الاختيارية، وظهرت النتائج وتحصلت على أكثر من التقدير (جيد) في ٣ مواد وهو المطلوب آنذاك للقـــبول بجامعة الخرطوم، ولكن، وللأسف فاجأتني الجامعة بأنها قامت بتعديل شـــرط القبول إلى ٤ مواد منذ تلك اللحظة لأعود مجدداً إلى حياة العطالة في بورتســـودان .. وهناك مضت أيام قليلة قبل أن يصلني إخطار من فرع شركة أبـــو العلا التجارية ببورتسودان تفيد باختيارها لي موظفاً لديها، وبعد قليل تم تعـــيين الأخ عـــبد الله أبـــو العلا مديراً للمكتب، ومنذ تلك الفترة – ورغم تحولات الظروف من حين لآخر – ربطتني بالسادة آل أبو العلا الأفاضل أمتن علاقات العمل والصداقة رحم لله السادة : عبد السلام، عثمان، سعد، ميرغني أبو العلا. ولاحقاً أصبحت المستشار القانوني لمجموعة شركات ابو العلا إلى أن

غادرت السودان عام ١٩٧٦م. ولا زلت العلاقة حية وموصولة بالأحياء من الأسرة الكريمة أمد الله في أعمارهم ..

في تلك الأثناء اندلعت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م في مصر لتؤثر في مصائر أمور كثيرة في كل المنطقة وكذلك في مصيري الشخصي .. سودانياً ساد تفاؤل واسع وسط الشعب السوداني بثورة يوليو، خاصة وأن قطاعات كبيرة من القوى الاتحادية كانت لا تحبذ أن تكون الوحدة مع مصر في ظل الملكية (تحت التاج المصري)، وأن القضاء على الملكية في مصر سيفتح الطريق أمام وحدة حقيقية بين مصر والسودان المستقل .. وبالنسبة لي شخصياً، لولا مجئ ثورة يوليو في ذلك الوقت لبقيت في بورتسودان موظفاً بالشركات ولما استطعت اكمال تعليمي. فعندما زار المرحوم الصاغ صلاح سالم مدينة بورتسودان والتقى بعمنا المرحوم على ملاسي، باعتباره أحد رموز ثورة ١٩٢٤م وبطلها في بورتسودان، سأل صلاح سالم عمي على إذا كان لديه طلباً يستطيع انجازه له فرد عليه عمي بأن لديه طلباً واحداً هو قبول (ابن اخي شوقي) بمدرسة فاروق الثانوية المصرية بالخرطوم (الخرطوم الثانوية ثم جمال عبد الناصر الثانوية لاحقاً).. وفعلاً حقق الصاغ صلاح سالم تلك الرغبة فوراً والحقني بالمدرسة لأداء التوجيهية (الشهادة الثانوية) .. فسافرت إلى المدرسة التي كان من بين أساتذتها الأخ والمربي الكبير إبراهيم ملاسى، الذي سكنت معه بمنزله في حي الهاشماب جوار دار الرياضة بأمدرمان، وكذلك المرحوم الأستاذ عبد الماجد أبو حسبو، ومن المدرسين بها كان أيضاً : نجم الفكاهة

لاحقاً (أبو لمعة) محمد أحمد المصري، صاحب البرنامج المشهور "ساعة لقلبك" – والأستاذ الكوميدي المرموق الفنان أمين الهنيدي – ومعلم الانجليزية الأستاذ سليمان وأستاذ الفلسفة "فراج" الذي كان يصرّ على أن يتم التدريس في حوش المدرسة على طريقة سقراط – والأستاذ المؤرخ حسن إبراهيم (الدكتور لاحقاً) .. الخ.

كانت مدرسة فاروق آنذاك تعمل بنظام اليوم الكامل وبها قسم للسكن الداخلي، وكانت تقدم لكل الطلاب وجبات كاملة وفاخرة تشمل حتى الفواكه والكنافة والبقلاوة في الفطور والغداء، اضافة لشاي الصباح ووجبة العشاء لطلاب الداخليات، وكلها مجاناً .. كذلك كانت المدرسة توفر كل المقومات الدراسية والفنية والرياضية ومكتبة عامة كبيرة بصورة وافية وممتازة، كل ذلك، اضافة إلى عدد من المعلمين والمشرفين الممتازين، خلق جواً مناسباً لعلاقات مزدهرة وتحصيل علمي جيد وتنافس شريف رياضياً وسياسياً وأكاديمياً .. وهناك نشأت بيني وبين اخوة اعزاء صداقات ممتدة حتى الآن أذكر منهم : الأخ المذيع محمد سليمان (صاحب برنامج دنيا دبنقا التلفزيوني) – لطفي بابكر القباني – كامل عبد الرازق – عطوة – الأخوة الضباط بالقوات المسلحة : منير حمد – عبد الرحمن علي – فؤاد أحمد صالح – يحي عمر – كذلك الأخوة : فاروق محمد علي – يوسف أبو عادل – مدرب كرة القدم سيد – المهندس البرت لويس – العبقري محمد عبيد مبارك – عثمان محمد عثمان خليفة (كنان) – شمو – الضابط بالسلاح الطبي علي حسن – عاطف

محمود .. الخ.. وكنا في عطلات نهاية الأسبوع نذهب إلى مترل عمتي أمينـــه، والدة عاطف محمود، وينضم إلينا هنالك الأخ عبد الكريم الكابلي ليغمرنا كرم خاله المرحوم مصطفى خليل، والد سمير وعبده ورضا، لنقضي وقتاً ترفيهياً ممتعاً هناك بالغناء والموسيقى ولعب الورق والأنس ..

لم يعكر صفو تلك الأيام بمدرسة فاروق سوى عملية إبعاد اللـــواء محمد نجيب من رئاسة مصر ومجلس ثورتها. فقد كان رحمـــه الله قريبـــاً مـــن السودان والسودانيين، إضافة إلى شعورنا بفضله علينا جميعاً، ولذلك قامـــت حركة احتجاج واسعة بالمدرسة انتهت بطرد الأســـتاذين إبـــراهيم ملاســـي والمرحوم ابو حسبو من هيئة التدريس .. ثم ضجة أخرى أثارهـــا "الأخـــوان المسلمون" عقب أعدام وسجن عدد من قادتهم في مصر. وتظاهروا داخل فناء المدرسة. وفي طابور الصباح قام الاخوة لقمان وعبد الحميد مدثر (المستشـــار القانوني بالسعودية الآن) باحراق العلم المصري..

بعد الانتهاء من أداء امتحانات الشهادة التوجيهية (الثانوية) عـــدّت إلى بورتسودان، وقد صادفت تلك العطلة الموعد المحدّد لإجراء الانتخابـــات البرلمانية الأولى، وصدف أيضاً أنني بلغت في نفس العام السن القانونية للاقتراع .. فقد ساهمت ثورة يوليو – كما ذكرت سابقاً – في دفع القضية الوطنيـــة لشعب السودان إلى الأمام، وكانت هذه الانتخابا من نتائجها الهامة .. وفعلاً جرت الانتخابات في موعدها وفاز بها الاتحاديون بعد أن توحّدت فصائلهم في اطار الحزب الوطني الاتحادي..

علـى الصعيد الشخصي في تلك الانتخابات، وبالاضافة إلى دائرة بورتسودان التي اشتركت بالتصويت فيها، كنت مهتماً جداً بدائرة الحصاحيصا ومعركـتها الانتخابـية التي انحصرت بين المناضل الوطني الكبير المرحوم حماد توفيق، مرشح الاتحاديين، والسيد عبد الرحمن على طه، وزير معارف الجمعية التشريعية السيئة الصيت، مرشح حزب الأمة. فقد كان موقفي، ومعي زملائي في حنـتوب وخـور طقـت وغالبية أبناء الجيل، صارماً – سياسياً ونفسياً وشخصياً – ضد السيد عبد الرحمن على طه، وليس لمجرد تأييد الحزب الوطني الاتحـادي .. أما في مدينة بورتسودان فقد اختلف الأمر عندما وقفت مؤيداً ومناصـراً شـديداً للوطني الجسور المرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد، مرشح الجبهة المعادية للاستعمار، ضد مرشح الوطني الاتحادي. وأول نائب برلماني عن مدينة بورتسودان المرحوم هاشم محمد سعد. وكان ذلك سبباً للخلاف الأول والوحـيد بـيني وبين والدي لدرجة تهديده لي بالطرد من المترل لولا تدخل الوالدة في الأمر. إذ كان والدي مؤيداً كبيراً للوطني الاتحادي ومعادياً للجبهة الـتي كان يصفها – والحزب الشيوعي من خلفها – بأنهم مجموعة ضفادع لا يزعجون أمن قرية وأنهم صنيعة انجليزية !!..

ظللت انتظر نتائج الانتخابات من الاذاعة. وبمجرد أن سمعت نبأ فوز المـرحوم حماد توفيق في الحصاحيصا عدوت بكل السرعة من مترلنا، الكائن جوار البحرية عند شاطئ البحر الأحمر، حتى مترل إبراهيم الطيب، جوار دار الرياضة لأنقل خبر فوز حماد توفيق لتكتمل فرحة الجميع.

وكانت الآمال كلها معقودة على أن الحزب الوطني الاتحادي سيطرح أمر الاستقلال أو الاتحاد مع مصر في استفتاء شعبي، ولكن يبدو أن أموراً أخرى كانت تجري تحت السطح لم تكن الجماهير تعلم بها، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار الطريقة التي تم بها ابعاد اللواء المرحوم محمد نجيب من رئاسة مجلس قيادة الثورة في مصر وما تبع ذلك من اجراءات، اضافة إلى الدور البريطاني الخبيث في منع قيام وحدة سودانية مصرية، وقد حدثني مؤخراً صديقي الراحل بشير محمد سعيد (رحمه الله) أنه قرأ (وذلك في آخر أيام حياته) في الوثائق البريطانية رسائل الخارجية البريطانية للحاكم العام البريطاني في السودان تطلب منه دعم الحزب الوطني الاتحادي برئاسة المرحوم اسماعيل الأزهري وليس حزب الأمة – كما اعتقد الجميع – لأنهم رأوا في الوطني الاتحادي وسيلتهم لتحقيق غرضهم في فصل السودان عن مصر أكثر من حزب الأمة .. وبالفعل نشبت الأزمة، وسرعان ما اندلعت الحملات الاعلامية المعادية بين الحكومتين، وكان المرحوم الأستاذ عبد الماجد أبو حسبو (المعروف بالقسوة في الخصومة وحدّة اللسان) وزيراً للاعلام في حكومة البرلمان الأولى ومعه في الإذاعة السودانية الأستاذ أبو عاقلة يوسف .. وانتهى الأمر باعلان الاستقلال من داخل البرلمان كما هو معروف ..

(٥)

أيام الجامعة بين الأحزاب والجيش :

فارقني سوء الحظ هذه المرة لأنجح بتفوق في امتحان الشهادة والتحق بكلية الحقوق بجامعة عين شمس. فقد أصر والدي أن أذهب إلى جامعة القاهرة أو عين شمس، رغم أن جامعة القاهرة كانت قد افتتحت لها فرعاً بالخرطوم في ذلك العام وذلك لخشيته من عدم انتظام الدراسة فيها نظراً للصراع الذي كان دائراً بين المصريين والاتحاديين وحكومتهم في السودان .. ولأن الحكومة المصرية كانت قد قررت ابتداءً من ذلك العام إيقاف الإعانات للطلاب السودانيين الجدد، فقد كانت دراستي على النفقة الخاصة .. وكان الإنجليز قد أحالوا والدي للتقاعد بدلاً من ترقيته لمدير أو نائب مدير في مصلحة الجمارك، حسب توقعه على ضوء الكورسات التي أمضاها في مدرسة الإدارة والبوليس. فترك المترل الحكومي الكائن خلف دائرة المهدي بالخرطوم وانتقل للسكن بالخرطوم بحري ووجد وظيفة بمخازن أبو شامة لأدوات البناء لصاحبها العصامي عمنا محمد سيد أحمد أبوشامة..

قضيت الأيام الأولى في القاهرة بغرفة ابن عمي "ملاسى حسين" طالب الطب في القاهرة آنذاك، وعندما أمرني المشرف بالرحيل ذهبت للسكن بشارع المتنبي في حدائق القبة، ومعي الأخ العزيز عثمان كناني، في مترل بائس يتكون من غرفتين في البدرون، نقضي أغلب أوقات الشتاء فيه في نزح مياه الأمطار، التي كانت تغمر الغرف. وكان عزاؤنا فقط في العطف الشديد الذي

كانت تغمرنا به صاحبة المترل وزوجها، الذي كان يعمل سكرتيراً للمرحوم إبراهيم عبد الهادي، رئيس وزراء مصر قبل الثورة .. وكان أمامي بالصف الثاني بكلية الحقوق الأخ محمد عباس صبري ولاعب الكرة المعروف آنذاك الأخ باب الله والمرحوم السفير سيد طه. كان صبري يسكن مع الأخ عبد المجيد كركاب في شارع متفرع من شارع مصر والسودان مع طالب مصري. وعندما اختلفا معه انتقلنا أنا والأخ عثمان كناني للسكن معهما. ومن خلال الأخ صبري تعرفت على بعض المثقفين من اليسار المصري من بينهم المرحوم الشاعر نجيب سرور، ثم شاب صعيدي اسمه عبد الباسط، تطورت علاقتي به بسرعة وأقنعني بمقابلة الأستاذ الظاهر بيبرس بغرض الانضمام للحزب الشيوعي المصري. وفعلاً ذهبنا إلى مكتب الأستاذ بيبرس وتناقشنا نقاشاً طويلاً واتفقنا على استمرار اللقاءات. ولكن شعوري العميق بعدم الحماس للأمر، إضافة إلى اختفاء الأخ عبد الباسط المفاجئ، أوقفنا الأمر عند هذا الحد. ولاحقاً علمت أن عبد الباسط كان قد تم اعتقاله .. كان عبد المجيد كركاب هو المسئول عن "الميز" في مترلنا هذا، وعليه كنا نقوم بتسليمه النقود التي تصلنا. فيملأ محفظته بالأوراق النقدية ويذهب للاستعراض بها في الحي، خاصة أمام الشابة الجميلة (شهيرة) التي كانت تشجعه على ذلك إذ أن أبيها كان موقوفاً عن العمل بتهمة ما. وعندما لاحظ الأب تلك العلاقة والمغازلة قرر الانتقام بواسطة بعض الفتوات، الذين قام بتجنيدهم، وقد ابلغنا بذلك أحد الصعايدة. فاضطر عبد المجيد أن يذهب إلى والد شهيرة للاعتذار وإجراء الصلح. وكاد الأمر أن ينتهي

بالزواج لولا رحيلنا إلى شارع العزيز بالله بالزيتون. وكان رحيلنا للزيتون نقلة كبيرة، لأن الشقة الجديدة كانت عبارة عن فيلا من طابقين بها ثلاجة وتلفزيون وبيانو وحديقة. إذ كانت من بين عدد من الشقق المملوكة لأحد السعوديين ويشرف عليها العم حسين السوداني الكريم وعائلته ..

المهم، قضيت في القاهرة، مع تلك الصحبة الجميلة، عاماً مليئاً بالأحداث والمواقف، بأحلام الشباب وبالسياسة، بظروف "الفلس" وأيام "البحبحة" القليلة، وكان من بين الأجمل منها الفترات التي كنا نقضيها مع صديقي الشهيد الطيار إسماعيل مراد، عندما يزورنا في شقتنا وهو يحمل لنا ما لذّ وطاب من الأكل والشرب وبعض المال كلما شعر بأننا في ضائقة، لأن أحواله كانت أحسن. فقد كان ضمن أول دفعة طيارين حربيين حضرت إلى القاهرة لتكون نواة لسلاح الطيران السوداني. وكان معه أيضاً في نفس المجموعة جعفر نميري، الذي لم ينجح وعاد إلى الكلية الحربية..

أكملت العام الدراسي الأول بنجاح وطلبت تحويل أوراقي إلى جامعة القاهرة فرع الخرطوم لألتحق بالصف الثاني بكلية الحقوق فيها ضمن أول دفعة، كانت الجامعة قد افتتحت بها أبوابها في العام ١٩٥٥.. ولأن الدراسة كانت مسائية، وفي نفس الوقت كان والدي قد أحيل للتقاعد وترك المنزل الحكومي، فقد التحقت كموظف بمصلحة الجمارك في قسم التخليص بمطار الخرطوم .. التقيت في الجامعة بعدد من أبناء الدفعة الذين التحقوا بها منذ قيامها وآخرين، ممن أصبحوا زملاء مهنة وأصدقاء عمر، أذكر منهم الاخوة

الأصدقاء: المحامي محمود حاج الشيخ عمر، الذي كان يعمل محرراً بجريدة "الرأي العام" وتطوع فيما بعد للقتال في القنال عند وقوع العدوان الثلاثي، أبوبكر مزمل المحامي – سعيد ميرغني حمور المحامي – كمال رمضان المحامي – أنور أدهم المحامي – العميد مزمل غندور – اللواء محمد الباقر أحمد – القاضي ميرغني جمال – رئيس القضاء بعد انتفاضة أبريل ١٩٨٥م المرحوم محمد ميرغني مبروك – صلاح مصطفى دفع الله المحامي – أحمد حسن شريف المستشار بالجامعة العربية لاحقاً – محمد قسم السيد المحامي – المرحوم محمد العوض الحسن – مرتضى المأمون، رجل الأعمال بعد أن هجر دراسة القانون .. أما من الدفعة الثانية أذكر الأخوة الأصدقاء : عاطف محمود المحامي – إبراهيم سعد (حلاوة) أصحاب مصانع سعد للحلويات – المهندس البرت لويس نصير، الذي ترك الفرع لدراسة الهندسة في اثيوبيا لاحقاً. وهؤلاء لعبوا دوراً في تلك الفترة في البدايات الأولى لحركة البعث التي أسسناها في الجامعة وشاركوني أنا وأبوبكر مزمل في اصدار صحيفة "البعث" الحائطية..

كان الواقع السياسي بين طلاب الجامعة في الأعوام الأولى من عمرها منقسماً إلى كتلتين هما الحزب الشيوعي، وواجهته الطلابية "الجبهة الديمقراطية"، والأخوان المسلمون، بالإضافة إلى المستقلين وغير المهتمين بالعمل السياسي. وبحكم طبيعتي وثقافتي المعادية للاخوان المسلمين، وانسجاماً مع مواقفي ونشاطاتي السابقة في حنتوب وبورتسودان والقاهرة، كنت ميالاً ومسانداً للجبهة الشيوعية، رغم أنها لم تكن قناعتي النهائية .. وفي بداية ذلك

العام، الأول بالنسبة لي في جامعة القاهرة فرع الخرطوم، نقل لي الأخوان أبوبكر مزمل وعاطف محمود مادار في زيارتهما للقاهرة ودمشق ولقاءهما بالأستاذين ميشيل عفلق وصلاح البيطار، وأطلعوني على نسخ من كتابي "في سبيل البعث" و"معركة المصير الواحد". وفي ذلك وجدت ما كنت أبحث عنه منذ زمن طويل. وبه بدأ عملنا كتنظيم وبدأنا إصدار الصحيفة الحائطية التي أشرت إليها. وفي مرحلة لاحقة بدأت إصدار صحيفة أخرى أسميتها "قصاصات" وكانت في غالبها بالفعل عبارة عن قصاصات من الصحف والمجلات إضافة إلى الافتتاحية التي كنت أكتبها .. أثار ظهور الصحيفتين حفيظة الأخوان والشيوعيين معاً، وكان الشيوعيون أكثر عداء لهذه الحركة الجديدة من الأخوان المسلمين، رغم أننا لم نهاجمهم أو نتعرض لهم كما فعلنا مع الأخوان المسلمين!! وكانت حلقات النقاش تمتد في فناء الجامعة لفترات طويلة ونهمل من أجلها المحاضرات وتدور حول : هل هناك قومية ؟ هل هنالك اشتراكية عربية؟ هل السودان عربي؟ .. الخ.. كان الشيوعيون يسخرون من كل ذلك رافعين بأيديهم كتيب ستالين حول شروط القومية وقائلين بأن هنالك اشتراكية واحدة هي العلمية الماركسية، بل وكانون يؤيدون اسرائيل دون تردّد وأعلنوا أن شيوعياً اسرائيلياً واحداً أفضل من آلاف العرب !!، غير أن منطقنا ببساطته ووضوحه بدأ يجذب الطلاب. فقام الشيوعيون بحشد كوادرهم من خارج الجامعة لمساعدة رفاقهم في هذه المناقشات. وبالمقابل كان هنالك عدد من أساتذة الجامعة المتحمسين للفكر القومي. فبدأوا بتزويدنا

بالأفكار والموضوعات التي تساعدنا في تلك المناقشات، ولا زلت أذكر بين هؤلاء الأساتذة الاجلاء " الدكتور لبيب شقير والدكتور عبد الله عبد الدايم والدكتور رفعت المحجوب والشيخ البرى. وأذكر من بين الكادر الشيوعي الاخوة الأصدقاء : نبيل أديب المحامي – طه جربوع المحامي – حسن عبد الماجد المحامي – والمرحوم معتصم عبد الله مالك ..

أما العلاقة مع الاخون المسلمين، فيكفي لشرح طبيعتها أن أشير إلى ردّ فعلهم عندما كتبت افتتاحية في "قصاصات" تحت عنون "أما الزبد فيذهب جفاء" بعد هزيمتهم الشنعاء في انتخابات الاتحاد. إذ قام زعيمهم في الجامعة، الأستاذ أحمد كامل العاص، باستدراج الزميل سعيد ميرغني حمور إلى المنطقة المظلمة المجاورة لشركة النور "الادارة المركزية حالياً" وخطف نظارته الطبية، التي يصبح الأخ سعيد بدونها عاجزاً عن الرؤية، واعتدى عليه بالضرب ثم هرب، وكانت الامتحانات قد اقترب موعدها، فأعلنت أننا سنرد على الاعتداء وظللت انتظر العاص كل مساء أمام باب الجامعة إلا أنه اختفى. فقلنا للناس إننا سننتظره عندما يحضر للامتحانات. وبلغه الخبر فامتنع عن حضور الامتحانات كلها، وبالتالي إضطر أن يعيد ذلك العام الدراسي..

كنت في الخرطوم إذن عند إعلان الاستقلال، ورغم الحشود الجماهيرية الضخمة التي خرجت في شوارع العاصمة تعبيراً عن الفرحة باستقلال بلادها إلا أنني لم أشعر بحماس للأمر. فقد كانت نشأتي في أسرة تؤمن إيماناً راسخاً بوحدة وادي النيل .. وأذكر عندما تم التصويت داخل

البرلمان على الاستقلال أن عدداً قليلاً من النواب (حوالي ٤) صوتوا ضد الاستقلال، ثابتين على مواقفهم وموقف التيار الاتحادي العريض المنادي بالوحدة مع مصر، التي كانت الشعار الذي فاز على أساسه الغالبية العظمى من نواب البرلمان في الانتخابات العامة. وأذكر من بين النواب الذين تمسكوا بالوحدة المرحوم محمد نور الدين — عمر أبو آمنة وآخرون من نواب الشرق .. المهم كان الاستقلال يوم فرح عظيم في السودان وإيذاناً ببدء صفحة أصعب على صعيد المسئوليات الوطنية. ولكن كان من الواضح أن الأحزاب كانت تفتقر إلى البرامج الوطنية لبناء وقيادة البلاد نحو مستقبل أفضل. فانشغلت بالصراعات الضيقة، ثم انفجر الخلاف داخل الحزب الوطني الاتحادي نفسه بين المؤيدين لوصاية الطائفة الختمية والسيد علي الميرغني وبين الرافضين لتلك الوصاية، وكانوا بقيادة الزعيم الأزهري والذي نتج عنه انقسام المؤيدين وتأسيسهم حزب الشعب الديمقراطي، برئاسة الشيخ علي عبد الرحمن ورعاية السيد علي الميرغني، إلى أن تمّ الاجتماع الذي اشتهر باسم لقاء السيدين بين زعيمي الطائفتين الميرغني والمهدي الذي اتفقا فيه ضد الأزهري ونتج عن تأسيس الحزب الجديد اسقاط حكومة الأزهري الأولى وتشكيل وزارة أخرى (حكومة السيدين) بالاشتراك بين حزبي الأمة والشعب الديمقراطي برئاسة سكرتير عام حزب الأمة المرحوم عبد الله بك خليل ..

كانت الاطروحات الوحدوية بارزة في شعارات حزب الشعب الديمقراطي، ولكن كانت العلاقات بين مصر والسودان مستمرة في التدهور

ووصلت قمتها في أزمة حلايب المعروفة في مطلع عام ١٩٥٨م، وفي نفس الوقت كان واضحاً أن قيادة جمال عبد الناصر كانت تعمل على إعادة توحيد الحزبين الوطني الاتحادي والشعب الديمقراطي (الاتحاديين) وكان ذلك تهديداً لحكومة عبد الله خليل وحزب الأمة. وبالفعل كادت تلك المساعي أن تتكلّل بالنجاح وكان من المفترض عند انعقاد الدورة الجديدة للبرلمان أن يتم سحب الثقة من حكومة عبد الله خليل وتشكيل حكومة اتحادية مرة أخرى، لولا قيام انقلاب الفريق إبراهيم عبود في ١٩٥٨/١١/١٧م، في اليوم المحدّد لافتتاح جلسات البرلمان ولكن، وكما هو مثبت في محاضر محاكمة أعضاء المجلس العسكري الحاكم فيما بعد، والشهادات التي أدلى بها "الدرديري نقد" و "زين العابدين صالح" و "إبراهيم عبود" و"عبد الله بك خليل"، كان ذلك "الانقلاب" في حقيقته عملية تسليم وتسلم أي أن سكرتير حزب الأمة، رئيس الوزراء، المرحوم عبد الله خليل قام بتسليم السلطة للقوات المسلحة ليقطع الطريق أمام وحدة الاتحاديين، التي كانت ستؤدي لانتزاع السلطة منه ومن حزبه .. وفي اليوم التالي توالت برقيات التأييد للسلطة العسكرية من زعماء الطائفتين ... فهل كانت طائفة الختمية أيضاً على علم بمخطط عبد الله خليل؟ ..

تربطنا بالفريق إبراهيم عبود علاقات قرابة ومصاهرة، وكان كل طموحه أن يعود بعد التقاعد إلى مدينة "سنكات" ذات الطقس الجميل بشرق السودان ليبني منزلاً هناك بين أهله ومع صديق عمره وزميله ونسيبه عمنا

المرحوم الفريق أحمد باشا محمد، الذي كان قد سبقه في منصب القائد العام. وبالفعل كان قد بدأ التردّد على والدي بمخازن أبو شامة لشراء ما يحتاجه من مواد البناء .. فلم يكن للفريق عبود وزملاءه من أعضاء المجلس العسكري الحاكم تنظيماً أو رؤية لما يجب عليهم فعله عندما استلموا السلطة. ولذلك كان مستشاروهم هم : مولانا المرحوم محمد أحمد أبو رنات، رئيس القضاء آنذاك، والأستاذ المرحوم أحمد خير المحامي، وزير خارجيتهم، وآخرين، ثم بعض الصحفيين مثل الأستاذين الكبيرين محمد الحسن أحمد وإبراهيم عبد القيوم ..

هكذا بدأ السودان عهده الوطني المستقل بقيادة أحزاب لم تكن تملك سوى شعارات تلخصت في "السودنة" (سودنة الوظائف المدنية والعسكرية في الدولة) والاستقلال. وعندما تحقق لهم ذلك ورفعوا العلم تبين تماماً أنه لا أهداف لهم من وراء السودنة والاستقلال سوى كراسي السلطة وما توفره من الجاه والمغانم فتفجرت الصراعات الذاتية حول تلك المغانم لا حول كيفية بناء الوطن وتطوير حياة المواطنين. وعندما تأزمت تلك الصراعات قاموا بتسليم الحكم لجنرالات الجيش، الذين لم يكونوا أحسن حالاً منهم، من حيث التنظيم والبرامج الوطنية، بل أسوأ لأنهم صادروا حتى الحريات العامة التي كانت متاحة في العهد الحزبي ..

كما هو معروف استمر حكم عبود العسكري ٦ أعوام، وكان رجل النظام القوى، في بادئ الأمر، اللواء أحمد عبد الوهاب نائب القائد العام، ذو

العلاقة الوثيقة بحزب الأمة وسكرتيره المرحوم عبد الله خليل. وكان اللواء أحمد معروفاً بالصرامة والقدرات العسكرية العالية .. ثم كانت محاولة الانقلاب على الانقلاب بقيادة محي الدين وعبد الرحيم شنان التي عرفت بحركة مارس ١٩٥٩ ونتج عنها دخول عبد الرحيم شنان ومحي الدين والمقبول الأمين الحاج إلى المجلس العسكري الحاكم، كأعضاء، وخروج اللواء أحمد عبد الوهاب منه .. ولكن يبدو أن محي الدين وشنان لم يكونا راضيين على صعود نجم اللواء حسن بشير نصر داخل النظام، وكانا أيضاً على خلاف مع اللواء طلعت فريد، ذو الميول للعلاقة الخاصة مع مصر، وهي العلاقة التي أنتجت وتركت أثرين هامين : الأول ، توقيع اتفاقية مياه النيل، التي يعتقد السودانيون في كل العهود أنهم ظلموا فيها .. والثاني، بناء السد العالي وتهجير النوبيين (أهالي وادي حلفا) إلى شرق السودان بمنطقة خشم القربة وبقية أهلهم في الجزء المصري من بلاد النوبة إلى كوم أمبو، كمأساة إنسانية وحضارية تستحيل تسويتها .. وفي وقتها اندلعت المظاهرات ضد توقيع اتفاقية السد العالي وقرار تهجير أهالي حلفا، ثم تبع ذلك محاولة انقلاب عسكري آخر ضد النظام العسكري، بقيادة الشهداء على حامد وعبد البديع كرار والصادق، وكانت عمليتهم مكشوفة لدرجة أن صلاح عبد العال (وزير شباب نميري فيما بعد) وأورتشي — الذين كانا يعملان كأركان حرب للعميد عمر الحاج موسى — قاما بتبليغ الشيهد علي حامد بأن حركته مشكوفة لدى القيادة العامة وأنه اتخذت الاحتياطات اللازمة ضدها، إلا أن الشهيد أصرّ على تنفيذ خطته. فتم افشالها واعتقالهم

ومحاكمتهم بالاعدام شنقاً على غير العادة مع العسكريين. وذلك امعاناً في اذلالهم وارهاباً للآخرين. ولكن النظام أصبح بعد ذلك أكثر حذراً وتمسكاً بالسلطة حفاظاً على أرواح قادته مما أفشل محاولات انقلابية أخرى..

كذلك كانت معضلة معضلات السودان – مشكلة الجنوب- من أهم أزمات النظام. إذ لم تكن لدى السلطة العسكرية، بقيادة عبود، محكومة بطبيعتها العسكرية وافتقارها للتنظيم والبرنامج السياسيين، أية رؤية لطبيعة الأزمة في الجنوب وطريقة معالجتها. فلجأت للحل العسكري واستخدمت القوات المسلحة بشكل واسع لقمع التمرد وحرق القرى، مما فاقم المشكلة وأضاف أسباباً جديدة لاستمرارها، رغم أن التمرد في الأساس كان قد بدأ قبل الاستقلال، ولم يعد هنالك شك الآن بأنه كان آنذاك تدبيراً بريطانياً صرفاً استغل المظالم الفعلية القائمة والناتجة عن ظروف التمايز الحضاري والاقتصادي والتاريخي بين الشمال العربي المسلم في غالبه والجنوب بثقافاته الإفريقية ودياناته المحلية والمسيحية، وعمل البريطانيون على تعميق ذلك بسياسات وإجراءات عديدة أدت إلى انفجار عنيف وبشع لم يتردد من قاموا به في قتل الأطفال والشيوخ والنساء فضلاً عن موظفي الحكومة الشماليين العاملين في الجنوب وأذكر منهم المرحوم موسى عبد الغني، الخبير الزراعي، والمرحوم الطيب السراج، الذي كان على ما اعتقد مديراً لمشروع الاستوائية الزراعي .. تلك كانت أهم أزمات النظام الذاتية والموضوعية التي عجّلت برحيله في أكتوبر ١٩٦٤م عندما تزايد تململ واحتجاجات المهنيين والمثقفين والطلاب، خاصة في جامعة الخرطوم ..

(٦)

في قلب العمل العام :

في عام ١٩٥٩م تخرجت ضمن أول دفعة خريجين من جامعة القاهرة فرع الخرطوم بدرجة جيد، التي كانت مطلوبة من الهيئة القضائية للالتحاق بها، فاستدعتني الهيئة ومعي آخرين للامتحان في القوانين الإنجليزية والمعادلة ونجحنا، إلا أن السلطة بدأت تماطل في استيعابنا بالهيئة القضائية بينما قامت باستيعاب دفعتنا من جامعة الخرطوم وهما: القاضي الأمين تاتاى، والقاضي فاروق أحمد إبراهيم. أما الذين كانوا معي من دفعتي في جامعة القاهرة فهم الاخوة : مولانا المرحوم محمد ميرغني مبروك (الذي كان يعمل موظفاً بالجوازات أثناء الدراسة ثم قاضياً وأصبح رئيساً للقضاء بعد انتفاضة ابريل ١٩٨٥م تقديراً لدوره في مقاومة السفاح نميري ولعلمه الغزير)- مولانا المرحوم ميرغني جمال (الموظف بالقضائية أثناء الدراسة وأصبح قاضياً كبيراً) – عبد العزيز صفوت المحامي – أنو أدهم المحامي – كمال رمضان المحامي (الذي أصبح لاحقاً زميلاً لي في شراكة رمضان وملاسى المحاميان) .. مثل هذه التعيينات كانت تصدر يوم الأربعاء من كل أسبوع، وكنا نتابع الأخبار في ذلك اليوم، وعندما لا نسمع ما ننتظره من قرار خاص باستيعابنا كقضاة درجنا على الذهاب في اليوم التالي إلي رئاسة الهيئة القضائية لمقابلة رئيس القضاء فيلقانا حاجبه العم محجوب ببشاشة ويأخذنا إلى مولانا المرحوم محمد أحمد أبورنات، الذي كان أيضاً ودوداً معنا للغاية – وهو بطبيعته رجل في غاية التواضع والاحترام للآخرين – وكان

يعاملنا كأنداد له وزملاء وليس كتلاميذ، كما كان الواقع، ويقوم بتهدئة خواطرنا ويأمر لنا بالكركدي البارد، مؤكداً أنه يولي الأمر عنايته الخاصة وأن الأمر سيحسم في الأسبوع القادم، وظلّ هذا المشهد يتكرر لأسابيع طويلة .. ولذلك قررت استكمال فترة التمرين كمحام إذ أنني كنت قد بدأت التمرين تحت إشراف قريبي وأستاذي المرحوم الفاتح عبود المحامي، بينما كان اسمي مسجلاً لدى الأستاذ الكبير المرحوم يونس نجم المحامي، وأذكر أنني وزميليّ كامل عبد الرازق وعبد العزيز صفوت كنا نشترك ونمتلك ثلاثتنا ربطة عنق واحدة، كان مقرها مكتب الأستاذ عبيد حسن حامد، حيث كان يتدرب كامل، وكان الأخ عبد العزيز أكثر حظاً لينفصل بسرعة عن شراكة "الكرفتة" معنا، لأن أستاذه، العم عتباني المحامي، كان قد بدأ منحه راتباً شهرياً قدره ٤٠ جنيها بالتمام والكمال..

بعد استكمال التمرين والحصول على إجازة المحاماة وحق الظهور باسمي أمام كافة المحاكم، كان قرارنا العائلي أن أعود إلى بورتسودان وأعمل هنالك. وبالفعل قام عمنا المرحوم عبيد بعشر باستئجار مكتب لي في سوق بورتسودان وبدأت الاستعداد للسفر، إلا أن خالي المرحوم علي حمو (مدير مصلحة المرطبات آنذاك) فاجأني بأنه التقى بالأستاذ الكبير أميل قرنفلي المحامي وأنه "يعرض عليك يا شوقي أن تلتحق بمكتبه على أساس الشراكة بنسبة مئوية من دخل المكتب". وأقنعني الخال بالأمر فتركت السفر لبورتسودان والتحقت بمكتب الأستاذ أميل قرنفلي، حيث وجدت عدداً من المحامين، وعلى رأسهم

الأستاذ القدير المرحوم حنا جورج (وهو الأقدم في المكتب وينوب عن الأستاذ اميل عند غيابه) والأخ عبد المنعم عبد الكريم المكي، ثم التحق بنا الأخ محمد بشير، وباشكاتب المكتب الأخ الفاضل فائق. أما السكرتيرة فقد كانت أرملة دكتور أحمد الطيب رحمه الله وهي بريطانية .. وبعد أن انتظمت في العمل بمكتب قرنفلي جاءنا استدعاء من الهيئة القضائية أنا ومجموعتي المذكورة آنفاً، وهناك التقى بنا مولانا المرحوم مجذوب علي حسيب وقام باطلاعنا على عرض من الهيئة القضائية في وظيفة المساعد القضائي، كتعيين جديد دون أن نكون في نفس درجة أبناء دفعتنا الذين سبقونا في التعيين بالقضائية. وكان الاخوة محمد ميرغني وميرغني مبروك لا يزالان يعملان في السلك الكتابي أحدهما في الجوازات والثاني في القضائية. ولذلك كانا مضطرين لقبول العرض، بينما رفضنا نحن وظللنا في مهنة المحاماة، وكانت أحوالي المادية قد تحسنت كثيراً، إذ كنت أكسب بمكتب الأستاذ قرنفلي في الشهر الواحد ما يساوي راتب عام كامل في القضائية !!.

وفي يوم من الأيام كلفني الأستاذ قرنفلي بمتابعة قضية معينة تخص البنك العثماني في مواجهة السيد التجاني محمد خير، أحد كبار تجار كوستي وشقيق الزعيم الطيب محمد خير، القطب الاتحادي المعروف وكان الضامن في القضية شركة أبو العلا، ولكن كان هنالك خلل في الضمان يتعلق بكيفية ادراج شركة أبو العلا في القضية قانونياً. وسبق أن عمل في هذه القضية مع قرنفلي الأستاذ عابدين إسماعيل المحامي (الوزير في حكومة ثورة أكتوبر ثم

السفير لاحقاً في بداية انقلاب ١٩٦٩م)، وعندما اضطر قرنفلي للسفر طلب مني العمل فيها مع الأستاذ عابدين، وكان قاضي الموضوع علي ما أذكر، والذي سبق وأن رفض عريضة الأستاذ عابدين، لوجود خلل في موضوع الضمان. وبعد أن كتب عابدين عريضة أخرى عكفت على قراءتها ودراستها بعناية إلى أن وجدت مخرجاً للموضوع. فقمنا بإعادة صياغة وتركيب عناصر العريضة من جديد. فوجدت قبولاً من المحكمة. فاستكملنا إجراء التسوية بين البنك والتجاني (طرفي النزاع)، وعليه تحصل الأستاذ قرنفلي على مبلغ ٥ آلاف جنيه كأتعاب وكان من المفترض أن يكون نصيبي منها ألف جنيه، حسب الاتفاق (وكان الألف آنذاك ثروة حقيقية)، إلا أن الأستاذ قرنفلي أعطاني فقط خمسين جنيها، وعندما رفض أي نقاش في الأمر غادرت مكتبه نهائياً.. وكان ذلك في أواخر عام ١٩٦٣م. فالتقيت بعد أيام قليلة بالمرحوم الدكتور عقيل أحمد عقيل مصادفة جوار المحكمة العليا بالمدخل الغربي المواجه لمصلحة الري المصري بالسودان، وسألني عن أحوالي ثم عرض عليّ أن التحق معه بمكتبه بنفس الشروط التي كنت عليها مع الأستاذ قرنفلي، فانتقلت فوراً إلى مكتبه..

هكذا انتظمت في مهنة المحاماة نهاراً بينما كنت في أغلب الأمسيات مشغولاً بالمهمات التنظيمية والحزبية ومن بينها متابعة البذرة التي ساهمت في زراعتها بجامعة القاهرة فرع الخرطوم والتي ظلت علاقتي بها وبطلابها منتظمة ومستمرة .. ونشاطنا الخاص هذا كتيار قومي جاءت نشأته في شكل تنظيمات متفرقة وبمجهودات ومبادرات فردية نبعت من شعور أصحابها بضرورة التعبير

عن الانتماء القومي العربي الإنساني عن طريق إيجاد مركز ثالث بين المركزين الشيوعي الماركسي ومركز الأخوان المسلمين يكون أكثر تعبيراً عن الواقع السوداني وارتباطاته الإقليمية، ولذلك كانت بداياته في أوقات متقاربة وبأسماء مختلفة دون رابط بينها. ففي جامعة القاهرة الفرع بدأ النشاط عام ١٩٥٦م باسم حزب البعث منذ البداية وخاض انتخابات الاتحاد بهذا الاسم ثم تحول اسمه لاحقاً إلى "الجبهة المتحدة للطلاب العرب" وفي عام ١٩٦١م استقر على اسم "الطليعة التقدمية العربية" وهو التنظيم الذي لعب دوراً فعالاً ورائداً فيما بعد في تطور تنظيمات التيار القومي الاشتراكي في السودان .. وكانت مدرسة فاروق الثانوية التابعة للبعثة التعليمية المصرية تعمل نهاراً في نفس مبنى جامعة القاهرة فرع الخرطوم. وكان طلاب تلك المدرسة يطلعون على صحفنا الحائطية. وفي تلك الفترة بدأ بعض طلابها في الاتصال بنا وتكوين تنظيم قومي في مدرستهم، أذكر منهم: بدر الدين مدثر والطاهر عوض الله والشهيد محمد سليمان الخليفة، الذين واصلوا العمل في الجامعة بعد تخرجنا. بينما نشأت في مدرسة وادي سيدنا الثانوية ومدرسة النهضة الثانوية بمدينة الأبيض تنظيمات حملت اسم "القوميين العرب" منذ أواخر الخمسينات، وفي مدينة بورتسودان ومدرسة بورتسودان الثانوية ظهر تنظيم باسم "حزب البعث العربي الاشتراكي". أما في جامعة الخرطوم فقد قامت مجموعة من الطلاب ذات توجه قومي عربي واضح بإصدار مجلة حائطية باسم "الرائد" وكان ضمن هذه المجموعة : محمد بشير أحمد صالح (عبد العزيز الصاوي)، عبد الله محمد عبد

الرحمن، محجوب الشيخ، عبد الله البشير وآخرين. وظلت هذه المجلة منتظمة لأكثر من عامين قبل أن يؤسس أصحابها عام ١٩٦١م تنظيماً باسم "الجبهة العربية الاشتراكية". وذلك بعد أن ازداد حجم تلك المجموعة في الدفعتين اللاحقتين. فانضم إليها الصادق شامي واسحق شداد وتاج الدين ميرغني وجلال عتباني وعبد الله بلعو وآخرين ثم محمد علي جادين والمرحوم محمد بشارة عبد الرحمن ومقبول حاج محمد وجعفر عبدالله إبراهيم وآخرين.

في البدء كنا مجموعة صغيرة في جامعة القاهرة هي التي كانت تشعر فعلاً بالانتماء لحزب البعث، متأثرة ببعض الكتب التي تحصلنا عليها من مؤلفات المرحوم ميشيل عفلق وبعض الأعداد التي كانت تصلنا من جريدة "البعث" الصادرة في دمشق. وفي هذا تستحضرني حادثة طريفة بعد زيارة الشيخ علي عبد الرحمن، وزير الداخلية قبل انقلاب عبود، إلى القاهرة. فبينما كنت أتدرب في ملعب كرة السلة بالجامعة جاءني الأخ محمد موهوب (حفيد الاتحادي المرحوم محمد نور الدين)، وكان معنا في تنظيم البعث بالجامعة، وهو يحمل جريدة "الصراحة" التي كان يصدرها الأستاذ المرحوم عبد الله رجب. وكان الموضوع الرئيسي في صفحتها الأولى خبر لقاء الشيخ على عبد الرحمن بالمرحوم ميشيل عفلق في القاهرة. واقترح أن نذهب لليلة السياسية المقامة في ميدان عقرب بالخرطوم بحري دعماً للشيخ علي في الانتخابات ضد منافسة المرحوم نصر الدين السيد مرشح الوطني الاتحادي، لكي نقابل الشيخ هناك. وبالفعل ذهبنا وكان عمنا الشيخ حسن طنون هو الذي يقدم المتحدثين

للجمهور. وغاب عني موهوب لدقائق وفجأة وجدت نفسي محمولاً على الأعناق إلى المنصة على يمين الشيخ علي عبد الرحمن ووسط عدد من اقطاب حزب الشعب الديمقراطي، الذين يعرفونني تمام المعرفة، كالشيخ عمر أبو آمنة والمرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد والدكتور أحمد السيد حمد، متعه الله بالعافية، وغيرهم. كما أن عدداً كبيراً من الجمهور المحتشد أيضاً يعرفني بحكم الجيرة في الخرطوم بحري والنشاط الرياضي بنادي الكوكب ونادي الخريجين. ويبدو أن الأمور في تلك اللحظة كانت قد اختلطت على الشيخ علي عبد الرحمن وهو في زحمة الأيام الأخيرة للحملة الانتخابية، فأخذ يخاطبني باعتباري مندوباً عن حزب البعث في الأردن جاء لمشاركته والتضامن معه ودعمه في هذه الحملة الانتخابية ونادي على الدكتور أحمد السيد ليقوم شخصياً بتقديمي للجمهور بهذه الصفة. وفعلاً نهض الدكتور والقى كلمة حماسية للغاية في تقديمي و لم يكن أمامي سوى مسايرتهم وإلقاء خطاب بتلك الصفة المفروضة وسط تهليل وهتاف الجمهور !!.

وعندما بدأنا ربط تلك التنظيمات الطلابية في المدارس والجامعات المختلفة وتوحيدها تحت اسم "منظمات الاشتراكيين العرب" كنت من بين مجموعة صغيرة تعتنق البعث فكراً. أما الجانب التنظيمي فقد كان مجرد اجتهادات نقوم بها إلى أن جاءنا الدكتور حسن عبد الهادي شقيق الدكتور سيد أحمد عبد الهادي، الختمي والاتحادي المعروف، في عام ١٩٦١م. وكان الأخ حسن يدرس الطب بجامعة بعداد في العراق في عهد عبد الكريم قاسم وتم

فصله من الدراسة بسبب نشاطه البعثي هناك. فانتقل إلى جامعة القاهرة. وفي العطلة الصيفية لذلك العام ١٩٦١م جاءنا برسالة من القيادة القومية لحزب البعث وعقد معنا سلسلة من الاجتماعات بمكتب شقيقه المراجع القانوني، جوار شركة المصنوعات المصرية بشارع الجمهورية، شمال زنك الخضار القديم، وعلى أساسها اتصل نشاطنا بتأسيس أول خلية بعثية في السودان وواصلنا عملنا في بناء منظمات الاشتراكيين العرب لتضم فرعين : "الجبهة العربية الاشتراكية" في جامعة الخرطوم والمدارس الثانوية السودانية، و"الطليعة العربية التقدمية" في جامعة القاهرة الفرع والمدارس الثانوية المصرية بالسودان. وقد أصبحنا بعثيين بعد تلك الاجتماعات، التي قمنا خلالها بأداء القسم الحزبي أمام الأخ حسن عبد الهادي، وكان عددنا قليلاً كبعثيين في جامعة القاهرة فرع الخرطوم وجامعة الخرطوم. ولكننا قمنا بدور القلب والقيادة لمجمل حركة الاشتراكيين العرب .. وعند توقيع اتفاقية السد العالي – وكنت تقريباً الخريج الوحيد وسط تلك المجموعات الطلابية – اشتركنا في المظاهرات الشعبية المعادية للاتفاقية وتم على أثرها اعتقال عدد كبير من صفوفنا أذكر منهم الاخوة : يوسف همت، كمال وهبه – بدر الدين مدثر – الشهيد محمد سليمان الخلفية عبد الله وآخرين .. وكنا نعتقد آنذاك أن سلطات الأمن لا تهتم كثيراً بهذا النشاط وسط الطلاب. ولكننا علمنا فيما بعد أن السفارة الأمريكية بالخرطوم وضابط من جهاز الأمن هو "نصر بري" (من أقرباء يوسف همت) كانوا مهتمين بجمع معلومات عن هذا النشاط القومي المتنامي وسط الجامعتين.

إذن انتظمنا في عقد اجتماعاتنا ومؤتمراتنا وكانت تتم في الغالب بنادي البحرية أو غرفة سعيد حمور، الذي كان يعمل ويسكن في الوابورات بالخرطوم بحري، وكنا قد انتخبناه أميناً للسر وانتخبوني بعده في الدورة التالية، ثم في دورة لاحقة انتخبنا الأخ الطاهر عوض الله. وكانت الفترة التي أصبح فيها الطاهر عوض الله أميناً للسر فترة دقيقة وحرجة، وزادها تعقيداً وخلق لنا ربكة واسعة، موقف الطاهر الذي اتسم بالخوف والتراجع. تلك كانت الفترة التي شهدت اندلاع حركة المواجهة النهائية لنظام عبود .. فالطاهر عوض الله على قرابة عائلية مع السيدة سكينة، عقيلة الفريق إبراهيم عبود، واعتبرنا أن ذلك غطاء أمنياً جيداً للطاهر شخصياً وحماية له كأمين للسر وبالتالي تركنا كل وثائق حركتنا وتنظيمنا لديه ليحفظها في مترله بمنطقة الجريف غرب بالخرطوم، وكنا جميعاً متأثرين بالزعيم الخالد جمال عبد الناصر. وعند اندلاع المظاهرات الأولى التي تفجرت بها ثورة أكتوبر ٦٤ وأطاحت بالنظام العسكري اختفى الطاهر عنا نهائياً ولم يشترك في أية تظاهرة أو ندوة وبحثنا عنه دون جدوى !!، وبعد اكتمال الانتفاضة وسقوط النظام خرج إلينا الطاهر من مكان اختفائه — الذي علمنا لاحقاً أنه مترل الفريق عبود وحرمه السيدة سكينة — حاملاً معه استقالته من الحزب وبدأ العمل لشق تنظيم الطليعة التقدمية وتكوين تنظيم الوحدويين الناصريين.، والاستقالة بالطبع من حقه ولكنه رفض أن يعيد إلينا وثائق التنظيم وأسراره، مارسنا معه كافة الوسائل الممكنة دون جدوى لدرجة أن البعض فكر في إيذائه لانتزاع تلك الوثائق .. تلك كانت الفترة التي

شهدت أيضاً انقلاب العلاقة الجيدة بين البعث وعبد الناصر إلي عداء وحرب إعلامية، وانحاز الطاهر لعبد الناصر. وبحكم أثر الاعلام المصري في معركته ضد البعث قام مع عدد من الشباب القوميين بتأسيس تنظيم ناصري في السودان وكان من بينهم شقيقي "عصمت ملاسى" الذي روى لنا أن اللواء مصطفى عبد العزيز، وكيل وزارة الداخلية في مصر في عهد وزيرها زكريا محي الدين، قد قام بزيارة السودان بعد نجاح ثورة أكتوبر ليلتقى بالناصريين في السودان. واجتمع بهم ومن بينهم : مولانا بابكر عوض الله – زهير عتباني .. الطاهر عوض الله – عصمت ملاسى وآخرون، وفي الاجتماع بدأ الطاهر عوض الله في الحديث عن تلك المجموعة للواء مصطفى وعن دورها الهام في النضال ضد الدكتاتورية وفي تفجير ثورة أكتوبر إلى أن قاطعه اللواء مصطفى قائلاً له (أنه يملك معلومات دقيقة عن أن الاشتراكيين العرب قد ساهموا مع الآخرين في المظاهرات والندوات وإشعال الثورة وأنكم لم تكونوا موجودين في الساحة وأن مولانا بابكر عوض الله كان في المعتقل ولم يكن لكم تنظيم أو تأثير في الشارع) ...!! ولأننا كنا نمارس عملنا في إطار منظمات الاشتراكيين العرب، فقد تحدث الطاهر بعد ذلك ذاكراً للواء أنه يملك وثائق تؤكد وجود تنظيم لحزب البعث، وعندما طالبه اللواء والمجتمعون إبرازها – يقول شقيقي عصمت – أخرج الطاهر أوراقاً محروقة لم يستطع المجتمعون قراءة شيء منها أو فهم محتوياتها !! من هذه الواقعة التي رواها عصمت ملاسى فهمنا أن الطاهر قام

بإحراق الوثائق خوفاً على نفسه. ولذلك كان يتظاهر برفض إعادتها لنا ليخفي عنا خوفه .. وفي فترة لاحقة عمل مع نظام نميري ثم سافر إلى السعودية.

ومن جانب ثالث، وبمجرد التحاقنا بمهنة المحاماة، التحقنا مباشرة بعضوية نقابة المحامين السودانيين، ووجدنا النقابة منهمكة في العمل السياسي بالكامل. ولم يكن لدينا اعتراض على ذلك طبعاً، ولكننا بدأنا نشعر أن الشباب الجديد من المحامين وخريجي القانون لديهم مشاكل مهنية حقيقية يجب أن تكون من صلب اهتمامات النقابة، ولكننا لم نجد أذناً صاغية من مجلس النقابة (كان النقيب آنذاك الأستاذ عابدين إسماعيل والسكرتير العام الأستاذ أحمد جمعة) بينما وجدنا تشجيعاً وتأييداً من بعض أعضاء النقابة المخضرمين .. فبدأت في تجميع المحامين الجدد والشباب وقمنا بتأسيس "تنظيم المحامين الشباب" في إطار النقابة وأخذنا في المطالبة بعقد جمعية عمومية لانتخاب مجلس جديد للنقابة يستطيع التوفيق بين النشاط السياسي والهموم المهنية، خاصة مشاكل المحامين الجدد.. وفعلاً تم تحديد موعد وتجمع المحامون أمام المدخل الرئيسي لمبنى الهيئة القضائية، وعندما لاحظ أعضاء المجلس أن الشباب من بين الحضور هم الأغلبية، وقبل انقضاء وقت كاف، أعلنوا أن النصاب لم يكتمل وغادروا .. وبما أن قانون النقابة ينص على أن الاجتماع التالي يكون قانونياً بأي عدد من الحضور، فقد تمّ تحديد موعد آخر بعد فترة، وبدأنا الاجتماع داخل غرفة المحامين بالهيئة القضائية بينما كان أغلب أعضاء المجلس وأنصارهم قد وقفوا في ممرات وردهات الهيئة القضائية.. وفي اللحظة التي تمّ فيه ترشيح

المرحوم عرابي لرئاسة الاجتماع، دخل علينا فجأة الأستاذ ميرغني النصري وحاول تنصيب نفسه رئيساً للجلسة. فاعترضه المرحوم عرابي (وكان ضخماً) وثار في وجهه قائلاً "انك لست أرجل من أحد"، وهنا أخرج الأستاذ ميرغني مطواة من جيبه وأخذ يلوح بها و لم يهرب تاركاً الاجتماع إلا عندما تصديت له طالباً منه أن يطعنني وإلا ... .. واتفقنا بعد ذلك على تأجيل الاجتماع لكي لا تكون النقابة التي تدافع عن الحقوق ساحة لفرض الآراء بالمطاوي .. وتم تحديد موعد ثالث، حيث بدأ الطرفان في حشد أنصارهم من العاصمة والاقاليم، التي أذكر من بين الذين حضروا منها الأخ المرحوم أحمد دهب المحامي والأستاذ الحاج الطاهر من الأبيض، وعُقد الاجتماع بمنزل الأستاذ الكبير المرحوم لبيب سوريال .. كانت منافسة حادة وترشحت فيها للمرة الأولى لعضوية المجلس إلا أن الأخ الأستاذ فاروق أبو عيسى انتزع مني المقعد بفارق صوت واحد، كان يجب أن يكون من نصيبي لأنه كان صوت أحد زملائنا في تنظيم المحامين الشباب هو الأستاذ علي الحسن العوض (المستشار بالنائب العام لاحقاً) الذي قام بذلك التبديل لسبب في غاية الغرابة والطرافة. فقد جاءه أحد أنصار المجلس القديم وأبلغه أن شوقي ملاسى يشجع المريخ (مريخابي) وكان الأستاذ علي يشجع الهلال بجنون !! فأصبحت عضو احتياط للمجلس الجديد..

(٧)

الوقائع الحاسمة في تطور الأمر نحو الثورة :-

خلال النصف الأول من عام ١٩٦٤م بدأ النظام العسكري كما لو أنه قد استقر في الحكم وأن صداعه الوحيد هو الحرب الأهلية في الجنوب على ضوء إصراراه هو على الحل العسكري .. وكانت مجريات تلك الحرب ومآسيها اليومية وانعكاساتها على حياة الناس والركود الاقتصادي العام قد خلقت جواً عاماً من السخط والرفض وسط كل قطاعات الشعب، ورغم ذلك لم يتوقع أحد أن تتسارع المواقف والأحداث في اتجاه ثورة عارمة تسقط النظام العسكري بتلك السرعة وبالإضراب العام والعصيان المدني.

ففي شهر أكتوبر طوح الحكم العسكري مشكلة الجنوب للمناقشة العامة. ولذلك انعقد عدد من الندوات أهمها اثنتان : الأولى حسب الترتيب الزمني كانت تلك التي انعقدت بإشراف "جمعية الثقافة العربية" عن مشكلة الجنوب باللغة الانجليزية وتحدث فيها المرحوم عبد الله محمد عبد الرحمن (ال Invisible) عضو الجبهة العربية الاشتراكية ومسئول جمعية الثقافة العربية بجامعة الخرطوم، والذي أصابته رصاصة بعد ذلك أثناء اشتراكه في مظاهرة القصر، وقد ظلت الرصاصة في صدره لأكثر من ١٠ سنوات وتوفى بسببها في عام ١٩٧٧م بعد فصله من وزارة الخارجية. وكانت الندوة الثانية (يوم الأربعاء ٢١/١٠/١٩٦٤م) أيضاً عن قضية الجنوب وهي التي أستشهد فيها أحمد القرشي طه واصيب آخران ليستشهدا في وقت لاحق. ولسوء الحظ لم أتمكن

من حضور هذه الندوة، وفي صباح اليوم التالي (الخميس) ذهبت إلى المحكمة كالعادة لأجد إعلاناً في اللوحة بتوقيع عضو مجلس نقابة المحامين الزميل الدكتور سليم عيسى المحامي، فحواه استشهاد الطالب أحمد القرشي طه في ندوة الجامعة مساء الأمس وأن التشييع لجسمانه سيبدأ من ميدان عبد المنعم بالخرطوم جنوب إلى مسقط رأسه في قرية "القراصة" على النيل الأبيض جنوب العاصمة. فذهبت مباشرة مع مجموعة المحامين المتواجدين بالمحكمة إلى ميدان عبد المنعم .. كان الجثمان على ظهر عربة نقل (لوري) بوسط الميدان. الحشود الجماهيرية تملأ الميدان والشوارع المؤدية إليه، وقوات الشرطة والجيش بكامل الأسلحة داخل سياراتهم حول الميدان .. والحقيقة التي رأيتها وسمعتها بنفسي، مع آلاف السودانيين ويجب أن تقال، هي أن الأخوة : الدكتور حسن الترابي والسيد الصادق المهدي وقفا عند عربة الجثمان وتحدثا مخاطبين الجماهير راجين منهم أن يتفرقوا بهدوء وأنهما سيقومان بمعالجة الموقف بحكمة !!!، هنا تقدم الأخ بشير الطيب (عضو الحزب الوطني الاتحادي) بقوة وحماس وصعد على ظهر عربة الجثمان وخاطب الحشود بالمايكرفون هاتفاً " إلى الجحيم يا عبود، إلى الجحيم ياعساكر." وهنا انفجرت الجماهير غضباً وحماساً وهجمت على سيارات الشرطة والجيش وقلبت بعضها وأضرمت النيران في البعض، ليتحول التشييع إلى ثورة شعبية. ولكنها للأسف كانت تفتقر للقيادة..

عُدت من هنالك إلى المحكمة، ورغم عدم عضويتي في مجلس النقابة، بادرت بكتابة اعلان أدعو فيه المحامين لاجتماع بمكتب النقيب الأستاذ عابدين

إسماعيل. وفعلاً جاء المحامون وبدأوا اجتماعاً أصبح محور النقاش فيه حول رفع مذكرة استنكار للسلطة. فطلبت فرصة الحديث وقلت أن مثل هذه المذكرة المقترحة لا تقدم جديداً ولا تواكب الأحداث، بل هي فكرة مستفزة ويجب أن يكون لنا قرار واضح حول الموقف، ثم اقترحت عليهم إعلان العصيان المدني والتوقف – بالاضافة عن العمل – عن كافة الالتزامات بما فيها تسديد العوائد وفواتير الماء والكهرباء .. الخ كطريق وحيد للمساهمة في ثورة الشعب وإسقاط النظام العسكري.. وفي الحقيقة كان الاضراب السياسي مطروحاً في الشارع من الاشتراكيين العرب والحزب الشيوعي الذي بادر به في ١٩٦٣م. ولكن الحزب الشيوعي كان قد ترك هذا الشعار بعد أن طرحت السلطة موضوع "المجلس المركزي" ووافق عليه الحزب الشيوعي وخاض انتخاباته بناءً على موقف الاتحاد السوفيتي الايجابي من النظام وعلاقاته المتطورة معه حيث كان الرئيس السوفيتي، بجنيف قد زار السودان في ١٩٦٠ تدعيماً لتلك العلاقة، فانسحب الحزب الشيوعي من فكرة الاضراب السياسي واستبدلها بالنضال من داخل مؤسسات السلطة .. المهم، ختمت حديثي بهذا الاقتراح فنهض مباشرة الأستاذ الكبير المرحوم محمد أحمد محجوب مؤيداً ومثنياً الاقتراح، الذي فاز بعدها بالاجماع تقريباً، ولكننا لم نتفق على كيفية التنفيذ.. في تلك الأثناء استدعاني مولانا بابكر عوض اله نائب رئيس القضاء إلى مكتبه بالقضائية ليقول لي أنهم كهيئة قضائية سيتضامون مع المحامين في أي عمل يقومون به، رجعت للاجتماع وابلغت النقيب بالأمر. فقرر أن نعود إليه مرة أخرى بعد

الاجتماع. وفعلاً ذهبنا إليه، فأكد لنا بابكر استعداد القضاة للاشتراك، بل والتوقيع على المذكرة واعتبارها مذكرة أهل القانون جميعهم .. كان ذلك يوم الخميس وكان الاتفاق أن نقدم المذكرة يوم السبت، وكان واضحاً لنا أن أمن النظام (مباحث الشرطة آنذاك)، بقيادة أحمد عبد الله أبارو ومعه زيادة ساتي، لم يكن متابعاً لهذه التطورات. المهم تمت صياغة المذكرة في نفس اليوم ووقع عليها القضاة باستثناء بعض قضاة محكمة أمدرمان ومولانا المرحوم مجذوب علي حسيب ومولانا عبد المجيد امام ومولانا محمد الأمين قسومة، وصادف ذلك اليوم (الخميس) حفل زواج أحد أبناء آل عبد المنعم. فبعد أن جمعنا توقيعات القضاة الموجودين بمختلف درجاتهم اتفق معي مولانا بابكر أن التقيه في نهاية ذلك الحفل الذي كان في منطقة المقرن، لنذهب معاً إلى أمدرمان لبقية القضاة في منازلهم. وسبق ذلك أن ذهبنا لمولانا عبد المجيد امام في منزله بالخرطوم، حيث كان مريضاً، واذكر أنه كان بملابسه المنزلية ويلتحف (توب قنجة). إذ أنه لم يتوقع زيارة أثناء ساعات العمل، وأذكر أيضاً أنه دخل في نقاش حاد مع مولانا بابكر حول حديث قاله في حفلة دبلوماسية قبل أيام، مفاده أن بابكر كان قد قال أنه لو كانت لديه سلطة لقام بإبادة الجنوبيين. فقلنا له أنا والنقيب عابدين إسماعيل أن هذا كان مجرد حديث غير جدّى وأن هذا ليس وقت مناقشة في كل الأحوال .. الخ إلى أن هدأ الرجل وقام بالتوقيع .. وفي المساء كان الزميلان سعيد حمور وبدر الدين مدثر معي. فذهبنا جميعاً – ومعنا زوجتي صفية صفوت المحامي – إلى حفل الزواج بالمقرن.. وفي الزمن

والمكان المحددين وجدنا مولانا بابكر في انتظاري. وانطلقنا جميعاً بسيارتي إلى أمدرمان ومعنا المذكرة التي وقع عليها كل القضاة، الذين ذهبنا إليهم دون تردّد إلى أن وصلنا مترل مولانا مجذوب علي حسيب، وهناك وجدنا السيد صالح سكر، الذي يشترك مع مجذوب في علاقة مصاهرة مع آل البرير، إضافة إلى أحد أبناء آل البرير (اعتقد أنه كان الرشيد)، قالوا لنا أن مولانا في مزرعته ولكنه اتصل هاتفياً وهو في طريق العودة. وقاموا بالترحيب بنا وبضيافتنا إلى أن وصل مولانا مجذوب. فاستأذن مولانا بابكر وانفرد به في غرفة الصالون وأخذ منه توقيعه على المذكرة .. وقبل أن نغادر مترله سمعنا من الإذاعة نبأ إعلان حالة الطوارئ وجاء فيه حظر انتقال الأفراد بين مدن العاصمة الثلاث إلا بإذن مسبق واعتبار أي تجمع لأكثر من ٤ أشخاص تجمعاً غير مشروع يستلزم تفريقه بالقوة .. الخ.. ورغم اصرار مجذوب وأهله على أن نقضي تلك الليلة معهم لخطورة الموقف، قرر مولانا بابكر أن نعود مهما كان الأمر .. لم نجد في الجسر الذي يربط امدرمان بالخرطوم (كوبرى النيل الأبيض) لم نجد أحداً يعترضنا، لا توجد قوة حراسة ولا تفتيش. فنظام عبود لم تكن لديه أدوات رقابة وقمع مثل التي رأيناها في الأنظمة العسكرية اللاحقة، إلى أن وصلنا مبنى الهيئة القضائية، حيث كانت سيارة بابكر. وهناك فقط وجدنا قوة من الشرطة اعترضونا واستفسرونا عن شخصياتنا. فقال لهم بابكر : "أنا فلان الفلاني نائب رئيس القضاء، كنت في مناسبة زواج وأنا الآن في طريقي لمترلي " فسمحوا له بالذهاب وأخذونا إلى مركز شرطة الخرطوم بمباني رئاسة المديرية .. في الطريق

استطعت أن أدس المذكرة في يد زوجتي، التي قامت باخفائها داخل ملابسها بطريقتها. إذ لم يكن السودان قد عرف آنذاك تفتيش النساء واعتقالهن أو الاساءة لهن أو جلدهن مما نسمع الآن. ولحسن الحظ وجدنا في مركز الشرطة أن الضابط المسئول عن شئون حالة الطوارئ هو قمندان بوليس المديرية نفسه، القمندان "لويس سدرة" الذي كنت اسمع عنه كثيراً من والدي، حيث كانا صديقين وزميلين في كلية الإدارة والبوليس بأمدرمان وكان والدي يصفه بالكفاءة والطيبة، وعندما سألنا عن اسمائنا وهوياتنا تعمدت أن أذكر له اسمي بالكامل : شوقي حسب الله ملاسى، فقال لي أنت ولد حسب الله؟، نعم، وشرحت له أننا كنا في حفل زواج وهناك سمعنا نبأ اعلان الطوارئ .. الخ فاكتفى بقوله "تاني ما تعملو كده". واستخرج لكل منا إذناً بالمرور وانصرفنا..

في اليوم التالي (الجمعة) كانت هناك اجتماعات بدعوة من أستاذة جامعة الخرطوم. فذهبنا إلى مكتب نقيب المحامين، وحضر الحاج عبد الرحمن مندوباً عن اتحاد نقابات العمال والدكتور صلاح عبد الرحمن على طه عن نقابة الأطباء، إضافة إلى القضاة والمحامين.. كانت مقترحات العمال والأطباء تدور حول نفس فكرة مذكرتنا وأن تصدر عن كل هذه الهيئات إلى رئيس النظام تطالبه بالتحقيق في حادث اطلاق الرصاص بالجامعة ومحاسبة المسئولين عنه، وان يتم تسليم المذكرة بموكب ينطلق من أمام مبنى القضائية .. وبما أن المذكرة كانت جاهزة سلفاً وكنت مكلفاً بحفظها وجمع توقيعات القضاة والمحامين والمستشارين، فقد قام مندوبو بقية الهيئات بالتوقيع عليها. وفي صباح السبت

ذهبت حسب الخطة وجمعت توقيعات المحامين والمستشارين في ديوان النائب العام. وفي الموعد المحدد من ذلك اليوم تجمعت الهيئات النقابية والفئوية وحشود من الجماهير أمام مبنى الهيئة القضائية. وقبل أن ينطلق الموكب الشعبي نحو القصر وصلت قوات كبيرة من الشرطة وقامت بتطويق التجمع الشعبي، بقيادة ضابط الشرطة آنذاك والمحامي لاحقاً المرحوم "قرشى فارس". وأخذت تلك القوات باطلاق النداءات والأوامر لنا بالتفرق وإلا فإنها ستطلق النار .. كان مظهر القانونيين (قضاة ومحامين ومستشارين وأساتذة قانون) بالأرواب السوداء وهم يهتفون مع الجماهير مظهراً مهيباً.. في تلك اللحظات كان الأستاذ المرحوم محمد أحمد محجوب ونقيب المحامين عابدين إسماعيل ونائب رئيس القضاء بابكر عوض الله وقاضي المحكمة العليا عبد المجيد أمام، كانوا مع رئيس القضاء المرحوم أبورنات في مكتبه ليتابعوا معه اتصالاته الهاتفية مع القصر للسماح للموكب الشعبي أن يذهب إلى القصر لتسليم المذكرة للرئيس عبود. والموقف يزداد اقتراباً من الانفجار بالخارج، اسرعت بالصعود إليهم في مكتب رئيس القضاء في اللحظة التي كانوا يتلقون فيها الاجابة بالرفض عبر الهاتف.. لقد كانت إرادة الله مع انفجار الثورة وانتصارها لأنه إذا وافقت السلطة على الموكب وتسليم المذكرة لما تطورت الأمور نحو النصر، لأن الموكب كان محدود الهدف في تسليم مذكرة لا تؤثر كثيراً في الموقف.. دخلت عليهم وقلت لمولانا عبد المجيد إمام : "لماذا لا تخاطب قرشي فارس وقواته وتطلب منهم الانصراف أو التوقف عن التهديد، خاصة وأن صفتك كقاض بالمحكمة العليا

تجعلك مسئولاً عن الشرطة قانونياً في ظروف اعلان حالة الطوارئ؟"، فوافق عبد المجيد ووافق المجتمعون معه ونهض الرجل مباشرة إلى الخارج وخاطب قرشي فارس: "أنا عبد المجيد امام قاضي المحكمة العليا المسئول عن الأمن، بموجب هذا آمرك بالانصراف .." لم يكن لقرشي فارس اهتمام بالسياسة، بينما كان شقيقه عضواً باللجنة التنفيذية لاتحاد طلاب جامعة الخرطوم وكان معتقلاً في تلك اللحظة بسجن كوبر مع بقية زملائه منذ ليلة ندوة الاربعاء. فوافق قرشي فارس على تنفيذ الأمر دون تردّد وقام باداء التحية العسكرية للقاضي وانصرف بقواته .. هذا الأمر من القاضي وتلك الطاعة من ضابط الشرطة اشعلا حماس الجماهير بشكل واسع فتزايدت الهتافات دواية وزاد الغليان الشعبي .. وانطلقت دعوة لاجتماع عاجل بقاعة المحكمة العليا، حيث قام المرحوم علي أحمد إبراهيم المحامي بطرح نفس اقتراحي بالعصيان المدني، الذي سبق أن طرحته على المحامين في اجتماعهم قبل يومين بعد التشييع بمكتب عابدين إسماعيل ووافقوا عليه في حينه، والآن أيضاً وافق الجميع على إعلان الإضراب السياسي .. صحيح أن الاخوة الشيوعيين، وكذلك الأخوان المسلمين، تعمدوا إخفاء دوري في كل ذلك إلا أن الأستاذ عبد المنعم المكي كان قد أثبت تلك الوقائع في الأسبوع التالي من نجاح الثورة (الأسبوع الأول من نوفمبر ٦٤) في صحيفة "الرأي العام" السودانية واعتقد أن أرشيف تلك الصحيفة متاح للباحثين .. الأحداث تتسارع وتأخذ برقاب بعضها. فبعد انصراف قوات الشرطة بأمر القاضي قامت السلطة هذه المرة بإرسال قوات من

الجيش بكامل أسلحتها ومعها مدرعات صغيرة، بقيادة الضابط مزمل غندور، وأخذت تهديداتهم تتكرر أيضاً بإطلاق النار إذا لم يتفرق المتجمهرون .. ولكنني سبق وأن اتفقت مع تنظيم الضباط الأحرار بواسطة الأخ الضابط "حسين عثمان بيومي" بأن المطلوب منهم هو عدم إطلاق الرصاص على المتظاهرين حتى إذا طلبت السلطة منهم ذلك. وبالفعل التزم الأخ فيصل غندور بذلك الاتفاق، وأذكر أن السيدة فاطمة أحمد إبراهيم كانت على رأس التظاهرة النسائية المشاركة في الموكب وهتفت ومن ورائها النساء : "إلى الثكنات يا فتيات" في إساءة بالغة لرجال القوات المسلحة. ومع ذلك تمالك فيصل غندور نفسه وأحجم عن الانفعال واستعمال السلاح ضد الشعب، بل اكتفى هو وجنوده باطلاق الرصاص في الهواء ..

بعد اجتماع قاعة المحكمة العليا وقرار اعلان الاضراب السياسي، صعدت إلى شرفة مباني القضائية المطّلة على الساحة مع الأستاذ عابدين إسماعيل المكلف بإعلان الإضراب، وعندما أعلن الأستاذ عابدين الإضراب ارتفع التساؤل من بين الجماهير : متى نبدأ؟" فجذبته من قميصه أن يقول لهم "منذ هذه اللحظة" وبالفعل قالها لهم عابدين بصوت جهوري .. أسرع بابكر عوض الله بإغلاق مكتبه. وفي الحقيقة لم تكن هنالك قيادة سياسية أو حزبية مهيأة لقيادة هذا الموقف المفاجئ للكثيرين .. من هناك تداعينا سريعاً للاجتماع بمكتب عابدين إسماعيل : نقابات ومحامون وقضاة. وفي الاجتماع تساءل الحاضرون :" من نحن؟ وكيف ننفذ الاضراب السياسي؟" قال فاروق أبوعيسى

أنه التقى في ذلك الصباح بالسيد الصادق المهدي وتحدثا عن ضرورة اشتراك القيادات الحزبية في الموكب وضم قواهم لقوى النقابات.. فقاطعه بصوت واحد ومضمون واحد كل من بابكر عوض الله وعبد المجيد امام قائلين: "إذا كنتم تريدون إعادة نفس الأحزاب والوجوه سنعود فوراً إلى مزاولة أعمالنا".. حاول فاروق أن يبرر حديثه ثم خرج بحجة أن لديه محاولات أخرى سيقوم بها.. وبعد نقاش قصير اقترح عبد المجيد امام تسمية هذه القوى، قوى الموكب والمذكرة والإضراب، باسم "الجبهة الوطنية للهيئات" وافق المجتمعون فوراً وقرروا إصدار منشور جماهيري وتمّ تكليف الأخ الأستاذ الزين على إبراهيم، جامعة الخرطوم بمهمة طباعته بجامعة الخرطوم في نفس اليوم وتسليمه لمكان التوزيع بداخليات كلية الطب ليستلم مندوب كل نقابة كمية نقابته من هناك .. ومن الذين أتذكرهم من حضور ذلك الاجتماع الاخوة : دكتور طه بعشر – دكتور صلاح عبد الرحمن على طه – مولانا بابكر – مولانا عبد المجيد – بدر الدين مدثر – وسعيد حمور – فاروق أبو عيسى – نقيب المحامين – وشخصي .. وبذلك انطلقت حركة الثورة وبدأت كافة الفئات في الخروج إلى الشوارع والتظاهرة بالسيارات والدراجات والأقدام .. وكان بابكر وعبد المجيد قد طافا على كل محاكم العاصمة لإبلاغ القضاة بالإضراب الذي نفذه القضاة والعاملون في المحاكم بالإجماع الكامل.. وتقرر أيضاً أن يقوم كل واحد من الحاضرين باتخاذ الاحتياط اللازم لتأمين نفسه ضماناً لاستمرار الإضراب بنجاح..

قضيت تلك الليلة (ليلة السبت) مع أخي الفنان الكابلي بمترله في إمتداد الدرجة الثانية جوار مسجد الصادق أبو عاقلة، وفي حوالي السابعة صباحاً جاءه من يبلغه خبر اعتقال بابكر عوض الله وعبد المجيد إمام بمنازلهما، فوجئت بالنبأ لأن اتفاقنا كان أن لا يقضي أحدنا الليل بمترله.. المهم انصرف تفكيرنا لكيفية اقناع الإذاعة بالإضراب، لكي لا تساهم في تضليل الجماهير. فقال الكابلي أنه سيحاول إقناع المهندسين في الإذاعة، فانطلقنا بسيارته نحو مباني الإذاعة بإمدرمان، وفي الطريق ا قترح الكابلي أن نزور في منطقة المقرن أحمد عبد الله حامد، الذي كان عضواً بالمجلس العسكري (واشتهر بعبارة "أنا غلطان في دي معاليك" عندما واجهه الفريق عبود بأنه كان على علم بانقلاب شنان ومحي الدين الثاني و لم يبلغ عنه) لأنه من كبار مؤيدي طائفة الأنصار داخل الجيش لنسأله عن موقف الأنصار، فذهبنا إليه فرحب بنا وأجرى بعض الاتصالات الهاتفية ثم أخبرنا أن الأنصار محتشدين بأسلحتهم استعداداً لاشتراكهم في الأضراب، الشيء الذي لم يحدث .. أمام مبنى الإذاعة بقيت أنا في السيارة ودخل الكابلي وعاد بعد حوالي نصف ساعة وأبلغني أن المهندسين قد وافقوا على تعطيل البثّ عمداً في تمام الثانية عشرة منتصف النهار – وكانت الساعة آنذاك حوالي الحادية عشرة من صباح الأحد .. ومن هناك طلبت منه أن يأخذني إلى مترل مولانا بابكر عوض الله بالخرطوم، الذي وجدنا حوله حراسة عسكرية مشدّدة فلجأت إلى مترل جاره صديقنا الفنان التشكيلي وعميد المعهد الفني آنذاك الأستاذ "بسطاوي بغدادي" (الذي غضب مني لاحقاً

لأنني ذكرت اسمه معكوساً في ندوة تلفزيونية أجراها معي الأستاذ محمود أبو العزائم بعد نجاح ثورة أكتوبر) وقلنا له أننا نريد توصيل رسالة لمولانا بابكر، فقال لنا أنه لا توجد مشكلة. فهنالك بين منزله ومنزل بابكر "نفاج" (والنفاج تسمية سودانية لفتحة صغيرة يفتحها الجيران بين منازلهم بغرض التواصل اليومي السريع واهداء بعضهم البعض مما يطبخونه، وأرجو أن تكون مثل هذه الأشياء لا زالت موجودة في حياة السودانيين وطبائعهم الدافئة ..)، وأذكر أن زوجته كانت منهمكة في تنظيف وخراطة ملوخية خضراء، وأضاف بسطاوي مقترحاً أن ترسل له الرسالة داخل حلة (اناء) ملوخية غير مطبوخة يحملها لهم ابنه سامي (الدكتور فيما بعد)، فكتبت رسالة لبابكر تفيده أن يطمئن على أن الاضراب يسير بنجاح خاصة وأن الإذاعة ستتوقف بعد قليل وأن أيام اعتقاله ستكون قصيرة.. وفعلاً قام سامي بتوصيل الإناء بالرسالة التي فيه، ثم عدنا إلى منزل الكابلي الذي سأبقى فيه أياماً أخرى. وبالفعل توقفت الإذاعة عند منتصف النهار بالضبط، وبدأ الهدوء والاضراب يسريان في كل أرجاء العاصمة سوى بعض التظاهرات المتقطعة في الأحياء..

وفي يوم الاثنين أعلن الفريق عبود عن انعقاد المجلس المركزي (مؤسسته الوحيدة التي يلجأ إليها من باب إبراز الشعبية)، فقمنا بعقد اجتماع موسع وطارئ لمنظمات الاشتراكيين العرب وانعقد بداخلية بحر العرب، المجاورة لمبنى إدارة جامعة الخرطوم القديم، بحضور حوالي ٣٠ عضواً وقرر المجتمعون تنظيم مظاهرات شعبية، خطتها أن تبدأ التظاهرة كبيرة وعندما تحضر

الشرطة تتفرق إلى مجموعات صغيرة في الأزقة الجانبية، ثم تلتحم مرة أخرى لتعود كبيرة في أقرب نقطة ممكنة بعد تشتيت القوة الأمنية وبغرض ارهاقها .. خرجنا بالفعل وكان الاستعداد واسعاً وسط الجماهير. فاستجابت بسرعة وكنا قيادة فعلية. وعندما وصلت قوات الشرطة قمنا بتنفيذ الخطة بدقة فوصل الارهاق بأفراد القوة لدرجة اضطر معها أغلبهم إلى خلع ملابسهم الرسمية ورفض الاستمرار في ملاحقة التظاهرة .. وبالفعل نجحت تلك التظاهرة والمظاهرات الأخرى في تحقيق غرضها من تعطيل انعقاد المجلس المركزي وتجديد حيوية الشارع الشعبي ..

(٨)

انتصار الثورة وحقيقة ليلة المتاريس :

بعد مظاهرات الاثنين التي أفشلت انعقاد المجلس المركزي عُدنا إلى منازلنا وعاد الهدوء إلى العاصمة .. وفي اليوم التالي انتابنا قلق شديد لأن الشهر أوشك على الانتهاء. ونهاية الشهر يعني أن العاملين سينضطرون للذهاب إلى مواقع أعمالهم لاستلام مرتباتهم الشهرية. وهذا قد يتسبب في اضعاف الاضراب .. فبدأ الضباط الاحرار داخل الجيش يتفاكرون حول الموقف، بينما بدأت الجبهة الوطنية للهيئات في الاتصال برجال الأحزاب للتشاور .. وجاء موقف تنظيم الضباط الأحرار بأنهم سيدعمون أي حلّ تتفق عليه جبهة الهيئات مع الأحزاب، وفي حالة عدم الاتفاق أنهم سيضطرون لحسم الأمر بانقلاب عسكري ضد النظام وبالفعل شعر الضباط الاحرار في لحظة معينة أن المفاوضات متعثرة بين الهيئات والنقابات. فقرروا اللجوء إلى خيار الانقلاب. وأرسلت قيادتهم العميد محمد عبد الحليم، عضو التنظيم إلى قيادة الأحزاب وجبهة الهيئات، بشفرة خاصة تقول: "نرجو أن ترسلوا لنا ساندوتشات"، إلا أن محمد عبد الحليم، وخوفاً على نفسه، ذهب إلى عوض عبد الرحمن صغير عضو المجلس الاستشاري بدلاً من الجبهة المحددّة، أبلغه أن الضباط الأحرار سيقومون بحركة انقلابية! غير أن عوض صغيرون كان شجاعاً وأميناً مع نفسه. فقد قيل أنه زجر عبد الحليم وقال له: (انك جبان وخائن لزملائك الذين وثقوا فيك.وإذا كررت حديثك هذا مرة أخرى فلن أتردد في اطلاق الرصاص عليك

... وفي وقت واحد في اليوم التالي، ودون اتفاق، حدث التقاء بين الارادتين، ارادة تنظيم الضباط الأحرار وإرادة الجبهة الوطنية للهيئات، على محاصرة النظام وحسم الأمر مع اختلاف في التفاصيل .. فقد قام الضباط الأحرار بقيادة محمد الباقر أحمد وجعفر نميري بتحريك القوات المسلحة وتطويق مباني القيادة العامة والقصر الجمهوري، مطالبين بحلّ المجلس العسكري الأعلى الحاكم وإجباره على الاستقالة وأن يستمر الفريق إبراهيم عبود رئيساً للبلاد إلى حين إجراء انتخابات عامة .. هذا في الوقت الذي انتهى فيه اجتماع قيادة الجبهة الوطنية للهيئات بالاتفاق على القرار الشعار الشهير : "الحصار للقصر حتى النصر" .. وأذكر أنني كنت مع الأساتذة : سليم عيسى وسعيد حمور المحاميان، عندما طلب مني مولانا بابكر أن اتفرغ "منذ اللحظة" لمسألة تحريض الجماهير من كل أنحاء العاصمة المثلثة وحشدها حول هذا القرار الشعار لنبدأ تنفيذه فوراً. فأخذت أطوف في المقاهي والأسواق ومختلف مناطق التجمعات الشعبية بالخرطوم بحري وأخطب في الناس. وكانوا في بادئ الأمر يتركونني أتحدث وينفضون من حولي إلى أن وصلت إلى السينما الوطنية. وبعد أن بدأت حديثي مع الجمهور جاءت سيارة عسكرية يقودها ضابط اعتقد أنني خواجة (اوربي) وأن الجمهور الذي حولي يود الاعتداء عليّ فأمرهم بالانصراف وطلب مني أيضاً أن أذهب إلى حال سبيلي. فحمدت الله أنه لم يفهم ما كنت أقوم به وعدت إلى الخرطوم متوجهاً إلى القصر. وعندما اقتربت منه وجدت عدداً من رجال الشرطة يصيحون في اتجاهي ويشيرون لساحة ميدان القصر. وعندما

تلفت رأيت في الميدان آثار معارك عنيفة : أحذية وعمائم متناثرة في الميدان مع عدد من الجرحى، ووجدت المرحوم الأستاذ الرشيد الطاهر المحامي (الوزير ونائب رئيس جمهورية في عهد نميري) فاشتركت معه في نقل الجرحى إلى مستشفى الخرطوم بسيارة الأخ المذيع المعروف المرحوم أحمد قباني، التي كانت معي في تلك الأيام ..

إذن لم أحضر لحظات الاتفاق الذي تمّ بأن يستقيل المجلس العسكري الأعلى الحاكم وتكوين حكومة من جبهة الهيئات، على أن يبقى الفريق إبراهيم عبود رئيساً للبلاد. وهو المطلب الذي طرحه تنظيم الضباط الأحرار ومارسوا ضغوطهم من أجله .. ولكن عندما أذيع ذلك الاتفاق في شكل قرارات في وقت لاحق اندفعت جماهير العاصمة كلها تقريباً إلى الشوارع في مظاهرات تأييد هادرة واحتشدت حول القصر ووقف الفريق عبود على شرفات القصر ملوحاً بيديه للجماهير، وبدأ بعض عناصر الأمن (جماعة أبارو) في تسريب شعارات للجماهير وبعض الجمهور - بحكم الحماسة العالية والعواطف المتفجرة — يردّد وراءهم هتافات كانت تشيد بالفريق عبود وتطالب أن يترشح لمدني !! فقمت فوراً — ومعي جماعة كانوا حولي — باطلاق هتافات معادية من النوع الرائج في ذلك الوقت. كانت مجموعات من المتظاهرين قد ذهبت إلى سجن كوبر واقتحمته لتحرير المعتقلين السياسيين. وكان الأستاذ أحمد سليمان المحامي معهم، كسجين بعد أن حكم عليه القاضي "الأمين تاتاي" بالسجن لمدة ٣ أشهر، لأنه احتد معه في النقاش أثناء إحدى جلسات محاكمة قضية أوكار

لحزب الشيوعي التي كان الأمن قد عثر عليها وقدم عناصرها للمحاكمة وكان أحمد سليمان في هيئة الدفاع عنهم. وعندما اطلقت الجماهير سراحة مع المعتقلين جاء أحمد سليمان مباشرة إلى القصر ليلتحق بالمظاهرة. وبمجرد أن رأيته بادرت بحمله – ومعي آخرين – على الأعناق ونحن نهتف بحياته كمناضل وطني. ولا زال أحمد سليمان يقول لي كلما يلقاني "انك جعلتني وزيراً بالجماهيرية التي صنعتها لي في تلك التظاهرة، لأن الحزب الشيوعي لم يكن سيختارني ممثلاً له في حكومة اكتوبر، والحقيقة كنت معجباً به جداً في تواضعه وروحه السودانية الأصلية.. وجئنا بعد ذلك لاجتماع الجبهة الوطنية للهيئات لتشكيل الحكومة، وكان الاتفاق الأول أن يتولى بابكر عوض الله رئاستها إلا أنه اعتذر بحجة أنه يريد التفرغ لمهنته في الهيئة القضائية لصيانة استقلالها ولانجاز مسائل أخرى، وعليه ساد جدل طويل داخل الاجتماع. وعندما امتد النقاش وأصبح المجتمعون حائرين يدورون في حلقة مفرغة، اقترح المرحوم مبارك زروق المحامي، والوزير عن الحزب الوطني الاتحادي فيما بعد، اقترح عليهم اسم السيد سر الختم الخليفة كرئيس للحكومة معللاً ذلك بأن الجنوبيين يثقون فيه بحكم عمله الطويل في المديريات الجنوبية في مجال إدارة التعليم وصلاته الواسعة بهم .. والأطرف في الأمر أن سر الختم الخليفة كان داخل منزله. وعندما استدعوه حضر بملابسه المنزلية اعتقاداً منه أن الشرطة هي التي تريده للقبض عليه ! وبالفعل تم تنصيبه رئيساً لحكومة ثورة أكتوبر عن الجبهة الوطنية للهيئات !! وفي اختيار الوزراء استطاع الشيوعيون

من خلال اعضائهم وانصارهم داخل الجبهة أن يفرضوا عدداً كبيراً من الوزراء : "شيخ الأمين" وزيراً للزراعة و "الشفيع أحمد الشيخ" وزيراً للعمل وآخرين، ثم أحمد سليمان ممثلاً عن الحزب الشيوعي .. واختار حزب الأمة المرحوم محمد أحمد محجوب ممثلاً له، ومبارك زروق عن الحزب الوطني الاتحادي، ود. أحمد السيد حمد عن حزب الشعب الديمقراطي، وكلمنت امبورو وأزبوني منديري عن الأحزاب الجنوبية، والمرحوم محمد صالح عمر عن الأخوان المسلمين .. الخ.

بدأ الناس يعودون إلى أعمالهم مبتهجين بالانتصار وعودة الديمقراطية، وعاودت الأحزاب نشاطها العلني ومعها عادت ممارساتها السلبية القديمة في الظهور بما يواكبها من مزايدات ومهاترات في الصحف ومنابر الليالي السياسية والخطب الجماهيرية الفارغة. وظلت جبهة الهيئات منتظمة في اجتماعاتها والتي كنت أحضرها وأساهم في أعمالها ومناقشاتها دون أن أكون ممثلاً لجبهة معينة، وإنما تقديراً للنشاط والأدوار التي قمت بها. وكذا الحال كان بالنسبة لبعض الأخوة..

أما "ليلة المتاريس" الشهيرة فقد كانت ليلة ٩ – ١٠ نوفمبر ١٩٦٤م .. ففي صباح يوم ٩ نوفمبر كان المفترض أن تعقد جبهة الهيئات اجتماعها بجامعة الخرطوم. فذهبت في الموعد إلى نادي الأساتذة. فأخبروني أن الاجتماع مؤجل للمساء. وعدت مرة أخرى في الموعد المسائي و لم أجد إلا عدداً محدوداً من الأساتذة وبعض الأخوة من بينهم صديقي وزميلي أنور أدهم والأخ المرحوم موسى المبارك. انتظرت مع أنور إلى ما بعد وقت العشاء دون أن يحضر

أحد. فطلب مني أنور أن أقوم بتوصيله إلى مترله، إذ لم تكن لديه سيارة ومترله بعيد في نهاية أمدرمان على الطريق المؤدي إلى وادي سيدنا .. وفي طريق عودتي وأنا في غاية الإرهاق والنعاس بعد توصيله، وأمام الفندق الكبير بالضبط، قطعت إذاعة أمدرمان إرسالها فجأة وبدأت في بث اعلان بصوت الأخ فاروق أبو عيسي قال فيه أن هنالك انقلاب عسكري مناشداً الجماهير أن تخرج لحماية الثورة وحكومتها .. استفقت تماماً، وحسب اعلان فاروق كان قراري الفوري أن أذهب إلى دور السينما وتحريض الجماهير. فتوجهت أولاً لسينما كلوزيوم بشارع القصر والتقيت بالأخ حسون (مدير سينما كلوزيوم آنذاك) وشرحت له الموقف ذاكراً له أنني مندوب عن الجبهة وطالباً منه أن يسمح لي بمخاطبة الجمهور داخل السينما بالمايكرفون الخاص بالدار. فسمح لي الرجل وأعطاني المايكرفون المتنقل. وبعد أن وقفت في منتصف الصالة بين القاعة الشعبية وبقية الدرجات، أوقف العرض. فخاطبت الجمهور الذي خرج جميعه منطلقاً نحو رئاسة مجلس الوزراء الكائن آنذاك في شارع النيل .. ثم ذهبت إلى الخرطوم بحري وقمت بنفس المهمة في سينما الخواجة (الوطنية) وأيضاً تدفقت الجماهير إلى الشوارع .. وفي طريق عودتي من الخرطوم بحري إلى الخرطوم أوقفت سيارتي في منتصف الجسر (كوبري النيل الأزرق) وأفرغت إطاراتها الأربعة من الهواء. وبذلك أصبح الجسر مغلقاً أمام السيارات والمركبات. وواصلت السير على أقدامي إلى نادي أساتذة جامعة الخرطوم القريب من هناك .. في النادي وجدت جموعاً من المهنيين والنقابيين تتقاطر عليه. ومن أعضاء

قيادة الجبهة وجدت الأخوة محمد الحسن البدوي المحامي والمرحوم علي أحمد إبراهيم المحامي وبدوي الحارث وعدداً ليس بالكثير من اليساريين، بينما كان الأخوان المسلمون كثيرين وفي حالة هياج وثورة زاعمين أن هنالك مؤامرة يدبرها الشيوعيون ومندوبهم فاروق أبو عيسى من وراء إذاعة هذا البيان، وأنهم سيشنقون فاروق. وبالفعل ربطوا عدداً من عمائم رؤوسهم ببعضها استعداداً لشنق فاروق أبو عيسي !!، وكان الرأي أن يأتي أحد المسئولين إلى النادي ليروي ما حدث بالضبط وما هو الموقف؟ فاستقر الأمر على أن نذهب أنا وبدوي الحارث لاستجلاء الموقف واحضار بعض المسئولين، فاستعرنا سيارة أحد الأخوة وخرجنا بها قاصدين مجلس الوزراء. وفوجئنا بأمواج هادرة من البشر تسدّ الطرقات بالمتاريس المختلفة. ووجدنا بعض الأشجار قد تمّ اقتلاعها من جذورها. فكنا نضطر للتوقف عند كل حشد ونعلن للناس أننا فلان وفلان مندوبون عن جبهة الهيئات. فيسمحون لنا بالمرور إلى أن وصلنا مجلس الوزراء ووجدنا بابكر عوض الله وعبد المجيد إمام. وطلبت منهما أن يذهبا إلى نادي الأساتذة جامعة الخرطوم .. في طريقنا وجدنا أحمد سليمان المحامي، وهو يترنح بين مبنى القضائية ومصلحة الري المصري : " يا أبو سلومون تعال معنا. كذا وكذا .." قال "لا مانع لكن خذوني أولاً إلى منزلي فأنا في حاجة لحمام (دوش)" فأخذناه إلى منزله جوار مدرسة الأقباط بناب بالخرطوم. ودخل منزله ونحن في انتظاره بالسيارة. وبعد انتظار طويل اكتشفنا أنه وقع نائماً. فتركناه وعدنا عن طريق الطابية، حيث سمعنا من راديو السيارة بيان المرحوم الأستاذ

خلف الله بابكر، وزير أعلام حكومة أكتوبر، الذي أعلن فيه عدم وجود أي انقلاب وأن المعلومات كانت خاطئة ثم ناشد الجماهير بالهدوء والتفرق .. وفي النادي كان الجدل محتدماً بين الجميع حول بيان الأستاذ خلف الله .. قررنا أن نعود مرة أخرى إلى مجلس الوزراء. فصعد معي بابكر عوض الله في المعقد الأمامي من السيارة، بينما صعد كل من فاروق أبو عيسي وحسن الترابي في المعقد الخلفي، وكانا يتناقشان بحدّة وعصبية. وبعد قليل، في منتصف الطريق نحو المجلس، احتد النقاش بينهما أكثر. وفجأة هجم أبو عيسي على الترابي وأمسك برقبته وبدأ يخنقه بشكل خطير. فأوقفت السيارة واستطعنا بصعوبة أن نحرر رقبة الترابي من قبضة أبو عيسي. وواصلنا السير. وظلّ الناس كلهم بعد ذلك يتنقلون من هنا إلى هناك حتى وقت قريب من الفجر، وتأكدنا بعد ذلك أن كل تلك الضجة كان مصدرها أن عسكرياً شيوعياً يعمل في سلاح الإشارة .. وكان يقود هذا السلاح الامير الاي عثمان نصر عثمان (شقيق محمد نصر عثمان عضو المجلس العسكري الأعلى المنحل) جاء ذلك الجندي مساءً إلى مطعم مطار الخرطوم، حيث اعتادت مجموعة من المحامين والوزراء اليساريين والشيوعيين تناول العشاء والشرب هناك، وكان به في تلك اللحظة مجموعة من بينهم أحمد سليمان – عبد الكريم ميرغني – فاروق أبو عيسي. وأبلغ أحمد سليمان أن الامير الاي عثمان نصر" قد جمع الجنود وخاطبهم مهاجماً ومسيئاً للثورة. ويبدو أنه يقوم بتهيئة الجنود لانقلاب عسكري مضاد للثورة !!" فاستقبل القوم الأمر بتضخيم شديد وحسبوه تحركاً انقلابيناً يستهدف الثورة.

هكذا كان قول أبو عيسى .. وحدث ما حدث ولكن، رغم كل شيء، كشف الحدث استعداد جماهير العاصمة العالي لحماية ثورتها ومقاومة أي محاولة انقلابية معادية، وكشف أيضاً حجم التأييد الشعبي الذي تحظى به الجبهة الوطنية للهيئات. ولكن الجبهة لم تكن قادرة على استثمار هذا التأييد الواسع. وكانت أهم أسباب ذلك تتمثل في الصراعات الذاتية وسط أطرافها ومناورات الأحزاب التقليدية. فقد كان الموضوع النرئيسى يدور حول الانتخابات العامة .. هل تتم في موعدها المحدد أم تستمر حكومة الجبهة — جبهة الهيئات — إلى أن تتمكن الأحزاب من التقاط أنفاسها وترتيب أوضاعها وصياغة برامجها؟ ولكن الأحزاب التقليدية لم يكن همها هو صياغة برامج لها أو وضع خطط لتنمية البلاد والإرتقاء بحياة الشعب، وإنما الحكم وما يرافقه من جاه ومنافع. ولذلك قادت صراعها في اتجاهين : الضغط على الحكومة في اتجاه إجراء الانتخابات العامة بعجلة ولهفة، ومن جانب آخر بدأت تقاتل داخل النقابات من أجل السيطرة عليها وبالتالي على جبهة الهيئات لتمرير ما تريده في حالة عدم نجاحها في الضغط على حكومتها مباشرة .. كان منصب النقيب في نقابة المحامين قد خلا باختيار نقيبها الأستاذ عابدين إسماعيل وزيراً للحكومات المحلية في حكومة أكتوبر الانتقالية، فبرزت كتلتان في الصراع حول المنصب، الاولى هي جبهة المحامين الديمقراطيين التي كانت تضمنا نحن الاشتراكيين العرب مع الشيوعيين والديمقراطيين المستقلين، والثانية كانت تضم الأحزاب التقليدية وكذلك الأخوان المسلمين. هذه الأخيرة رشحت الأستاذ أحمد جمعة لمنصب

النقيب، وأراد الشيوعيون ترشيح الأستاذ على أحمد إبراهيم الذي لم يكن ملتزماً ببعض الجوانب الهامة في عمله المهني. وعندما طرح الشيوعيون اسمه في اجتماع المحامين الديمقراطيين، كنت مضطراً للاعتراض على ترشيحه قائلاً لهم أنه في حالة إصرارهم عليه فإنني لن أتردّد في الاجتماع العام في الدعوة علناً لعدم التصويت له وسأذكر كل الأسباب. فتراجعوا عنه مقترحين مناضلاً حقيقياً هو الرجل الفاضل الأستاذ الرشيد نايل. فوافقنا عليه.. وفي الاجتماع العام كان واضحاً أن الحشد والأعداد عند الأحزاب التقليدية كان أعلى من جبهتنا نحن المحامين الديمقراطيين، رغم أننا أوفر عدداً منهم، إضافة إلى أن الأستاذ الرشيد نايل لم يكن معروفاً لدى أغلبية المحامين الشباب، بحكم طبيعة شخصيته الهادئة والصامتة .. وعند بدء الاجتماع بدأت الأصوات تتعالى دون أن يستمع أحد للآخر، وأعتقد الشيوعيون أن الجبهة الأخرى أغلبية فانسحبوا من الاجتماع وتركونا وحدنا نواجه معركة وصلت درجة الاشتباك بالأيدي والكراسي، التي بدأها مؤيد الأخوان المسلمين الأستاذ محمد بشير (من مكتب قرنفلي) وفعلاً فاز مرشحهم أحمد جمعة بأغلبية ضئيلة، فوقفت في مواجهة أحمد جمعة قائلاً له أننا لا نعترف به نقيباً. إذ لو لم ينسحب الشيوعيون وأنصارهم بسبب التهريج والإرهاب الذي مارسوه لما فاز في التصويت، وأعلنت بدء حملة لجمع التوقيعات لسحب الثقة منه لتلك الأسباب .. وفعلاً أعددنا عريضة بهذا المعنى داعين لاجتماع عاجل آخر. وبدأنا جمع التوقيعات عليها في الوقت الذي كان أحمد جمعة في طريقه إلى بغداد لحضور اجتماعات

المكتب الدائم لاتحاد المحامين العرب .. اكتملت التوقيعات المطلوبة لحجب الثقة بسرعة. فأرسلت برقية للمكتب الدائم مع صورة من تلك التوقيعات والعريضة معلناً لهم أن أحمد جمعة لا يمثل نقابة المحامين السودانيين مما أحرجه كثيراً .. وعندما عاد من بغداد اضطروا لعقد اجتماع استثنائي، واتفقنا نحن في الجبهة الديمقراطية للمحامين على تغيير مرشحنا لمنصب النقيب واتفقنا على الأستاذ أمين الشبلي الذي فاز فوزاً كبيراً، ودخلت معه في دورته تلك في عضوية مجلس النقابة لأول مرة .. والأستاذ أمين الشبلي – رغم نجاح الشيوعيين لاحقاً في احتوائه بواسطة فاروق أبو عيسى – إلا أنه من أنصار وحدة وادي النيل والوحدة العربية. وكان من أنصار حزب الوفد أثناء دراسته في القاهرة ومعه الأستاذ أحمد فضل المحامي. وبالتالي كان أقرب للحزب للوطني الاتحادي في السودان ..

(٩)

في حزب الشعب ولجنة التطهير:-

عندما عاد الأخ الزميل أنور أدهم من الجنوب الذي كان قد انتقل للعمل فيه كمحام، اتصل بي وذكر أنهم في الجنوب على صلة بثوار الكونغو (السيمبا) وقائدهم "سوماليوت"، وأن هؤلاء الثوار يحتاجون مساعدة الجبهة الوطنية للهيئات في كفاحهم ضد موبوتو .. وفي أول اجتماع لجبهة الهيئات ذكرت لهم ذلك، فثار حماس الجميع للأمر .. ذهبت إلى جوبا مرة مع أنور أدهم والأخ أمين عكاشة (التاجر بالجنوب وأحد قيادات الاتحادي الديمقراطي هناك) وذلك بالطائرة التي تحمل السلاح لثوار الكونغو من الخرطوم (كان السلاح يأتي للثوار بطائرات جزائرية أكبر من أن تهبط في مطار جوبا، فكانت تهبط في مطار الخرطوم ومنها بطائرات صغيرة إلى جوبا) وكان المفترض أن ذلك السلاح يتم نقله من جوبا براً إلى الكنغو .. وفي جوبا التقيت بمولانا مأمون محمد السيد، القاضي المقيم هناك، وعدد من الأخوة من الشرطة والجيش، من بينهم الأخ الطيار الحربي سعيد كسباوي، الذي كان مستشاراً عسكرياً لسوماليوت قائد الثوار وقمنا بتسليمهم كميات السلاح التي جاءت معنا. وتعرفت أيضاً على بعض قادة تلك الحركة من بينهم "كاسنجا" وزير الخارجية و"توني" وزير الإعلام، الذي نهب أموال الثوار فيما بعد واستقر في سويسرا !! وللأسف اكتشفت لاحقاً أننا كنا نساهم في تغذية الحرب الأهلية في جنوب السودان، لأن تلك الأسلحة لم تكن تذهب إلى الكنغو كما كنا

نعتقد، وإنما لأيدي رجال حرب العصابات من أبناء جنوبنا الحبيب .. ذلك أن مندوبي الثوار كانوا يبيعونها في جنوب السودان مقابل المريسة (قطعة سلاح مقابل كنتوش مريسة) .. وبعد عودتنا إلى الخرطوم من جوبا طلبوا مني (أمين عكاشة وآخرون) أن أذهب إلى سوريا موفداً من الجبهة لجلب مساعدات غذائية وطبية من سوريا لثوار الكنغو، وبالفعل سافرت ونجحت في المهمة. وكانت أول زيارة لي لسوريا، التقيت خلالها بالأستاذين المرحوم ميشيل عفلق والشهيد صلاح البيطار ومدير مكتب القيادة القومية، الرجل اللطيف الأستاذ جاسم فخرو (من البحرين) وصديقي العزيز الشهيد محمد سليمان الخليفة، الذي شرح لي تعقيدات الصراع وسط حزب البعث العربي الاشتراكي بعد وصوله للسلطة بانقلاب ٨ مارس ١٩٦٣ في سوريا بين الحزب المدني والعسكريين ومشكلة اللواء محمد عمران، والتي كشف أسرارها بعد ذلك الرئيس أمين الحافظ، كذلك التقيت بعضو القيادة القومية آنذاك حافظ الأسد (الرئيس لاحقاً بعد انقلابه على زملائه في أكتوبر ١٩٧٠م) وعندما شرحت له ما حدث في السودان من ثورة شعبية وعودة الجيش إلى ثكناته ليقوم بدوره الوطني المحدد .. الخ قال لي أن كل ذلك "كلام فارغ" وأن الذي لا يسيطر على الجيش ويقوده لن يستطيع حكم بلد. وهذا الكلام يعكس صراعات تلك الفترة في سوريا.

في دمشق سمعت من الإذاعات وقوع أحداث جديدة في الخرطوم وأن صدامات عنيفة وقعت بين الجنوبيين والشماليين في العاصمة، أثناء عودة

السيد كلمنت أمبورو، وزير الداخلية، بعد زيارة للمديريات الجنوبية. عدت بسرعة إلى الخرطوم وعرفت أن السبب كان خروج الآلاف من أبناء الجنوب في العاصمة لاستقبال كلمنت امبورو في المطار، وعندما تأخرت الطائرة عن موعدها سرت اشاعة وسطهم بأنها أسقطت ضمن مؤامرة لاغتيال كلمنت. فكان الانفعال والاحتكاك ثم الاصطدام الذي ترك أعداداً من القتلى والجرحى من الجانبين وعرف ذلك اليوم باسم "الأحد الدامي." فأيقنت أن جبهة ثورة أكتوبر قد بدأت في التفتت وأن الأحزاب التقليدية لا محالة ستفرض إرادتها على حكومة جبهة الهيئات ..

بعد العودة من دمشق وجدت حزب الشعب الديمقراطي مشغولاً بإعادة تنظيم صفوفه وباحثاً عن عناصر لعبت دوراً في ثورة أكتوبر ولها تأثير جماهيري لضمها إلى عضويته بعد أن ضعف موقفه بدخول بعض رموزه الهامة في المجلس المركزي، الذي أنشأه نظام عبود العسكري، مثل المرحوم يحي الفضلي .. وفي هذا الإطار اتصل بي أستاذي المرحوم الفاتح عبود المحامي. وعندما اعتذرت له بحجة أنني انتمي لتنظيم الاشتراكيين العرب وحزب البعث، بل وفي قيادته أصرّ على طلبه وقال لي "أن حزب الشعب أيضاً حزب قومي وله مواقفه ووثائقه في ذلك وسنقبل اعتذارك إذا وجدته أقل قومية من حزبكم". وبالفعل كان ميثاقهم عبارة عن تلخيص لأفكار الزعيم الخالد عبد الناصر وحزب البعث .. وقام بترتيب لقاء بيني وبين الشيخ على عبد الرحمن، الذي أكد لي بأنهم لا يمانعون في استمراري في تنظيمي إذا انضممت إلى

حزبهم، قائلاً لي :"أن حزبنا أقرب للجبهة من الحزب الضيق ويمكنك أن تدعو لأفكارك وتبشر بها ولن يتعارض ذلك مع عملك معنا". وبمناقشة الأمر مع زملائي في قيادة منظمات الاشتراكيين العرب وحزب البعث اتفقنا بأن أنضم أنا لحزب الشعب والأخوة سعيد حمور وبدر الدين مدثر للوطني الاتحادي، الذين التقيا فعلاً بالزعيم الراحل إسماعيل الأزهري رئيس الحزب، ولكنهما لم يذهبا كثيراً في الأمر .. وكانت الفكرة أن نعمل من داخل حزبي الوسط السوداني على تطوير مواقفهما، بالإضافة إلى اكتساب خبرة ومعرفة بواقع السياسة السودانية.

التحقت بحزب الشعب الديمقراطي وتم تعييني في مكتبه السياسي مسئولاً عن المواكب والليالي السياسية والندوات، ومعي أيضاً من الاشتراكيين العرب الكاتب المعروف الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد وبعض المحامين من الناصريين والمستقلين، أذكر منهم : عبد المجيد وصفي – عبد الوهاب الخضر – صديق عبد الحليم – وعبد الله النجيب، وهو محامي قبطي، وفي عهد الانقاذ هاجر إلى استراليا، وضابط الشرطة السابق عبد النور خليل، إضافة إلى الأعضاء الأصيلين من المؤسسين مثل الدكتور أحمد السيد حمد، محمد زيادة حمور، حماد توفيق، محمد أحمد عبد القادر (والد زين العابدين) وعوض أبوزيد (والد الرائد مأمون) والعم إبراهيم إمام، وكنا معارضين بقوة لمسألة إعادة الذين دخلوا المجلس المركزي في عهد عبود وخاصة المرحوم يحي الفضلي، وكانت الاجتماعات تعقد في جنينة السيد على في مكاتب الدائرة أو في الغرفة التي تقع

في منتصف المترل والتي كان السيد علي يستقبل فيها ضيوفه.. وفي تلك الفترة استطعنا أن نعقد مؤتمراً عاماً للحزب .. وقبل أن استرسل ، ومن خلال تلك التجربة، أستطيع إقرار حقيقة هامة تناقض ما يعتقده الكثيرون، وهي أنه، وبالرغم من أن طائفة الختمية هي التي أسست الحزب إلا أنها لم تتدخل ولو مرة واحدة في شئونه لا هي ولا راعيها السيد على الميرغني رحمه الله، بل كان السيد على يقبل أي قرار يصدر عن الحزب بشكل ديمقراطي وكان صوت أي منا نحن الشباب الجدد في الحزب يساوي صوت الشيخ على عبد الرحمن رئيس الحزب وصوت محمد عثمان الميرغني، ابن السيد علي، الذي كان يحضر، هو وشقيقه أحمد الميرغني، اجتماعات المكتب السياسي من حين لآخر .. كان حزب الشعب حزباً ليبرالياً بحق، وكثيراً ما كنا نختلف مع شيخ على ونحتد معه في النقاش، فيقبل رأينا طالما كنا أغلبية إلا في حالة عودة المرحوم يحي الفضلي للحزب والتي لم تكن بقرار واضح لنا من شيخ علي، ولتلك العودة قصة : ففي أحد اجتماعات المكتب السياسي فوجئنا بالعم يحي في إحدى زوايا غرفة الاجتماع ومعه السيد محمد عثمان الميرغني والشيخ أورتشى. وعندما همّ الشيخ علي بافتتاح الاجتماع سألته: كيف نبدأ وهنالك بعض الحاضرين من غير أعضاء المكتب؟! فقال شيخ علي : "يا خي عمك يحي أضانو تقيلة (أي لا يسمع جيداً، فيه صمم) ولا يستطيع سماعنا من بُعد وفي كل الأحوال هو ضيف السيد محمد عثمان وهذا مترلهم ولا نستطيع أن نطلب منه الانصراف ..". فسكتنا على الأمر إلى أن انتهى الاجتماع .. وبعد أن خرجنا من الغرفة

ثار في وجه الشيخ على كل من الأخوة عبد الوهاب الخضر وعبد الغُني (النقابي العمالي الموجود في القاهرة حالياً على ما أعتقد) وصالح مكوار، ثاروا على الشيخ في سماحه لمثل هذا الأمر. وقام الشيخ بتهدئتهم ووعد أن ذلك لن يتكرر ولكنه تكرر وبنفس المبررات مرة ثم مرة، وفي واحدة منها فوجئنا بالعم يحي، الذي يجلس بعيداً ويقال أنه أطرش، يعلق على كل مسألة تطرح للنقاش ويُبدي رأيه فيها !! وشيئاً فشيئاً، وعلى مدى عدد من الاجتماعات، زحف عمّ يحي وتوسط طاولة الاجتماع وأصبح المتحدث الأول والمنظر والاستراتيجي! فهو حقيقة رجل داهية ودينمو (كما كانوا يصفونه في الأربعينات والخمسينات) ولا يترك لك مجالاً للاختلاف معه، فتقرّب بشدّة من الذين عارضوا وجوده، بل وصل الأمر به أن دعاني مرة وقال لي أنه في قناعاته الحقيقية بعثي ويريد تتويج ذلك بالانتماء الرسمي لحزب البعث وأنه يريد مقابلة القيادة، وكرّر ذلك كثيراً، فكنت أردّ عليه بما يطيب خاطره واختتم الرد بأن أطلب منه أن يترك هذا الأمر للشباب "الذي سيتابع طريقكم الذي بدأتموه في دروب القومية العربية .."الخ.

في تلك الفترة تم تعييني في لجنة التطهير وهي لجنة إدارية تابعة للّجنة الوزارية للتطهير، التي كانت تضم الوزراء : أحمد سليمان عن الحزب الشيوعي – محمد صالح عمر عن الأخوان المسلمين – د. أحمد السيد حمد عن حزب الشعب الديمقراطي – أزبوني منديري عن الجنوب وخامس لا أذكره الآن .. ولجنتنا كانت تضم إلى جانبي الأخوة : القاضي الطيب عباس الجيلي – القاضي

زكي عبد الرحمن .. أمين عبد المقصود من مشروع الجزيرة – يوسف نصرون – قمندان الشرطة قسم الخالق إبراهيم، الذي كان مسئولا في اللجنة عن تنفيذ القبض والتقديم للتحقيق .. قمنا بتقسيم العمل داخل اللجنة وتوزيع الاختصاصات .. أذكر بالنسبة للتطهير في جهاز الشرطة، وصلتنا قائمة بالأسماء وأسباب طلب التطهير، وكانت من بين القضايا التي نظرت فيها قضية القمندان عثمان زين وضابط اسمه عيسى، والتهمة المنسوبة لهما هي أنهما كانا في مدينة الأبيض عاصمة مديرية كردفان بغرب السودان وعندما صدر قرار بنقل القمندان عثمان زين قام الضابط عيسى بجمع تبرعات من العاملين في شرطة المديرية لإقامة حفل وداع للقمندان إلا أنه لم ينفذ الحفل، وتم عقد مجلس تأديب لهما وكانت النتيجة تبرئة عثمان زين وإدانة عيسى ومعاقبته .. وفيما بعد توفي عيسى .. كان تعليقي على الأمر أن عثمان زين قد خضع لتحقيق وظهرت براءته ولا تجوز محاكمة الشخص مرتين في نفس القضية، وأن عيسى قد توفي وعليه لا توجد قضية وقمت بإعادة ملف القضية لوزارة الداخلية .. هذه النتيجة لم تعجب المسئولين في الداخلية، بل أزعجهم للغاية. فقاموا بسحب كافة القضايا الخاصة بالشرطة من لجنة التطهير بدعوى أنهم سينظرون فيها بمكتب وزير الداخلية. وبالفعل أصدروا قرارات الفصل لعدد من رجال الشرطة بصورة كيفية وكان من بينهم الخال المرحوم الزين أحمد بدوي، الذي اعتقد أنني مشارك في ظلمه وقاطعني لفترة طويلة دون أن أفهم السبب،

إلى أن عاتبته في إحدى المناسبات فروى لي السبب فشرحت له حقيقة ما حدث.

ومن جانب آخر تم أيضاً توجيه الاتهام لخالنا المرحوم "على حمو" الذي كان مديراً لمصلحة المرطبات، اتهموه بأنه كان يستغل منصبه ويرسل الطعام للفريق عبود وأعضاء المجلس العسكري بدون ثمن، واتضح أن الأمر غير ذلك، فاتهموه بأنه استغل علاقة القرابة والصداقة مع الفريق عبود، وحاز على قطعتين من الأراضي السكنية بامتداد الدرجة الثالثة بالخرطوم بدلاً عن واحدة .. وأود أن أذكر هنا أن كثيراً من الناس والأحزاب كانوا يروجون أن أحمد سليمان المحامي وراء كافة الإجراءات المتعسفة التي صدرت عن لجنة التطهير، بينما الحقيقة هي أن المرحوم محمد صالح عمر هو الذي كان مصدر التطرف والظلم. وفي هذه القضية كان متمسكاً بقرار مصادرة قطعة الأرض الثانية من "علي حمو" دون أن يسمع وجهة النظر الأخرى إلى أن اتضحت الحقيقة بأن القطعة الثانية كانت تخص عائلة شقيقه المرحوم حسن حمو وأنها كانت مستوفية كافة الشروط والإجراءات القانونية وأن علاقة على حمو بالأمر هي علاقة الإشراف، بحكم أنه ولي أمر هؤلاء الأيتام ووالدتهم ..

ومن القضايا التي نظرتها في لجنة التطهير أيضاً قضية الصحفيين. فقد ظهر من خلال مراجعة وثائق وزارة الإعلام أن عدداً من الصحفيين قد استلموا مبالغ ضخمة (بمقاييس ذلك الوقت) من الوزارة، وذلك مقابل التطبيل للنظام، وكان من بين المتهمين الأساتذة : عبد الرحمن مختار، صاحب ورئيس تحرير

جريدة الصحافة .. رحمى محمد سليمان – المرحوم صالح عرابي – وآخر لا أتذكره بالضبط، كل منهم استلم ١٠ ألف جنيه.. وصحفيين آخرين كانوا يتقاضون مبلغاً شهرياً ثابتاً من وكيل وزارة الداخلية في عهد عبود، السيد حسن على عبد الله، أتذكر منهم الأستاذ : إبراهيم عبد القيوم والمرحوم حسين عثمان منصور، الذي كان يستلم بملغ ٢٥٠ جنيه في الشهر وكان تبريره لذلك أنه كان مكلفاً بإعداد كتاب عن جنوب السودان ودور حركة التبشير فيه .. كذلك رفع لنا المرحوم بابكر كرار قضية ضد عبد الرحمن مختار (جريدة الصحافة) مدعومة بوثائق من البنك الأثيوبي تكشف أن عبد الرحمن قد استلم مساعدات خارجية خاصة من اثيوبيا لتأسيس "دار الصحافة"، وقضية أخرى ضد الأستاذ المرحوم بشير محمد سعيد (جريدة الأيام) .. قمنا باستدعاء عدد من الصحفيين، من بينهم الأستاذ عبد الرحمن مختار، الذي كنت مكلفاً بالتحقيق معه، وكان موعدي معه مساءً، وقبل الموعد جاءت التوجيهات الوزارية أن تكون أسئلتنا عامة .. جاءني عبد الرحمن مختار وهو في حالة رعب، وفي الإجابة على الاتهامات قال أنه استلم تلك المبالغ تحت التهديد بالسلاح (مسدس) في مكتب وزير الإعلام اللواء طلعت فريد وبحضور وكيل الوزارة، المرحوم محمد عامر بشير فوراوي !!، وفي اليوم التالي فوجئت به ينشر مقالاً بعنوان : "أرادوا تطهيري فأفسدوا طهارتي" وشتمني في المقال شتائم مقذعة، غضبت للغاية وأبلغت أحمد سليمان رئيس اللجنة بأنني سأفتح بلاغاً ضده،

فطلب مني بشّدة ثم كأمر وزاري أن أترك الموضوع في الوقت الحالي فرضخت !!

أما بخصوص موضوع "الثراء الحرام" بالنسبة لأعضاء المجلس العسكري الأعلى الحاكم، فقد وصلتنا بيانات من المصارف بتفاصيل حساباتهم ووثائق بممتلكاتهم المسجلة. وللأمانة والتاريخ أقول الآتي : اللواء المرحوم محمد طلعت فريد كان قمة في النزاهة، كان مرتبه على ما أذكر ٢٢٠ جنيه تأتيه شهرياً في حسابه بالبنك، وعند نهاية الشهر يكون في الغالب مطلوباً حوالي ١٠ جنيهات وذلك طوال عهدهم في الحكم .. يجوز أن البعض قد استفاد من منصبه مثل شقيقه رضا فريد، وزير الزراعة، الذي يبدو أنه استغل آليات الوزارة وعمالها في أعمال خاصة .. كان هنالك اتهام للمرحوم اللواء المقبول الحاج الأمين بأنه شريك للمرحوم الصادق أبو عاقلة لأنه أرسى عليه عطاءات في مشروع الإسكان بخشم القربة وأنه شريك في العمارة المعروفة باسم (عمارة الصادق أبو عاقلة) المواجهة لمبنى البرلمان القديم بالخرطوم. وعند التحقيق وجدنا أن ثروة المقبول النقدية في المصارف هي ميراثه عن والده وأنه لا علاقة له بعمارة أبو عاقلة وأن كل الأمر هي علاقة صداقة قديمة بينهما هي أساس كل تلك الشائعات .. المهم أبدينا رأينا في تلك التحقيقات، رغم وجود نص الاتفاق السياسي الذي تمّ بالقيادة العامة أبان الثورة بأن لا تتم أي محاكمات لأعضاء المجلس العسكري الأعلى ..

ثم نأتي لموضوع التطهير في جهاز الأمن الذي كان يقوده في عهد عبود اللواء أحمد عبد الله أبارو وعبد القادر أبو شامة ومعهم على ما أظن زيادة ساتي .. فقد كان اللواء أبارو معتقلاً بسجن كوبر ومعه عباس فضل، مدير الشرطة (شقيق أحمد فضل المحامي) والعم المرحوم الأستاذ أحمد خير، وزير خارجية عبود، وتّم تكليفنا أنا والطيب عباس الجيلي وأمين عبد المقصود للتحقيق معهم. فبدأنا العمل بالتحقيق مع اللواء أبارو الذي كان واضحاً عليه أنه كان مصاباً بصدمة شديدة من انتصار الثورة ولم يستوعب أو يتخيل أنه سيكون معرضاً للاعتقال أو التحقيق في يوم من الأيام .. أذكر أن مخازن أبو شامة، التي كان يعمل بها والدي آنذاك، كانت تتعامل مالياً مع البنك الأثيوبي وكان السيد "التجاني السوري" هو نائب المدير للبنك وعلى قرابة باللواء أبارو. وفي أحد الأيام جاءني والدي وذكر لي أن التجاني السوري يرجو منك أن تطمئن اللواء أبارو على أسرته وأن تسأله عن احتياجاته. وفعلاً ذهبت إليه ووجدته في حالة إنهيار تام ويتشنج بكاءً .. وفي ذلك اللقاء، وبعد أن هدأ، قال لي أنه يريد عقد صفقة معنا يقوم بموجبها بالكشف عن عضو اللجنة المركزية والمكتب السياسي للحزب الشيوعي، الذي كان يتعاون معهم في الأمن، وكان يرشدهم على الأوكار السرية، التي داهمها الأمن في الفترات الأخيرة، وأن يكشف لنا أيضاً علاقتهم كجهاز بالمسئولين في السفارة الأمريكية بالخرطوم، وأن المقابل الذي يطلبه في ذلك هو تحويل اعتقاله من كوبر إلى اعتقال منزلي في منزله . سعدت بذلك العرض وذهبت أبحث عن أحمد سليمان، رئيس لجنة

التطهير والوزير عن الحزب الشيوعي، وتأخرت على الصحفي المصري، الأستاذ يوسف الشريف، الذي كنت على موعد معه بالفندق الكبير، بحثاً عن أحمد سليمان الذي وجدته أخيراً أمام مدخل وزارة الزراعة وكان في طريقه ضمن وفد سوداني إلى القاهرة ومقابلة الرئيس الراحل عبد الناصر. فانفردت به ورويت له العرض الذي تقدم به أبارو وشجعته بأنه فرصة لهم في الحزب لمعرفة مصدر الضربات المتتالية عليهم .. ففجعني بقوله أن هذا "كلام فارغ" وأضاف أن "اللواء أبارو يخطط للهروب". فأبديت له دهشتي وذهبت للقاء الأستاذ يوسف الشريف. وفي اللقاء رويت له ما حدث، ولكن الأستاذ يوسف الشريف، وللأسف قام مؤخراً بذكر هذا الموضوع في كتابه عن السودان وأتهم فيه الشهيد المقدم أبو شيبه (من شهداء حركة يوليو ١٩٧١م) وعندما أبلغته بأن هذا غير صحيح أصرّ على موقفه. فالشهيد أبو شيبة كان صغيراً آنذاك و لم تكن له أهمية في الحزب الشيوعي، إن كان شيوعياً في عهد عبود، لأنه في اعتقادي لم يكن في التنظيم الشيوعي أصلاً، بل كان عضواً في تنظيم الضباط الأحرار وكان الشيوعيون يعتبرونه ديمقراطياً وقريباً منهم..

كذلك قمت بالتحقيق مع عمنا الأستاذ أحمد خير، الذي كان يجيب باستخفاف واضح على أسئلتنا، ويدخن بعصبية من صندوق سجايره الـــ "كرافن A" فيشعل واحدة ويمسك اثنتين في أصابع يده. وكانت كل إجاباته عن أي سؤال: "لا تسألوني. فقد كنت مجرد وزير وليس مخطط سياسة .. اسألوا أعضاء المجلس العسكري .. الخ" .. وللأسف انفعلت في حديثي معه

مرة واحدة فأغضبه ذلك مني لفترة طويلة، إلى أن جمعتني به ظروف تشييع الأخ الكبير المرحوم الشريف حسين الهندي... ذلك أيضاً يذكرني بما لم أكمله من التحقيق مع الأستاذ الراحل بشير محمد سعيد، الذي اغتاظ من مثوله أمامي للتحقيق، وكتب عن أحداث القصر قائلاً (أن البعثيين هم الذين قاموا بتحريض الجماهير للذهاب إلى القصر ليموت بعض الناس هناك) قاصداً أن يحملنا مسئولية أرواح هؤلاء الشهداء الأبرار وبشكل خاص قصد الأستاذ سعيد حمور الذي خاطب الجماهير فعلاً وساهم في قيادتهم في اتجاه القصر تنفيذاً لقرار جبهة الهيئات بحصار القصر حتى النصر، ومعه الأخ الشيهد عبد الله عبد الرحمن Invisible الذي أصيب برصاصة في تلك المظاهرات وظلت في صدره إلى أن توفى بسببها بعد سنوات . غضب الرجل كثيراً، وفي عهد نميري حضرت مجلساً كان يضمه مع المرحوم سعد أبو العلا وعبد القادر عبد المنعم والمرحوم عوض عبد الرحمن صغير، قمت بتحيتهم وقلت له (ازيك يا عم بشير) فانفجر في وجهي وشتمني بعنف، تمالكت أعصابي إلى أن غادرت، وفي السنوات الأخيرة التقينا في لندن وأصبحنا صديقين حميمين حتى لحظة وفاته رحمه الله..

ملخص ما يمكن قوله حول مسألة التطهير وقضايا الثراء الحرام، وما نتج من إجراءات في المصالح وإدارات الحكومة، أنها في أغلبها كانت قائمة على أحقاد شخصية وتصفية حسابات فيما بين الموظفين ونتج عنها فقدان جهاز الخدمة المدنية السودانية عدداً من القياديين المتمرسين في مختلف حقولها .. والمثال الأوضح في ذلك هو التقرير المرفوع ضد الأستاذ المرحوم حماد توفيق،

الذي لا يختلف اثنان في نزاهته وعفة يده ولسانه، وكان رحمه الله مديراً للبنك الزراعي، غير أن أحد موظفيه بالبنك واسمه (إبراهيم) جاءني بواسطة خاله الأستاذ محمد صالح حنتوش المحامي ومعه بلاغات ضد العم حماد .. فكان لا بد لنا من الناحية القانونية أن نستدعي الرجل، فأرسلت إليه الاستدعاء وذهبت إلى مهمة أخرى في سجن كوبر، وعندما عدت إلى المكتب وجدت في انتظاري الدكتور أحمد السيد حمد والأستاذ أحمد سليمان وآخرين وهم في حالة غضب وثورة. وسألوني كيف قمت باستدعاء حماد توفيق .. و.. نقلت لهم أنني أعرف العم حماد ونزاهته، ولكن هذا عملي الذي كلفتموني به ومن ضمنه أن استدعي كل من يصلني بلاغ ضده للتحقيق .. المهم قاموا بإلغاء الأمر، وفعلاً كانت المسألة مجرد إجراء كيدي من ذلك الموظف، الذي اعتقد أن زمالتي الدراسية والمهنية لمحمد صالح حنتوش ستكون سلماً له في البنك وفي التطاول على قامة عالية من قاماتنا الوطنية والأخلاقية كحماد توفيق ..

(١٠)

*** حزب الشعب يقاطع الانتخابات الأولى :-**

*** ومايو تلوح في الأفق :-**

بدأت ضغوط الأحزاب التقليدية تتصاعد على حكومة أكتوبر الانتقالية في اتجاه إجبارها على الاستقالة، وكانت الحكومة في أغلبها تتكون من وزراء شيوعيين ومحسوبين عليهم باسم النقابات مثل : طه بعشر – شيخ الأمين محمد الأمين – الشفيع أحمد الشيخ – موريس سدرة – أحمد سليمان – عابدين إسماعيل .. الخ.. وأصبحت النقابات قبلة اتجهت نحوها كل القوى السياسية للنفاذ إلى الحكومة من خلالها، وقد رويت في صفحات سابقة ما حدث في نقابة المحامين كمثال على ذلك ..

ثم ازدادت ضغوط حزب الأمة، بشكل خاص، على رئيس الوزراء سر الختم الخليفة كي يقوم بإقالة حكومته وتكوين حكومة جديدة تكون مهمتها الأساسية إجراء انتخابات عامة، إلى أن رضخ الرجل وقدم استقالة الحكومة بالفعل .. وقد تردّد آنذاك أن السيد سر الختم كان قد تورط في علاقة ما بآل المهدي، كانت سبباً في نجاح حزب الأمة في إجباره على الاستقالة .. قام سر الختم بتشكيل حكومة جديدة مناقضة تماماً للأولى وأصبح أغلب وزراءها من القوى التقليدية، باستثناء أحمد سليمان ممثل الحزب الشيوعي .. وبات الجو مشحوناً وضاغطاً في اتجاه الإسراع بإجراء انتخابات عامة. ولأن

حركة التمرد في الجنوب كانت في أوج قوتها وعنفها أصبح واضحاً أن إجراء انتخابات في كل مناطق الجنوب أمر مستحيل ..

ولذلك قمنا في حزب الشعب بطرح "لا شمال بلا جنوب ولا جنوب بلا شمال" اعتراضاً على إجراء انتخابات عامة في شمال البلاد دون جنوبها، باعتبار أن ذلك يساهم في تعميق الأزمة ويساعد ذوي النزعات الانفصالية في دعوتهم .. بقية الأحزاب لم تكترث لرأينا، حتى الشيوعيون، الذين كانوا قد تحالفوا معنا، انسحبوا وذهبوا مع الأحزاب الأخرى في اتجاه الانتخابات .. المناقشات داخل حزب الشعب توصلت بنا إلى اتخاذ موقف محدّد يتلخص في "مقاطعة ومقاومة الانتخابات"، وفوجئنا بأن هذا الموقف قد وجد هوى وحماساً عند السيد على الميرغني ووافق فوراً على أن يعلن الحزب موقفه هذا !!

قمنا بتشكيل عدد من اللجان للإشراف على المقاومة في العاصمة المثلثة ومعي الأخوة : الفاتح عبود – عبد الله النجيب – وعبد المنعم حسب الله، وبدأنا التخطيط لقيادة حملة شعبية ضد إجراء الانتخابات .. وفي أحد الأيام استدعاني الشيخ على لمقابلته في منزل السيد على الميرغني بالخرطوم بحري، فذهبت إليه في الموعد ووجدت معه الأخ محمد عثمان الميرغني، ودخلوا بي إلى غرف داخلية لم أدخلها قبل ذلك، وطرحوا عليّ فكرة أن نقوم بانقلاب عسكري بقيادة عبد الرحيم شنان لا بغرض استلام السلطة وإنما فقط لمنع إجراء الانتخابات في تلك الظروف في الشمال دون الجنوب ..!! ورداً على بعض الاستفسارات أضاف الشيخ على أن القوات المشاركة في الانقلاب

المقترح ستأتي من جهة ود مدني وأن المطلوب هو إيجاد خطة لقفل الطرق أمام حركة السير في كل أنحاء العاصمة، ما عدا طريق مدني لتمر عليه قوات الانقلاب، وذكر أنهم يملكون قنابل صوت يمكن تفجيرها .. الخ .. وافقت على الفكرة ولكن قلت لهم لا معنى لتفجير قنابل تلفت انتباه قوى الأمن فتفشل الخطة .. المهم أعطوني في آخر الأمر حوالي ٢٠٠ جنيه لمقابلة أية مصروفات. فذهبت مباشرة إلى المنطقة الصناعية بالخرطوم لبعض أصدقائي وعملاء مكتبي من أعضاء حزب الشعب، أتذكر منهم الأخوة : إبراهيم محمد حسين – فؤاد السملوطي – وهاشم محمد حسين، وطلبت منهم أن يبحثوا لي عن نوع من المسامير التي هي عبارة عن كرات صغيرة ذات عدد كبير من رؤوس المسامير المدببة، لنشتري منها كميات كبيرة ونقوم في ليلة الانقلاب بتشتيتها بكثافة في كل شوارع العاصمة المثلثة لتعطيل كافة السيارات باعطال الإطارات الأربعة لكل سيارة وبالتالي تتعطل حركة السير تماماً في العاصمة .. وبالفعل وجدنا المطلوب وبكميات هائلة وقمت بإخفائها في أطراف المدينة، بمساعدة عضو سابق في الجهاز السري للاخوان المسلمين جاء، هارباً من مصر للسودان، وكان يعمل بعد انتقاله للعاصمة في المنطقة الصناعية (لا أذكر اسمه الآن ولكنه كان قد تزوج بشقيقة الدكتور عبد الوهاب زين العابدين)..

وفي انتظار اليوم الموعود اتصل نشاطنا التعبوي ضد الانتخابات وعقدنا ليلة سياسية كبرى، أذكر أن الأخ عبد الله النجيب كان أحد المتحدثين فيها وكان في غاية الحماس وطالب الجماهير أن يعتنوا بأسرته لأنه سيمضي

على طريق مقاومة الانتخابات حتى الاستشهاد !! ومع اقتراب موعد الانتخابات بدأت أعمال المقاومة في الشمالية بترع صناديق الاقتراع وإلقائها في النيل وتمزيق الأوراق والبطاقات .. وفي هذا الإطار قمنا بتكليف الأخ عبد الوهاب سنادة (من شباب الحزب آنذاك) ليذهب إلى منطقة خشم القربة بشرق السودان، وفي جو الحماس الذي ساد هنالك لمقاومة الانتخابات وقع حادث مؤسف للغاية، عندما هجمت مجموعة من أبناء قبائل تلك المنطقة على مركز الانتخابات ونتج عن الهجوم مقتل ضابط الانتخابات، وانتشر الخبر في العاصمة وكل الأقاليم، مما أثار موجة واسعة من الخوف والهلع، بينما أصبحنا نحن أمام مصيبة، وبدأنا البحث عن مخرج من موضوع المقاومة برمته !!

في صباح أحد الأيام بعد الحادث اتصل بي الأخ عبد العزيز صفوت المحامي هاتفياً وطلب أن أترك أي شئ ومقابلته فوراً في مكتب الأخ عبد الله النجيب المحامي لأمر هام للغاية، وبمجرد دخولي للمكتب نهض عبد الله النجيب وهو يصيح في وجهي : "أنت تعرف أنني ضد موضوع المقاطعة والمقاومة، وهذا خطاب استقالتي من الحزب نفسه. أرجوك توصيله للشيخ على عبد الرحمن !!.. قلت له غاضباً : "أنت رجل جبان، أنت تعرف طريقك لمترل الشيخ جيداً، حيث تذهب إليه صباحاً ومساءً في طريقك لمكتبك وتشرب معه القهوة، فلتذهب الآن بنفسك، أما إذا تم اعتقالي وسئلت فإنني سأذكر انك مسئول معي في هذا الأمر وقد أعلنت بنفسك للجماهير انك ستناضل فيه حتى الشهادة." وتركته وقد جُن جنونه ومضيت إلى مكتبي .. وفي نفس اليوم

وصلتني دعوة لاجتماع طارئ في الدائرة. فذهبت ووجدت الجميع في حالة قلق وتراجع يبحثون عن مخرج من هذه الورطة .. قبل يومين من ذلك الاجتماع كنت قد التقيت بصديقي الصحفي إدريس حسن واتفقنا أثناء الدردشة وتحليل الموقف على أنه من المحتمل أن يقوم الأخوان المسلمين بتدبير مؤامرات وإثارة رعب ثم اتهام حزب الشعب بها استغلالاً لتلك الظروف .. وعندما جاء دوري للحديث في الاجتماع رويت لهم ذلك التحليل لا كاحتمال وإنما كمعلومات عن مخطط موجود ونسبتها للأستاذ إدريس حسن. فالتقطوا الموضوع بالإجماع وأعلنوه كسبب لإلغاء خط المقاطعة والمقاومة للانتخابات وكان التصويت سيبدأ في العاصمة في صباح اليوم التالي .. وقام المجتمعون بتكليفي مع رئيس الحزب الشيخ علي للاتصال برئيس الوزراء سر الختم الخليفة وإبلاغه القرار الجديد .. لم تكن للشيخ علي سيارة وبالتالي ذهبنا بسيارتي معاً .. وكنت في ذلك اليوم أيضاً – قبل موعد الاجتماع الطارئ – قد بصقت في اتجاه السيد سر الختم الخليفة عندما مرّ بسيارته بجواري وأنا أقف أمام باب المحكمة. وكان قد رأى ذلك وتأكد مني .. وعندما ذهبنا بعد الاجتماع إلى منزله، جوار سينما النيل الأزرق ووزارة التربية، كان الشرطي (شاويش .. رقيب) الواقف أمام بابه من أبناء الشايقية الختمية، وبمجرد أن رأى شيخ علي يترجل من السيارة قام بتحيته تحية عسكرية وسمح لنا بالدخول دون تبليغ السيد سر الختم وأهل بيته !! جلسنا في صالة المنزل وكنت مواجهاً للسلم المؤدي لغرف النوم بالطابق العلوي. وعندما علم السيد سر الختم بوجود زوار

وبدأ في الهبوط بالدرج رآني جالساً فارتعب للوهلة الأولى وتراجع درجتين إلى أعلى، قبل أن يتمالك وينزل مرة أخرى. وعندما رأى شيخ علي هدأ واُطمأن وأقبل علينا بالتحية والسلام فأبلغه الشيخ بالأمر، فطلب أن نقوم بتبليغ وزير الإعلام الأستاذ المرحوم صالح محمود إسماعيل وأعطانا مذكرة صغيرة له .. في منزل الأستاذ صالح قالوا لنا أنه ذهب للعزاء في وفاة المرحوم الأستاذ مبارك زروق، التي حدثت في اليوم السابق لذلك اليوم، وكان العزاء بمنزله بمنطقة الصافية بالخرطوم بحري .. هنا طلب مني الشيخ أن أتركه في منزله وأذهب بمفردي لتسليم المذكرة للأستاذ صالح، الذي ما أن قرأها ثار – رحمه الله – في وجهي ثورة شديدة قائلاً : "لن أذيع هذا الخبر وانتم مسئولون عن كل ما يحدث وعن مقتل ضابط الانتخابات في خشم القربة.." قمت بتهدئته وقلت له أن مسئولية الحادث سيقررها القضاء. أما مسئولية ما سيحدث، فقد سقط عن عواتقنا من هذه اللحظة التي أبلغناك فيها قرارنا، بل أنتم المسئولون عن أي انفلات قد يحدث في العاصمة غداً .. كان إرسال الإذاعة السودانية آنذاك ينتهي عند الحادية عشرة إلا ربعاً عندما وافق الأستاذ صالح على إذاعة النبأ .. حاول الاتصال هاتفياً ووجد هاتف المرحوم مبارك زروق عاطلاً، كذلك هاتف محطة بنزين أحيب المجاورة في حي الصافية، فأخذته إلى منزلي بالحي المجاور (المساكن الشعبية بالخرطوم بحري)، ومن هناك اتصل بالإذاعة بعد أن بدأت في إذاعة موجز الأنباء الختامي، فقطع المذيع نشرة الأنباء بالطريقة التقليدية المعروفة: "جاءنا الآن ما يلي .." وأذاع الخبر، وظلت الإذاعة تردده

لفترة إضافية وكذلك في بدء الإرسال صباح اليوم التالي .. وجرت الانتخابات بهدوء في العاصمة، وانتهت بخيرها وشرها لنواجه بعد ذلك مسئوليتنا عن حادث القتل الذي جرى في شرق البلاد، حيث كان هنالك البلاغ المفتوح ضد حزبنا باسم رئيسه الشيخ على عبد الرحمن، تحت مادة التحريض على القتل. وتم تحديد مدينة كسلا (عاصمة المديرية الشرقية آنذاك والمعروفة تاريخياً كمنطقة نفوذ للطائفة الختمية) كمكان لانعقاد محكمة الموضوع، فسافر الشيخ إلى كسلا مصحوباً بعدد من المحامين لم أتمكن من مرافقتهم.. وصدف أن كان قضاة محكمة الموضوع الثلاث من أبناء الطائفة وهم القضاة : أحمد الشيخ البشير – حسن الماحي – وثالث لا أذكره الآن، وكانت محكمة كبرى برئاسة مولانا أحمد الشيخ البشير، الذي ما أن دخل القاعة ووجد شيخ على داخل قفص الاتهام حتى غضب من شرطة المحكمة وأمرهم بإخراجه من القفص ليجلس بجواره في منصة القضاء !! وعندما بدأت الجلسة نهض الشيخ على ليردّ على الاتهام بنفسه قائلاً ببلاغته المعهودة (نحن لم نقل أننا سنقاوم الانتخابات بالقوة، وإنما قلنا سنقاومها بقوة، والفرق واضح، ولسنا مسئولين عن ما يحدث خارج حدود دعوتنا .. الخ..) فلم تجد المحكمة سوى الحكم ببراءته هو وحزبه..

هدأت العاصفة بانتهاء الانتخابات وإنهاء محاكمة الشيخ علي، وانعقدت الجمعية التأسيسية (البرلمان) خالية من ممثلين لعدد كبير من دوائر الجنوب. وظهر بعد قليل في الميدان السيد الصادق المهدي، الذي بلغ لتوّه السن

القانونية لعضوية البرلمان (٣٠ عاماً) وأصرّ على دخول البرلمان، فتمت الاستجابة لرغبته بإخلاء الدائرة الانتخابية، التي كان قد فاز فيها السيد عبد السلام أحمد فضل (إحدى دوائر مدينة الدويم بالنيل الأبيض على ما أعتقد) وترشيحه فيها ليفوز بالتزكية، ثم بدأت المشاكل الداخلية في حزب الأمة وانفجر الخلاف بينه وبين أعمامه الإمام الهادي والسيد أحمد المهدي والأستاذ محمد أحمد محجوب، وهو الخلاف الذين نجم عنه انقسام حزب الأمة إلى جناحين، جناح الإمام وجناح الصادق، الذي أصبح حليفاً أساسياً وحامياً للاخوان المسلمين في السودان (جبهة الميثاق الإسلامي آنذاك) وكان يتردّد كثيراً في ذلك الوقت أن السيد الصادق عضو في القيادة الدولية للاخوان المسلمين وكان ينكر ذلك ..

كانت القناعة بعدم إجراء الانتخابات، بتلك اللّهفة والعجلة في جزء من البلاد، لا زالت قناعة عميقة عندي بالرغم من تنازلنا الرسمي كحزب شعب عن خط المقاطعة والمقاومة لها، نتيجة للانفلات المؤسف الذي حدث في خشم القربة .. وفي هذا الإطار، ومن باب الاجتهاد الشخصي، عكفت على دراسة نصوص الدستور المؤقت للبلاد (دستور ١٩٥٦م المعدل في ١٩٦٤ م) وتأمل الأوضاع المتدهورة على ضوئها، وكانت الملاحظة البديهية – ولكنها هامة – التي استوقفتني هي أن المهمة الرئيسية للجمعية التأسيسية (البرلمان) تتلخص في وضع دستور دائم للبلاد، وينص الدستور المؤقت السائد آنذاك على أغلبية محدّدة من أصوات نواب الجمعية كحد أدنى لإجازة الدستور. فإذا

لم يتوفر ذلك النصاب فإن الجمعية تصبح غير قادرة على إنجاز مهمتها الأساسية .. وبما أن الجمعية ناقصة العدد أساساً. والنقص ناتج عن غياب عدد غير قليل من النواب، هم نواب دوائر المديريات الجنوبية، التي لم تجر فهيا الانتخابات، فإن الجمعية محكومة غالباً بالفشل في مهمتها مقدماً !! فلم أتردّد في حمل هذه الملاحظة والذهاب بها إلى رئيس مجلس السيادة (رأس الدولة) الزعيم المرحوم إسماعيل الأزهري في القصر الجمهوري، الذي استقبلها — الملاحظات — باهتمام وطلب أن أذهب فوراً للمرحوم صالح محمد إسماعيل (صالح سكر) رئيس تحرير جريدة حزبه الحزب الوطني الاتحادي (العلم) في مكاتب الجريدة بالمنطقة الصناعية لينشرها في الصفحة الأولى من عدد (الغد) .. وفي الغد استدعى الرئيس الأزهري النائب العام وأستفسره عن صحة الملاحظات المنشورة في الجريدة. فأكد له النائب العام صحتها.. وبناءً على ذلك شرعوا في جمع توقيعات أعضاء الجمعية على استقالتهم، فاستقال أغلبية النواب وأعلنوا حلّ الجمعية التأسيسة، ورفض السيد الصادق ومعه بعض النواب حلّ الجمعية وحاولوا الاستمرار بمفردهم في العمل كجمعية. وعندما أغلقت أبواب مبنى البرلمان عقدوا اجتماعهم الشهير تحت ظلال أشجار البرلمان !!

تلك هي الفترة التي قاد فيها عدد من ضباط الجيش في الجنوب حركة احتجاج واسعة ضد الحرب الأهلية، تم تحوّل الاحتجاج إلى تمرد بقيادة الأخ الشهيد فاروق عثمان حمد الله وآخرون،.وعندما ذهب إليهم وزير الدفاع،

الدكتور عبد الحميد صالح ومعه القائد العام، الفريق الخواض، قاموا باعتقالهما إلى أن قامت حركة أخرى مضادة لذلك التمرد، تمّ على أثرها الإفراج عن الوزير والقائد العام واعتقال فاروق ومجموعته وإحالتهم للمعاش (الاستيداع) وتم ترحيلهم إلى الخرطوم .. وفي الخرطوم كانوا يتواجدون دائماً في المحطة الوسطى عاطلين عن العمل، وتوثقت صلتي الشخصية بهم من خلال صديقي فاروق حمد الله، وبالتالي كان ما أكسبه من عملي إضافة إلى سيارتي تحت تصرفهم، كذلك كانت صلتي وثيقة بضباط آخرين كالأخوة : منير حمد سراج (مدير مكتب نميري لاحقاً) — الأخ عمر محقر (أصبح أيضاً ضمن الحرس الخاص لجعفر نميري). وكان هؤلاء الضباط يلمحون لتنظيم للضباط الأحرار. وفي الحقيقة كان نور انقلاب عسكري قد بدأ يلوح في أفق الأزمة السياسية، وفعلاً وقعت المحاولة المضحكة للانقلاب العسكري، التي كان بطلها المرحوم خالد الكد (الدكتور لاحقاً) والتي لا أعرف حتى الآن هل كانت اجتهاداً خاصاً منه أم كانت بإيعاز من آخرين لديهم نفس النية في الشهور القادمة ؟؟ المهم أن المرحوم خالد كان خريجاً جديداً من الكلية الحربية برتبه الملازم وشرع فوراً بالاتصال ببعض ضباط الصف (رقباء) ليقوم بالانقلاب. فقام هؤلاء الرقباء بالتبليغ عنه وبالتالي كان تحركه مرصوداً. وعندما شرع في التنفيذ لم يكن على علم بأن رئاسة مجلس الوزراء كانت قد انتقلت لمبنى آخر. فذهب لمحاصرة المبنى القديم ونام داخل السيارة، التي كانت تقلّه إلى أن قاموا باعتقاله ثم اعتقلوا ضباطاً آخرين، بحجةالمشاركة في تلك الحركة، مثل الرشيد

نور الدين وتوفيق نور الدين وغيرهما من المتهمين بعضوية تنظيم الضباط الأحرار، في سجن كوبر دون محاكمة ثم أطلقوا سراحهم بعد فترة..

شهدت الحياة السياسية بعد ذلك حركة استقطاب واضحة حول محورين، اصطف في الأول حزب الأمة والحزب الاتحادي مع جبهة الميثاق (الأخوان المسلمين) حول شعار (الدستور الإسلامي والجمهورية الإسلامية) وفي الجانب الآخر طرح الحزب الشيوعي مشروع تأسيس الحزب الاشتراكي ليصطف فيه التقدميون. وفعلاً تمّ تأسيسه برئاسة المرحوم أمين الشبلي، ولكنه مات في مهده دون أن يظهر إلى الوجود، رغم اكتمال معظم الترتيبات الخاصة بذلك. فماتت الفكرة بعد عودة عبد الخالق محجوب من رحلة إلى موسكو. ومن جانب آخر جرت محاولات عمل مشترك بين الشيوعيين وحركة الاشتراكيين العرب وفي وسطها حزب البعث. ولكن الشيوعيين كانوا يتراجعون كلما اقتربنا من بدء عمل حقيقي مشترك، وبعد تجربة وتجربتين كان تقديرنا أن الحزب الشيوعي يتعمد ذلك لإقصاء الاشتراكيين العرب واشغالهم عن نشاط آخر كان يجمعه مع الناصريين ومكتب عبد الناصر في القاهرة، من خلال سامي شرف وآخر اسمه فتحي الديب، كان مسئولاً عن الشئون العربية بمكتب عبد الناصر، وهي الصلة والتخطيط التي نتج عنها انقلاب ٢٥ مايـو ١٩٦٩م. وكان يمثل الطرف الشيوعي كل من الأساتذة أحمد سليمان وفاروق أبو عيسى ومعاوية إبراهيم، والطرف الناصري كل من مولانا بابكر عوض الله، رئيس القضاء، والطاهر عوض الله والشقيقان : أحمد عبد الحليم، ضابط

المدرعات، ومحمد عبد الحليم، الذي تمّ تعيينه في نفس تلك الأيام بدرجة مدير في بنك مصر بالخرطوم .. كنا آنذاك، أنا والمرحوم الدكتور عقيل أحمد عقيل، شركاء في مكتب محاماة وكان بنك مصر من بين عملاء مكتبنا، ومن خلال الصلة الخاصة بالأخ يوسف همت الموظف ببنك مصر وزميلي في حركة الاشتراكيين العرب، وأيضاً من خلال العلاقة العملية بأنشطة البنك المختلفة، لاحظنا وجود عقود سلفيات (قروض) كثيرة قد تمت بدون ضمانات!! وبالاستفسار عن الأمر قيل لنا أن هنالك تعليمات من رئاسة البنك في القاهرة بعدم مساءلة محمد عبد الحليم (المسئول عن القروض) في أية تصرفات يقوم بها !! واكتشفنا أن محمد عبد الحليم لديه سلطات استثنائية لمنح القروض والسلفيات دون ضمانات ودون الرجوع للمدير العام — أي دون الخضوع للوائح البنك ولا لمديره العام — وكان المقصود بذلك تقريب الضباط وشراء أكبر عدد منهم. وحقيقة كان مكتب محمد عبد الحليم بالبنك يعجّ بالضباط طوال النهار وبملابسهم الرسمية .. وقد ظهرت تلك الممارسات في مستندات البنك، عندما تمّ تأميمه فيما بعد. إذ أطلعني أحد الزملاء من المحامين، الذين عملوا في لجنة حصر موجودات البنك على قائمة بأسماء بعض أعضاء مجلس قيادة ٢٥ مايو وبعض الزعماء الدينيين والسياسيين والمبالغ التي استلموها من البنك، وكان الأمر بتوجيه من مكتب عبد الناصر..

أعلن محور الدستور الإسلامي والجمهورية الإسلامية اسم الإمام الهادي المهدي كمرشح عنه لرئاسة الجمهورية، بينما اتفق الناصريون

والشيوعيون على ترشيح مولانا بابكر عوض الله باسم "مرشح القوى الاشتراكية" لرئاسة الجمهورية .. وأصبح آنذاك كل من عبد الكريم ميرغني وفاروق أبو عيسى وبابكر عوض الله شلّة (مجموعة) لا تفترق وكانوا يردّدون دائماً أنهم مشغولون معاً بإعداد الميثاق، الذي سيقدمه مرشح القوى الاشتراكية لرئاسة الجمهورية !! كان الأمر يبدو عبارة عن تمويه لصالح الإعداد الذي كان يجري للانقلاب العسكري، الذي وقع بعد ذلك في ٢٥ مايو ١٩٦٩م ؟؟

ومن جانب آخر تابعت تحركات الإعداد لذلك الانقلاب (الذي أصبح واضحاً لكل ذي عينين في الساحة السياسية السودانية) والتي كانت تتم في لقاءات بمنزل الأخ والزميل كمال رمضان المحامي، في حي العمارات وذلك مساء كل يوم الخميس من كل أسبوع بعد أن يأخذ كمال رمضان زوجته إلى أهلها ويستضيف أصدقاءه من الضباط والمحامين والسياسيين، كمكان للسهر الأسبوعي بالأنس ولعب الورق. فيستغل الضباط هذه التغطية وينسحبون إلى الطابق العلوي من المنزل ويعقدون اجتماعاتهم الإعدادية .. لفت نظري لذلك زميلنا في حركة الاشتراكيين العرب وتنظيم حزب البعث وصديقنا الأستاذ يوسف همت، الموظف ببنك مصر، والصديق وثيق الصلة بالشهيد فاروق حمد الله. فبحكم ذهابه لذلك التجمع بمنزل كمال رمضان، مع فاروق، أحاطنا علماً بما كان يجري هناك.. وبغرض متابعة ما يجري بدقة دون إحراج الأخ يوسف مع صديقه وصديقنا فاروق، قمنا باختيار أحد الضباط من أصدقاء تنظيمنا وفي نفس الوقت من دفعة هؤلاء الضباط في الكلية الحربية، هو الأخ

الفاتح المقبول (ود كيموي) – وهو صديق شخصي كذلك – وكلفناه أن يذهب إلى هناك بانتظام وتزويدنا بما يجري .. وبالفعل قام الفاتح بذلك الدور..

أذكر أيضاً أن الأستاذ أحمد سليمان – وقد كان مكتبه مجاوراً لمكتبنا – كان يكتب مقالات في الصحف وينشر فيها- وفي مجالس أنسه أيضاً – كان يبشر بتغيير عسكري و"طني" قادم، وكان دائماً في حالة قلق ليست من طبيعته العادية، التي نعرف، لدرجة أنه جاءني داخل مكتبي مرة وسألني أن كنت قد سمعت صوت دبابات !! دون أي سبب لذلك ولما استنكرت سؤاله ووجود صوت دبابات قال لي "لازم يكون في صوت دبابات". أي يجب أن تكون هنالك أصوات دبابات .. ثم سألني إن كنت فعلاً ذاهباً إلى القاهرة، قلت نعم (كانت زوجتي آنذاك تحضر الماجستير في القاهرة) فقال لي أرجو تبليغ الاخوة : محمد الباقر أحمد ومزمل سليمان غندور رجاءنا أن يعودوا ويسبقوا الآخرين بتفجير الانقلاب قبل أن يسبقهم صغار الضباط ويقودوا البلاد لأزمات أسوأ !! (كان المذكوران في بعثة دراسات عسكرية عليا بالقاهرة) وكان أحمد سليمان يعتقد أنهما بعثيان لأنهما أصدقاء لي ودرسا معي في جامعة القاهرة الفرع وهم ضباط في الجيش ..

(١١)

٢٥ مايــو :

كان من المفترض بعد فترة قصيرة أن أزور زوجتي مرة أخرى في القاهرة. فحجزت مقعداً في طائرة صباح يوم ٢٥ مايو ١٩٦٩م .. وقبل أيام من السفر كنت أشاهد يومياً مجموعات من المظليين يركضون جوار منطقة سكني (المساكن الشعبية في الخرطوم بحري) كجزء من تدريباتهم وهم يهزجون ويهلّلون، إلا أنهم في ليلة سفري (٥/٢٤) لم يحضروا .. نمت مبكراً وأخذت حقيبتي في الصباح الباكر وذهبت لوداع والدة زوجتي، ولكي أحمل منها وصاياها لإبنتها في القاهرة، ومنها إلى المطار، الذي وجدته مغلقاً ومطوقاً بقوات من الجيش فأدركت أن الانقلاب المرتقب قد وقع بالفعل. وركبت سيارتي وذهبت إلى محطة بترين موبيل أويل الشهير بـــ "طلمبة جكسا" في شارع الجمهورية بالخرطوم، ومنها إلى مترل شريكي المرحوم عقيل أحمد عقيل المحامي، الذي كان نقيباً للمحامين، وفي الطريق سمعت البيان رقم واحد داخل السيارة من (العقيد) جعفر محمد نميري ومجلس الوزراء .. وفي مترل الدكتور عقيل وجدت معه القنصل المصري .. وبعد لحظات جاءنا المرحوم حسن أحمد مكي وهو يلهث ويتصبب عرقاً – والمعروف أن أبناء أحمد مكي لهم ارتباطات وثيقة بمصر – وعندما استفسرناه قال مهللاً أنه كان في الدبابة التي دخلت القيادة العامة للقوات المسلحة .. والخ .. وكان أحمد عقيل ابن المرحوم عقيل شاباً صغيراً آنذاك ويجلس بجانبي في صالون مترلهم عندما دخل علينا الأستاذ

أحمد سليمان، فبادره الشاب الصغير "انت أبو سولومون طبعاً في مجلس الثورة طالما لم يرد اسمك في مجلس الوزراء!" فردّ عليه أحمد سليمان" يا ولد بلاش كلام فارغ، لو كانت عندي سلطة لم أكن سأختار جوزيف قرنق وفاروق أبو عيسي قبل تعيين نفسي" .. بعد طعام الافطار مع المرحوم عقيل انفردت بأحمد سليمان أثناء غسيل الأيدي في الحمام وقلت له انك جزء أساسي في هذا الموضوع. فأقسم بحياة ابنته سارّة وبشرفه الماركسي أنه ليس مشاركاً فيه ولا يعلم شيئاً عنه !! فقلت له إنني الآن أيقنت أكثر بضلوعك فيه !! المهم خرجنا من هناك إلى مكتبنا أنا وعقيل. وبحكم أن عقيل هو نقيب المحامين وأنا عضو مجلس النقابة، توافد المحامون إلى مكتبنا لاستطلاع المعلومات والأخبار، وكان من بينهم الأخ فاروق أبو عيسى، الذي كان يتظاهر بأنه فوجئ ويسأل هل يقبل المنصب الوزاري؟ أم لا؟ إلى أن قلت له يا أخي أنت لديك حزب ويجب عليك استفساره وتنفيذ توجيهاته.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم التقيت بالأخ الزميل بدر الدين مدثر الذي كان عائداً لتوّه من لقاء مع الشهيد عبد الخالق محجوب، وحسب رواية بدر الدين فإن عبد الخالق كان موقفه واضحاً ضد الانقلاب! وقال لبدر الدين أنه يكاد يكون معزولاً داخل اللجنة المركزية لأن غالبية الأعضاء، ورغم إقرارهم بأن الذي جرى انقلاب عسكري، إلا أنهم ينادون بالاشتراك في السلطة وأنه يتوقع مشكلات عديدة .. ثم التقيت الأخ الفاتح المقبول، الذي أعطاني خارطة تفصيلية لأعضاء مجلس الانقلاب وأعاد إلى ذاكرتي ليلة كنا معاً

في حفل زواج الضابط "ابو القاسم شيّه" من كريمة الأستاذ محمد أحمد محجوب، حيث كان الفاتح يقوم بتقديمي لبعض الضباط ومن ضمنهم أشار إلى اثنين قائلاً أنهما أعضاء مجلس قيادة الثورة القادم، واعتبرت المسألة مجرد مزحة بين ضباط الجيش في حالة شراب وابتهاج، وضحكنا جميعاً .. فذكرني في هذا اليوم أنهما كانا زين العابدين محمد أحمد عبد القادر وأبو القاسم محمد إبراهيم..

وفي اليوم التالي فتحوا المطار فسافرت إلى القاهرة ..

من المعلومات التي عرفتها لاحقاً أن عبد الخالق كان قد زار معسكر التدريب في خور عمر، ولكنه اعترض على القيام بانقلاب عسكري.. وفي ليلة التنفيذ – ولتفادي اعتراض عبد الخالق – أرسلوا له محمد عبد الحليم والمرحوم بابكر كرار، بدعوى أن قريباً لأحدهما في حالة مرضية معقدة وأنهما يريدان منه مساعدته لإرساله في بعثة علاج إلى موسكو، وتعمدا إطالة الجلوس معه .. ويضيف الأخ سعيد كسباوي أنه رافق جعفر نميري بسيارته إلى عبد الخالق في منزله أثناء وجود محمد عبد الحليم وبابكر كرار معه، وعندما طرق نميري الباب وجاءه عبد الخالق قال له نميري : "سنفعلها الليلة، سنفعلها الليلة .." فردّ عليه بأنه لا زال على اعتراضه ..

كذلك علمت فيما بعد من الأخوة : كمال رمضان المحامي، والعقيد طيار سعيد كسباوي، والشهيد فاروق عثمان حمد الله، أن المرحوم الأستاذ محمد أحمد محجوب قد لعب دوراً هاماً في انجاح الانقلاب.. ذكروا أنهم ذهبوا

للمحجوب بإيعاز خاص من الزعيم عبد الناصر لاطلاعه على فكرة التغيير بواسطة القوات المسلحة وأن قيادة الحركة الانقلابية تعرض عليه منصب نائب رئيس مجلس الثورة ورئيس الوزراء أو تعيينه أميناً عاماً للجامعة العربية باستثمار ثقل مصر وعبد الناصر. وكان ردّ المحجوب ممزوجاً بروحه الفنانة وطبيعته الأدبية. إذ قال لهم أنه .كره السياسة ومؤامراتها وأنه يود قضاء بقية عمره في القاهرة والاستمتاع .بمجالسة أصدقائه عبد الرحمن الخميسي وغيره من أدباء مصر في الفيشاوي والحسين .. ولكنه (أي المحجوب) لم يعترض على فكرة الانقلاب، بل، وعندما أرادت قيادة الحركة الانقلابية تحريك قواتها إلي منطقة خور عمر تحت لافتة " إجراء تدريبات"، واعترض على ذلك المرحوم، حمد النيل ضيف الله، نائب القائد العام للقوات المسلحة، بحجة رداءة الطقس، اتصل بعض الضباط، ومن بينهم أبو القاسم محمد إبراهيم، بالمحجوب وطلبوا منه أن يتدخل لدى القيادة العامة لمصلحة إجراء تلك (التدريبات)، فتدخل المحجوب فعلاً ونجح في إقناع حمد النيل بأن يسمح "لأولادنا" بإجراء التدريبات التي يريدونها..

وبينما كان الإعداد الفعلي للانقلاب يجري تحت مظلة التدريب في خور عمر بأمدرمان على قدم وساق، وسكان المناطق المجاورة يسمعون كل صباح أصوات الجنود والضباط يتصايحون بابتهاج واضح، قام المرحوم المحجوب، رئيس الوزراء، بتقديم خدمة أخرى كبيرة لمجموعة الانقلاب، وذلك عندما أصدر قراراً بتكوين وفد عسكري كبير يضم ذوي الرتب الكبيرة كلهم

في القوات المسلحة ليذهب ذلك الوفد إلى الاتحاد السوفيتي في مهمة لشراء أسلحة واختيار الأنواع المناسبة منها، مما ساعد الانقلابيين على السيطرة بسهولة على كل المراكز والمواقع عندما تحركوا لتنفيذ الانقلاب والنجاح في استلام السلطة بعد أيام قليلة من سفر ذلك الوفد ..

كان المرحوم الشيخ على عبد الرحمن وزيراً للحكومات المحلية بعد الانتخابات الثانية، عندما سألني فاروق حمد الله إن كنت أستطيع ترتيب لقاء بنيهما، وكان فاروق مفصولاً من الجيش منذ حادث التمرد الذي قاده ضد الحرب في الجنوب.. وعندما التقيا، اعتقد الشيخ على بحسن نيته أن فاروق يبحث عن عمل لديه، وعلى هذا الأساس بادره بالحديث عن ظروف العمل في وزارة الحكومات المحلية والوظائف فيها ..الخ.. فاستحى فاروق وصرف النظر عن الموضوع الذي جاء من أجله !! وأغلب الظن أنه كان يريد اطلاع الشيخ على عبد الرحمن على فكرة التغيير بواسطة القوات المسلحة على غرار ما فعلوه مع المحجوب ..

واستطراداً في هذا الجانب، سألت فاروق حمد الله مرة – بعد عزله من مجلس الثورة وإطلاق سراحه من الحبس المنزلي – وكنا معاً داخل سيارتي أمام منزل إبراهيم رمضان (شقيق كمال رمضان) المطلّ على الفضاء الواسع الذي تم تعميره لاحقاً وأصبح حي الرياض – سألته عن ظروف اشتراكه في الحركة .. الخ .. فقال فاروق :

"يوم ١٥ مايو كان لدينا اجتماع قيادة تنظيم الضباط الأحرار، واختلفنا في ذلك الاجتماع حول شخص رئيس الانقلاب وحول ساعة الصفر .. رشحوا أحمد الشريف الحبيب، فاعترض البعض، بسبب نقاط ضعف معينة في شخصيته .. واقترحوا مزمل سليمان غندور، فاعترضت أنا عليه لأنه رجل طموح ومن الصعب السيطرة عليه لاحقاً، واقترحت عليهم جعفر نميري، وقلت لهم أن نميري مثل السبورة يتبنى كل ما يكتب عليها وأن آخر من يكتب هو الرابح !! فاعترضوا، خاصة الرشيد أبو شامة، فانفض الاجتماع دون اتفاق على نقطتي الخلاف، وكان جعفر نميري قد اشترط لاحقاً عندما عرضوا عليه مجرد الاشتراك في الانقلاب اشترط عليهم تجهيز طائرة له يقودها الطيار صبري أرباب لتأخذه إلى القاهرة في حالة الفشل !! .. وفي ظهر يوم ٢٤ مايو – ولا زال الحديث لفاروق – فوجئت بزملائنا الناصريين يتصلون بي قائلين أنهم سيقومون بالتنفيذ في تلك الليلة (٢٤/٥) ومن يود الاشتراك فليلحق بنا .. فاتصلت بالضباط المرتبطين بتنظيمنا وأبلغتهم الموقف ثم أخذني الأخوة سعيد كسباوي وكمال رمضان إلى خور عمر، وهناك وجدنا الجماعة مضطربين بعد انتشار خبر بينهم بأن أمرهم مكشوف .. إلى أن حسم الرائد محجوب برير الموقف قائلاً (أنه قام بتنوير قواته وأن مدرعاتهم الآن جاهزة ومصوبة نحو الخرطوم وأنني لن أتأخر الليلة عن اقتحام القيادة العامة والسيطرة عليها، وإذا فشلت وتم اعتقالي فسأعترف عليكم كلكم) .. المهم تخوفوا من تهوّر محجوب برير وأقبلوا على التنفيذ ونجحوا. فاجتمعنا لاختيار أعضاء مجلس الثورة ..

طرح الناصريون بشدّة اسم "ابو القاسم هاشم" عقلهم المفكر، في حين أنه لم يشترك في التنفيذ، والتقاليد تقضي أن تكون القيادة من بين الذين اشتركوا في التنفيذ .. فانتهزت بدوري الفرصة لترشيح هاشم العطا. الذي لم يشترك أيضاً وذلك بحجة أنه كان السكرتير السابق لتنظيم الضباط الأحرار ثم قمت بترشيح بابكر النور، الذي لم يشترك أيضاً، ولكن كان تبريري أنه قام بتسريب الذخيرة الحية من سلاحه وسلمها لقوات الانقلاب وختم حديثه قائلاً: " كانت السلطة مثل الكرة المقنطرة (أي الجاهزة دون عائق أمام المرمى) فقمنا بركلها ولكننا لا ندري الآن أين ذهبت !؟ !!"

أعود إلى موضوع سفري يوم ٥/٢٦ للقاهرة .. قبل الإقلاع جاءني في المطار شقيق مولانا بابكر عوض الله، نائب رئيس مجلس الثورة ورئيس الوزراء، وقال لي أن بابكر يرجوني عدم السفر ومقابلته، رفضت ذلك قائلاً : "أنه لا حاجة له بي ولكن نصيحتي الأخوية له أن يذهب لود الميرغني "السيد محمد عثمان الميرغني" ويضغط عليه في اتجاه تأييد الانقلاب على الأقل في هذه المرحلة الأولى ".. (فعلاً صدر في وقت لاحق بيان من السيد محمد عثمان الميرغني بتأييد الحركة) .. لحق بي مصطفى عوض الله مرة أخرى قائلاً أن بابكر يرجوك في حالة إصرارك على السفر أن تقوم بتبليغ مزمل غندور ومحمد الباقر أحمد أن يعودا دون إثارة مشاكل !! ..

كان معنا في الطائرة أحد أبناء آل معرى وكان أول من هبط من الطائرة في مطار القاهرة، حيث توجه إليه صحفي من "الاهرام" وسأله عن

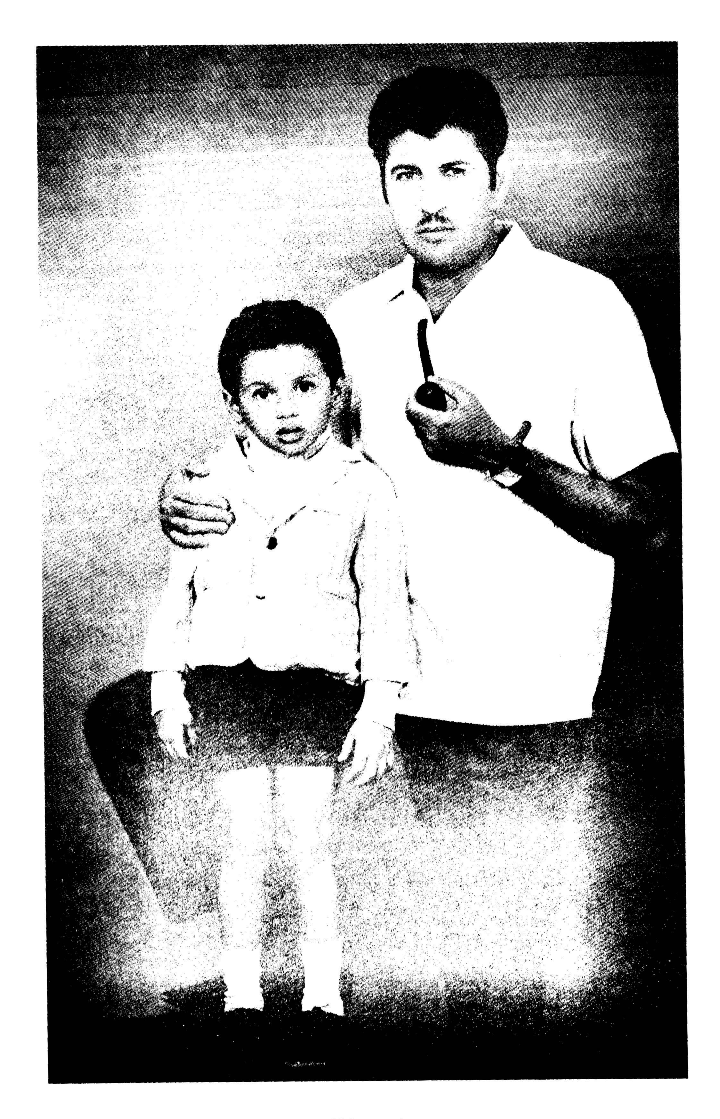
الأحداث في السودان. فاعتذر معرى بأنه لا علاقة له بالسياسة وأشار له نحوي. فجاءني الصحفي وأخذني إلى صالة الزوار، وهناك وعلى مدى ساعتين رويت له ما حدث وتشكيلات مجلس الثورة والوزراء، حسب المعلومات التي ذكرها لي الفاتح المقبول بالأمس، وأضفت إليها بعض الملاحظات والمحاذير حسب روئتي .. وفي صباح اليوم التالي نشرت الاهرام على صفحتها الأولى ما رويته كما هو وبالصور. ولكن بأخطاء في الأسماء كعادة الصحافة المصرية مع أسماء السودانيين.. وعندما قرأها مزمل غندور وعرف وصولي جاءني وقال : "ده كلام فارغ، ديل أولاد صغار وما يمكن يحكموا السودان، لن أسكت على ذلك .." لم يقبل الحدث ولا رجاء بابكر عوض الله الذي نقلته له، ولكن – وكما هو معروف – عاد مزمل فيما بعد وانخرط في النظام سفيراً أو وزيراً .. أدّعى مزمل في مذكرات أنه التقى بأحمد سليمان قبل الانقلاب وهو أمر لم يحدث.

عدت بعد شهر .. إلي الخرطوم وكانت أمور النظام الجديد قد بدأت في الاستقرار .. واتصل بي كالعادة صديقي فاروق أبو عيسى، وذكر أنه هو والأستاذ أمين الشبلي يعودان في يومي الأحد والأربعاء في وقت متأخر من الليل بعد اجتماعات مجلس الوزراء، ولأن المرحوم أمين كان أعزباً وفاروق يجد زوجته السيدة نعمات نائمة، فانهما يرجوان أن انتظرهما مساء ذينك اليومين بالطعام والشراب، فرحبت بهما وبطلبهما .. لم يكونا مرتاحين من تصريحاتي لصحية الاهرام ولكن ذلك لم يؤثر كثيراً في علاقاتنا فانتظما في الحضور كل

أحد وأربعاء. وفي واحدة من تلك الأمسيات فوجئت بشخص ثالث معهما، اتضح أنه الدكتور منصور خالد، الذي سيصبح عنواناً هاماً للنصف الأول من عهد مايو وجعفر نميري .. كان منصور خالد سكرتيراً خاصاً للمرحوم عبد الله خليل، سكرتير حزب الأمة ورئيس الوزراء قبل انقلاب ١٩٥٨م، ثم افتتح مكتب محاماة جوار مكتب أستاذي الفاتح المقبول، عندما كنت أعمل معه متدرباً، وبعد فترة قصيرة من ذلك اختفى منصور وأصبح مكتبه مغلقاً، وبعد زمن سمعنا أنه في باريس و لم يظهر في السودان إلا قبل فترة قصيرة من انقلاب ٢٥مايو، وكتب خلالها مقالات في الصحف السودانية تحت عنوان (حوار مع الصفوة) وأخرى بعنوان "أكلت يوم أكل الثور الأبيض" دافع فيها عن الحزب الشيوعي دفاعاً حاراً، وكان الأستاذ أحمد سليمان قد أقام له في تلك الزيارة وليمة كبيرة على شرفه ودعا كل أصدقائه من المحامين والسياسيين ووفود الاتحادات العمالية الزائرة للبلاد آنذاك .. كان الاحتفاء كبيراً بمنصور في تلك الزيارة إلى أن سافر عائداً .. وبعد الانقلاب لم يحضر مباشرة، وكانت السلطة قد استحدثت وزارة للشباب والرياضة دون تعيين وزير لها. وكان ذلك موضوع تساؤل وسط الناس، وبعد شهور من الانقلاب فوجئ الجميع بقرار تعيين منصور خالد وزيراً للشباب ثم باستدعاء مهدي مصطفى الهادي من سفارة السودان في أمريكا وتعيينه مستشاراً سياسياً لجعفر نميري !! هنالك معلومات سمعتها من مصادر مختلفة تفيد أن علاقة نميري بمنصور تعود إلى أيام بعثة نميري الدراسية العسكرية إلى أمريكا وأن منصور كان حلقة الوصل بينه

وبين وكالة المخابرات المركزية الأمريكية " C.I.A" .والله أعلم. المهم أصبح منصور وزيراً للشباب وجاء بالأستاذ أحمد عبد الحليم وكيلاً للوزارة، وبعد قليل انفجرت الصراعات بينه وبين اتحاد الشباب التابع للحزب الشيوعي ..

أعود إلى المجيء المفاجئ لمنصور خالد إلى مترلي، فقد دخل مع أبو عيسى والشبلي وجلس، رافعاً رجليه على الطاولة التي بها الأكل والشراب على الطريقة الامريكية، وبعد قليل بدأ الادعاء والتهجم دون أي اعتبار لمشاعر الموجودين : "نحن الماركسيين .. نحن الشيوعيين، بلاش قومية عربية بلا كلام فارغ ..الخ ..."، ورغم أن حديثه كان جارحاً وصفيقاً وأن طبيعتي لا تحتمل مثل هذا الاعتداء، إلا أنني سيطرت على أعصابي، أولاً لأنه داخل مترلي، وثانياً ليقيني أنه غير مبدئي في مواقفه وأحاديثه وإنما فقط مع مصالحه وتطلعاته. فاكتفيت بالاتصال هاتفياً بالأستاذ أبو عيسي في اليوم التالي طالباً منه أنني لن استقبل منصور معهم مرة أخرى. في المرحلة الأولى من عمر الانقلاب، وعندما كان نفوذ الشيوعيين قوياً في السلطة، طرح منصور خالد نفسه شيوعياً ومنظراً ماركسياً، وبعد قليل شعر بأن مركز القوة هو فاروق حمد الله فالتصق به وظلّ يلازمه في أي مكان حتى في مترله.. ومرة أخرى عدت ليلاً إلى مترلنا فوجدت منصور مع الشهيد فاروق داخل سيارته أمام المترل، فحييت فاروق الذي قال لي أنه يريد الأستاذة خديجة صفوت (شقيقة زوجتي) لأمر هام، واتضح لاحقاً أن منصور كان يريد من فاروق أن يقنع خديجة للعمل معه بوزارة الشباب. ودخلنا إلى المترل وجلس الجميع يتسامرون. وعندها استمعنا إلى قرارات



مع ابنه خالد

جديدة في وزارة الخارجية، وكان من بينها تعيين المرحوم الأستاذ جمال محمد أحمد سفيراً في بريطانيا، فكانت مناسبة ليسألني فاروق أبو عيسي إن كنت أود أن أكون سفيراً في باريس أو بغداد أو أي مكان !! وفي الحقيقة كان للأستاذ ابو عيسي نفوذ واسع في تلك الفترة وكان يتصرف باسم نميري وبابكر عوض الله وكان كثيراً ما يردّد أنه "يضعهما تحت إبطيه".. يقصد وزارة الخارجية.

بعد ليلة منصور خالد تلك كانت علاقتي قد بدأت تفتر بالأستاذين فاروق أبو عيسى وأمين الشبلي إلى أن جاءني فاروق يوماً بصفتي سكرتيراً للشئون الوطنية في مجلس نقابة المحامين ليسألني عن النقابة ولماذا هي صامتة عن الذي يجري في البلاد من "تغيير ثوري"؟ فسألته عن الذي يريدني أن أفعله بالضبط، فطلب أن أرتب له لقاءً مع المحامين في دار نقابتهم، وكان لقاءاً عسيراً على فاروق لأن المحامين قاموا بتوجيه انتقادات عنيفة له وللانقلاب ثم لنميري شخصياً ولبابكر عوض الله الذي كان قد اتخذ إجراءات عنيفة في الهيئة القضائية منذ صعوده للسلطة بعد الانقلاب، من بينها إبعاد ٥ قضاة محكمة عليا. فوصفه المحامون لفاروق أبو عيسي بالدكتاتور الصغير في ذلك اللقاء الذي امتد حتى الثالثة صباحاً.. وكان ردّ فعل فاروق هو تصوير أمر ذلك اللقاء بأنه تدبير من شوقي ملاسى بغرض "بهدلته" أي الاستهزاء به أمام المحامين !! وبذلك انتهت علاقتنا ..

في المرحلة الأولى من مايو كانت حركتنا في "منظمات الاشتراكيين العرب" وتنظيمنا البعثي وحركة عبد الخالق (الرافض للانقلاب في الحزب

الشيوعي) خفيفة القيود، رغم قرارات حلّ الأحزاب السياسية ولكن كان الصراع يتزايد يومياً في الحزب الشيوعي .. وأخذنا في عقد ندوات مشتركة يتحدث فيها بدر الدين وعبد الخالق، الذي كان في البداية مترعجاً من تنظيمنا ودرج في تلك الندوات على تسميتنا بـــ "جماعة شوقي وبدر الدين" من باب التصغير !! ويوماً بعد يوم بدأ يزداد اقتناعاً بعكس ذلك، فأصبح يسميها بكل احترام بحركة الاشتراكيين العرب .. غير أن الأزمة بدأت تتفاقم أكثر بعد إعلان السلطة لتنظيمها الخاص، تحت اسم الاتحاد الاشتراكي السوداني ..

تعود قصة الاتحاد الاشتراكي إلى نشاط مجموعة الضغط الثنائية للمرحوم عمر الحاج موسى ومنصور خالد ثم الثلاثية بعد انضمام المرحوم جعفر بخيت إليهما، وكان التبشير عن طريق ندوة عقدوها في الخرطوم تحت اسم "الملتقى الفكري العربي" التي وجهوا فيها الدعوة لكل الأحزاب والفصائل السياسية اليسارية في الوطن العربي، وذلك للتنظير لحكم الحزب الواحد وإضفاء شرعية يسارية – عربية ودولية – على ذلك كضوء أخضر لهم في السودان .. كانت تقف وراء تنظيم وهندسة هذا الهدف بمجموعة الناصريين والأمريكان ومجموعة الشيوعيين المؤيدة لثورة مايو ومجموعة الحزب الاشتراكي الإسلامي أذكر مهم : محي الدين عووضة – منصور خالد – ناصر السيد – بابكر كرار .. وعندما انعقد المؤتمر وطرحوا هذه الأفكار تحدث الأخ محمد إبراهيم نقد حديثاً معاكساً تماماً لأفكار الشيوعيين الآخرين (مجموعة معاوية وأحمد سليمان وأبوعيسى). وكانت فرصتي للحديث بعد نقد مباشرة، وكان من بين ما قلته

أن هذه القاعة (مبنى البرلمان القديم) شهدت حلّ الحزب الشيوعي وطرد نوابه ولكنه ظلّ قائماً، ونحن كاشتراكيين عرب – وحتى لو أصبح الحزب الواحد أمراً واقعاً – سنظل موجودين تنظيماً متحركاً ومناضلاً .. وفي ختام المؤتمر جاءت المقررات جاهزة ومكتوبة وأدعوا فيها أن كل الوفود العربية وافقت على فكرة التنظيم الواحد، بينما كل الأحزاب والوفود (باستثناء مجموعاتهم) كانت قد عارضت الفكرة من بداية المؤتمر إلى نهايته.. وفعلاً فرضوا تنظيمهم فيما بعد. وكان الاتحاد السوفيتي قد تدخل في الصراع داخل الحزب الشيوعي واتخذ موقفاً مضاداً لموقف وخط عبد الخالق وجناحه، بل وأوفد أحد قيادات الحزب الشيوعي السوفيتي إلى الخرطوم دعماً لجناح أحمد سليمان ومعاوية وأبو عيسى وعقد معهم مؤتمراً بالقصر الجمهوري، وبدأت الوثائق بين الجناحين تظهر في العلن وتتداولها مجالس المدينة.

انعكس هذا الصراع أيضاً داخل "هيئة الدفاع عن الوطن العربي" وهي الهيئة التي كانت قد تأسست عقب حرب حزيران ١٩٦٧م بمبادرة من الأحزاب التقدمية والتنظيمات الشعبية والنقابية، برئاسة الشيخ علي عبد الرحمن وسكرتارية تضمني مع الأخ أحمد حبيب (الحزب الشيوعي) والشفيع أحمد الشيخ والأخ بدر الدين مدثر .. وعند زيارة الرئيس جمال عبد الناصر للسودان دعانا الشفيع لاجتماع بدار اتحاد العمال لمناقشة المذكرة التي كنا قد قررنا رفعها لعبد الناصر وصياغتها .. ذهبت للاجتماع ممثلاً للاشتراكيين العرب ووجدت قاعة الاجتماع تغص بالأخوة الشيوعيين تحت لافتات مختلفة (المرأة

- الشباب ..الخ) وكان الأخ أحمد حبيب يقوم بتدوين الحضور والوقائع، وعند دخولي أعلن اسمي كممثل للمحامين فجلست دون اكتراث للصفة، خاصة وأن سلطة نميري كررت إطلاق التحذيرات بعدم الحديث باسماء الأحزاب .. وعندما دخل عبد الخالق وسحب مقعده بعيداً بجوار الباب، قام أحمد حبيب بإعلان اسمه ووصفه بـــ "شخصيات وطنية". فوقف عبد الخالق بانفعال قائلاً : "ايه حكاية شخصيات وطنيه دي ؟ أنا سكرتير عام الحزب الشيوعي. ومن يود الاجتماع معي بهذه الصفة فليجلس، ومن لا يريد ذلك فليخرج .." فسكت الجميع .. وبعد قليل جاء عبد الله النجيب ممثلاً للمحامين، فقمت بإعلان أنني أمثل الاشتراكيين العرب، ثم جاء بدر الدين مدثر .. وعندما بدأ النقاش حول المذكرة قال عبد الخالق أنه يرشح بدر الدين لصياغتها. وعندما حاول المجتمعون مناقشته قام بتكرار اقتراحه وأضاف بحزم (أنه يرشح بدر الدين لصياغتها.) وعندما حاول المجتمعون مناقشته قام بتكرار اقتراحه وأضاف بحزم (أنه موافق مقدماً على ما يكتبه بدر الدين دون الاطلاع عليه) !! وعندما انتهى الاجتماع صعد عبد الخالق معنا في سيارتي وطلب توصيله لمكتب جوزيف قرنق المحامي بعمارة التأمينات العامة. وفي الطريق كان يتحسر بقوله "آخر الزمن أصبح البعثيون أقرب إليّ من أعضاء في اللجنة المركزية !!" وتطورت العلاقة سياسياً وشخصياً بيننا وبين عبد الخالق وانتظمت لقاءاتنا ومعه المرحوم د. عز الدين على عامر وأحياناً الأخ التحاني الطيب، وكان من بين الأفكار التي تداولناها آنذاك فكرة عقد مؤتمر شعبي وفكرة

تأسيس مركز تدريب في منطقة الأغوار بالأردن بالتنسيق مع منظمات الفدائيين الفلسطينيين. وذلك بهدف تأكيد مشاركتنا في العمل الفدائي الفلسطيني. وكانت أشهر الندوات وأكثرها شعبية آنذاك في الجامعات هي تلك التي كان ينظمها الشيوعيون والبعثيون معاً .. ويتحدث فيها عبد الخالق وبدر الدين ..



مع والده ووالدته وشقيقه د. طه ملاسي

(١٢)

١٩ يوليو والاجتماع الطويل الغامض :-

بعد ندوة "الملتقى الفكري العربي" بالخرطوم وإعلان الاتحاد الاشتراكي بدأ هامش الحريات المسموح به لحركتنا وحركة جناح عبد الخالق، بدأ يضيق أكثر وأكثر، وبدأ الحديث عن اتحاد ثلاثي ثم رباعي بين السودان – مصر – ليبيا – وسوريا .. ونتيجة لذلك بدأت الخلافات تظهر داخل مجلس قيادة الثورة، الذي انقسم لكتلتين أساسيتين : الأولى ضمت الأكثر وعياً وجدّية بين أعضاء المجلس وهم الشهداء فاروق حمد الله – بابكر النور – وهاشم العطا. والبقية في الكتلة الثانية كتلة نميرى .. وبرز ذلك الانقسام بصورة أوضح عندما دخل نميري في اتفاق حول مشروع وحدة ثلاثية مع مصر وليبيا، دون الرجوع لمجلس الثورة .. وأذكر أن الاشتراكيين العرب والشيوعيين عارضوا المشروع وقاموا بتنظيم مواكب احتجاج ضده، وقامت مجموعة من العناصر المؤيدة لسوريا بطباعة منشور وتوزيعه هاجموا المشروع ونميري وذلك باسم (حزب البعث)، فاستدعانا فاروق حمد الله بمكتبه بوزارة الداخلية أنا والأخ بدر الدين مدثر وقال لنا أن أحمد سليمان وفاروق أبو عيسى وبابكر عوض الله قد استصدروا قراراً باعتقالكم على أساس إنكم تقومون بأعمال تخريبية وأنهم يضغطون عليه (على حمد الله كوزير للداخلية) لتنفيذ ذلك القرار، فقال لهم أن واجبه في المقام الأول(أن أتحقق من التهمة لثقتي في أنه لا يمكن أن تصدر عنكم تصرفات غير مسئولة ..) قلنا له أننا بالفعل ضد هذا المشروع

وأي مشروع فوقي ومحوري في التعامل مع قضية الوحدة العربية التي نؤمن بها، ولكننا لم نصدر ذلك المنشور .. فصرف النظر عن تنفيذ قرار اعتقالنا ..

في ذلك الوقت كان جناح عبد الخالق قد حسم أمر الانقسام داخل الحزب الشيوعي، بفصل جماعة أحمد سليمان ومعاوية وأخرين بلغ عددهم في اللجنة المركزية حوالي نصف أعضائها ووصل الحقد بهؤلاء المفصولين حدّ الإفشاء بأدق أسرار الحزب الشيوعي لجعفر نميري، وعندما حاول النميري استفزاز الشهيد عبد الخالق، أثناء محاكمته لاحقاً، بسؤاله "لماذا تتقاضى ٢٥٠ جنيهاً من الحزب وهو أكثر من راتب كبار موظفي الدولة؟ وماذا فعلت للشعب مقابل ذلك؟ !!"ردّ عليه الشهيد بهدوء: " قدمت الوعي للشعب السوداني بقدر ما استطعت.."

وفي شهر نوفمبر من ذلك العام (١٩٧٠م) حسم النميري أمر الصراع داخل مجلس القيادة بفصل الشهداء فاروق وبابكر وهاشم من عضويته وإحالتهم للتقاعد واعتقالهم قيد الإقامة الجبرية داخل منازلهم .. وفي اليوم التالي لإعلان ذلك الأجراء التقيت بعبد الخالق في كشك الجرائد بالخرطوم ٢وأبلغته بالمعلومات، التي وصلتني بأنهم قد قرروا اعتقاله هو والسيد الصادق المهدي، مقترحاً عليه الاختفاء. فرفض فكرة الاختفاء، ولكنهم فعلاً استدعوه والصادق ظهر ذلك اليوم وأرسلوهما نفياً إلى القاهرة .. وبعد عودته من القاهرة بدأ اعتقاله يتكرر في أماكن مختلفة، وأذكر في الاعتقال الأول الذي كان في مزرعة في منطقة الباقير إننا ذهبنا لزيارته أنا وبدر الدين، وهناك عرفت

للمرة الأولى أن الماء يمنع أدوات التسجيل من العمل وذلك عندما بدأنا في الحديث معه طلب عبد الخالق أن أصمت وقادنا إلى جانب صنابير المياه داخل المزرعة وفتحها،، وعندما تساءلت مندهشاً قال إنها أبجديات التأمين أن تتفادى أي تسجيل صوتي محتمل لحديثك بواسطة الماء !!. آخر تلك الاعتقالات لعبد الخالق كان داخل مباني مصنع الذخيرة العسكري بمنطقة الشجرة جنوب الخرطوم، وفي ذلك كان واضحاً أن النظام قد اتخذ موقفاً معادياً ونهائياً منه ومن جناحه إذ أنه قام باعتقال كل الكادر تقريباً وأصبح الجو مشحوناً بالتوتر والترقب لأحداث جسيمة ستحدث في البلاد..

في تلك الفترة، وبمناسبة إصدار القانون المدني الجديد الذي أشرف عليه بابكر عوض الله، وكانت زوجتي الأستاذة صفية صفوت في اللجنة التي اشتركت في وضعه، أقاموا حفلاً بمباني البرلمان القديم لتكريم هؤلاء القانونيين الذين ساهموا في وضعه (سودانيين ومصريين) وتوزيع الأوسمة عليهم .. في ذلك الحفل التقيت بالأخ فاروق أبو عيسى الذي بادرني بالعتاب على عدم زيارته وهو مريض بالمرارة، قلت له أنك الآن رجل مهم ووزير خارجية وليس لدي سبيل إليك بكل المعاني .. ألحّ بشدة أن أزوره بمكتبه في الخارجية لأمر هام، فذكرت له شروطي التي وافق عليها فاتفقنا على موعد وذهبت إليه، كان معه في المكتب الأخ والصديق أبوبكر عثمان محمد صالح الوزير والسفير لاحقاً والزميل بحنتوب الثانوية .. وعندما انفردنا قال لي : "نحن يا صديقي نريد توحيد الصف، فلماذا لا تلعبون دوراً في التقريب بيننا وبين عبد الخالق بحكم

علاقاتكم الوثيقة به !! "فقلت له أن هذا حديث غريب، كيف تريد اللقاء بحزب تعتقل قائده في ثكنة عسكرية وكادره في سجن كوبر ؟؟ وأين تريدنا أن نلتقي بهم ونتحدث معهم؟؟ أولاً تطلقوا سراح عبد الخالق وكافة المعتقلين ثم تتقدموا بمثل هذا الطلب .." فأجاب أن هذا كلام صحيح وأنه سيتحدث مع نميري في الأمر .. فأضفت له قولي : ".. وإلى أن تتحدث مع نميري أعمل على تحسين ظروف المعتقلات فقد تدخلوها أنتم أيضاً !!"..

كذلك، ولسبب أخر يخص أحد جيراني، اتصلت بالأخ أحمد سليمان الذي كان وزيراً للصناعة آنذاك، فرد علي بهستيريا عجيبة: " لا تقترب مني ، أنت شيوعي شيوعي جناح عبد الخالق .. و .. الخ . !!" .. كانت تلك المجموعة تعيش حالة من عدم التوازن وكان عبد الخالق شبحاً يؤرقهم ..

كان الأخ المقدم حسين بيومي من الضباط الذين تم فصلهم من القوات المسلحة في وقت سابق ضمن مجموعة فاروق وبابكر وهاشم العطا (وبالمناسبة حسين بيومي وفاروق حمد الله أخوان بالرضاعة).. وكان حسين في تلك الأيام قلقاً ويتوقع انقلاباً ضد نميري وأصبح برنامجه الثابت بعد ظهر كل يوم أن يطوف بسيارته على الوزراء والضباط في منازلهم يتسقط الأخبار والمعلومات ثم يأتيني مساءً في مكتبي .. وأشير هنا أن الأخ اسحق شداد المحامي كان قد طلب مني أن التقي بضابطين من الجيش، فاتفقنا على أن يتناولا معي العشاء بدار نقابة المحامين، وفعلاً التقيت بهما وهما الأخوة : المرحوم عبد الرحيم شداد وعبده مصطفى خليل وجاء معهما ثالث قالوا لي أنه عثمان إبراهيم الضابط

بجهاز الأمن، وأثناء الحديث كانوا يلمحون لحركة سيقومون بها وكنت مندهشاً لتلميحاتهم تلك أمام ضابط الأمن .. وبعد أيام قليلة من ذلك التقيت الأخ عبده مصطفى أمام محكمة أمدرمان فكرر حديثه بأن حركتهم ستكون في الأيام القليلة القادمة .. كان ذلك بالضبط قبل يومين أو ثلاث من ١٩ يوليو ١٩٧١م!!

يوم ١٩ يوليو كان يوماً عادياً، وقبل الثانية ظهراً كان معي السيد/ عبد السلام حمد فضيل (الذي استقال من البرلمان وأخلى دائرته للصادق المهدي كما ذكرت سابقاً) لمتابعة قضية بطرفي تخص المرحوم والده، وذلك عندما دخل علينا حسين بيومي وبدأ فوراً في توجيه نيران حديثه للأخ عبد السلام : "نحن سنقلب الأمور رأساً على عقب ... سنقضي على الرجعية .. الخ. " وفي النهاية تناولنا طعام الغداء معاً ثم افترقنا .. وفي عصر ذلك اليوم كنت أتهيأ للنوم عندما سمعت طرقاً عنيفاً على باب المترل فخرجت لأجد حسين بيومي مرة أخرى !! ماذا تريد؟! قال هنالك انقلاب قد وقع بالفعل .. أدرت مؤشر الراديو ووجدت إذاعة أمدرمان تعمل بصورة طبيعية، خطوط الهاتف أيضاً طبيعية !! نظرت إليه فأقسم على حدوث الأمر قائلاً : "ذهبت إلى القيادة العامة فوجدت دبابتين خارجيتين، وإلى منازل خالد حسن عباس ومأمون وأبو القاسم ووجدت منازلهم بدون حراسة، وهذا لا يعني سوى حدوث انقلاب .." وكان يحمل معه في سيارته كامل ملابسه العسكرية وقد منح نفسه ترقية من مقدم إلى عقيد! عازماً الذهاب والالتحاق بالقوات المسلحة .. قلت له حتى لو

هنالك انقلاب فأنت لا تعرف من القائم به ويجوز أن النميري نفسه الذي قام به (خاصة وأن خالد حسن عباس كان يتململ وأصبح من التوقع أن يقوم نميري بإبعاده).. الخ.. المهم أنني في نهاية الأمر ركبت معه سيارته لنستطلع الأمر وكان أول وضع ملفت نصادفه في شارع الجامعة بالخرطوم في مدخل بيت الضيافة الحكومي (الذي سيشهد المجزرة الشهيرة بعد يومين) إذ رأينا مجموعة من الأشخاص رافعين أيديهم إلى أعلى وهناك من يقودهم لدخول ذلك البيت، ومن بين هؤلاء الأشخاص عرفت ضابطاً وحاولت الحديث معه فزجرنا الجنود وأمرونا بالابتعاد فذهبنا وفي طريقنا في اتجاه جنوب الخرطوم سمعنا المارشات العسكرية من الإذاعة تتخللها إعلانات عن بيان هام من هاشم العطا سيذاع بعد قليل، كان رأى حسن بيومي أن يرتدي الزي العسكري ويذهب للقيادة العامة لكنني أقنعته أن، يسمع البيان أولاً ثم إذا صدر قرار بإعادته للخدمة يمكنه الذهاب بعد ذلك، فوافقني واتجهنا مباشرة لمنزله المطل على ميدان عبد المنعم بالخرطوم جنوب لنستمع معاً للبيان وفي منزله رأيت صوراً مبتذلة من النفاق، فمثلاً هناك عدد من الضباط ممن كانوا يتفادون حتى إزجاء التحية لحسين بيومي وجدتهم يتقاطرون عليه في المنزل مهنئين قبل أن يذاع البيان ودون أن يكون لحسين علاقة واضحة أو معروفة بالحركة كذلك أحد كبار موظفي وزارة الشباب اسمه "جحا" خل علينا ويبدو أنه كان يتوهم أن حسين سيكون وزيراً للشباب في العهد الجديد، دخل علينا مخاطباً حسين: "أنا لدي كافة أسرار ووثائق الوزارة وسأحضرها غداً لسعادتك" بعد قليل جاء

قرار إلى حسين أن يلتحق فوراً بوحدته في الجيش فارتدى ملابسه ووقفنا قليلاً أمام منزله عندما مر هاشم العطا أمامنا ومعه حرس خاص وقام بتحيتنا من داخل السيارة وقال لحسين سنلتقي بالقيادة العامة فيما بعد .. مضى حسين إلى القيادة العامة وذهبت أنا للأخ بدر الدين لأسمع معه بيان هاشم العطا الذي انتظرناه حتى حوالي العاشرة مساءً .. كان هاشم مضطرباً أثناء قراءته البيان ويتصبب عرقاً وجاء حديثه عاماً ولكن بلغة شيوعية واضحة عن الجبهة الوطنية الديمقراطية والحركة التصحيحية ..الخ .. بعد ذلك ذهبت إلى نادي أساتذة جامعة الخرطوم للقاء بعض الأصدقاء ممن كانوا يطلقون على أنفسهم اسم "الأساتذة الاشتراكيين " تمييزاً لأنفسهم عن الشيوعيين، أذكر منهم الاخوة : بشير عبادي – ود العبيد – عون الشريف – بوب .. ولم أجد أحداً منهم، فذهبت إلى حي المطار حيث منازلهم دون أن أجد أحداً منهم في منزله، وهناك تذكرت أن الأخ مأمون داوود كان يسكن في ذلك الحي في فترة من الفترات فتوجهت إليه وطرقت الباب دون تردد لأفاجأ بأن الذي يفتح لي الباب هو صديقي العزيز منذ عهد الصبا ببورتسودان الدكتور يوسف بشارة طبيب الأطفال المعروف وهو من أوائل المفصولين من الحزب الشيوعي بسبب تأييده لانقلاب مايو، وقد كانت تربطه صداقة وثيقة بجعفر نميري منذ أيام حنتوب، واكتشفت أن المنزل منزله هو وأن مأمون داوود كان يستأجره منه .. قال لي الدكتور يوسف أن "الذين تبحث عنهم معي في الداخل"، دخلت ووجدهم يشربون فجلست أشرب معهم بينما بدأ يوسف بشارة يمطرني بالرجاءات أن

أذهب إلى عبد الخالق وأطلب منه ألا يكون عنيفاً في الانتقام من خصومه وأن أروى له عن محاولاته لإصلاح نميري بالنقد والنصح .. الخ!!.. كان يتوهم أن لي علاقة بالانقلاب، وعندما حاولت أن انصرف مع الآخرين ألحّ كثيراً أن أبقى معه حتى الصباح لأنه لن يستطيع النوم.. شرب كل ما عنده ثم قال لي يجب أن نخرج فلم يكن أمامي إلا أن أصحبه إلى كافتيريا النيل الأزرق وهناك أيضاً أفرط في الشراب، والتقينا بزميل الدراسة والصديق الأخ صلاح أحمد خير ابن الأستاذ أحمد خير المحامي، وكان يدير الكافتيريا الأخ فتحي محمود وهو من أقرباء سمير وعبده مصطفى، وباستفساره عن سمير وعبده وبعض الأحوال تيقنت فعلاً أن الذي رأيته أمام بيت الضيافة هو عبده مصطفى وبالتالي تذكرت ليلة العشاء في نقابة المحامين مع عبد الرحيم شداد واسحق شداد وعبده مصطفى ..

كانت الساعة قد اقتربت من الثالثة من صباح ٢٠ يوليو ونحن نتجول بالسيارة بعد خروجنا من كافتيريا النيل الأزرق، وعندما أدرت مؤشر راديو أمدرمان كانت الإذاعة لا زالت تعمل وتذيع بيانات التأييد من مختلف التنظيمات الفئوية التابعة للحزب الشيوعي : شباب – نساء – طلاب .. الخ.. فقلت للأخ يوسف بشارة أنه "وطالما الأمر هكذا سأذهب أنا أيضاً لإذاعة بيان تأييد باسم تنظيم المحامين الديمقراطيين لكي لا يلومنا الاخوة في الحزب الشيوعي، وهي فرصة لك أيضاً لكي تذيع بيان تأييد شخصي قبل أن يلتقيك عبد الخالق الذي تخشاه .." فوافقني وذهبنا .. أمام مدخل الإذاعة وجدنا

المنطقة تعج بالحركة، عشرات الشيوعيين يدخلون ويخرجون، ووصل معنا في نفس اللحظة الأخوة عوض خال العيال ومعه شقيق الأخ عامر جمال الدين مدير البنك الزراعي آنذاك، دخلت معهما بينما رفض يوسف بشارد قائلاً أنه قد غيّر رأيه .. في منتصف فناء الإذاعة وجدنا الأخ محمد خوجلي صالحين يجلس إلى طاولة كبيرة وعندما رآني نهض يهتف تجاهي :"أهلاً بالثوار، أهلاً بالأحرار، قمتم بتخليصنا من الطاغية، تفضل يا شوقي فالمايكرفون تحت تصرفك ..!! الخ .. قلت له سأكتب لك بياناً فقط ولست مذيعاً، وبالفعل كتبت بياناً باسم المحامين الديمقراطيين بصيغة قانونية تشترط التأييد بكفالة الحريات العامة واستقلال القضاء .. الخ..

وبعد الشروق ذهبت إلى المحكمة لأجد إعلاناً بتوقيع الأخ سليم عيسى المحامي عن اجتماع للمحامين بدار النقابة في نفس ذلك اليوم.. وهناك وجدت تجمعاً كبيراً كان البارزون فيه هم المفصولون من الحزب الشيوعي لأنهم كانوا الأكثر حرصاً ومصلحة في ركوب موجة ١٩ يوليو .. وكان محور الحديث هو تنظيم موكب التأييد، وكانت دهشتي نابعة من أن الأخ طه إبراهيم جربوع كان هو الأكثر حماساً بينما كان قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بأبو القاسم محمد إبراهيم لدرجة أنه كان ينطق باسمه، وكان عضواً بمجلس نقابة المحامين، وأذكر عندما صدرت قرارات نميري في نوفمبر التي أبعد فيها فاروق وهاشم وبابكر من مجلس الثورة أن دعا مجلس المحامين لاجتماع ورفض طه جربوع أن يحضر ذلك الاجتماع ومعه عبد الله النجيب الذي كان يؤيد مايو

بشدة أيضاً، ولأن ذلك الاجتماع أدان قرارات نميري في نوفمبر، فعندما سمع الأخ طه جربوع بتلك الإدانة ذهب ومعه عبد الله النجيب إلى الأستاذ عبد الوهاب أبو شكيمة (وكان هو سكرتير النقابة على ما أعتقد) ومولانا المرحوم هنري رياض وطالبوا بعقد اجتماع استثنائي عاجل، وفي ذلك الاجتماع قال طه جربوع أنه يطالب بإلغاء قرار الإدانة وتمزيق محضر الاجتماع السابق الذي تمت فيه الإدانة وألا فان ابو القاسم محمد إبراهيم سيضرب بيد من حديد ولن نستثني أحداً !! وفعلاً رضخت الأغلبية لذلك الطلب الغريب وأحرقوا المحضر !!.. وأذكر قبل ١٩ يوليو أيضاً أن طه كان كثير الشتيمة لعبد الخالق بمناسبة وبدون مناسبة خاصة أثناء جلساتنا في الأمسيات بدار النقابة، والآن (يوم ٢٠ يوليو) يريد هو ومجموعته أن يغسلوا كل ذلك في لحظة !!؟ فكان مضمون حديثي في اجتماع ذلك الصباح – ٢٠ يوليو – أنه من الخطأ الجسيم أن نعلن التأييد المطلق كلما جاء عسكري على السلطة بانقلاب، وحتى في حالة وجود تأييد يجب أن يكون مشروطاً بالشروط التي تتعلق بطبيعة مهنتنا وواجبات نقابتنا تجاه الحقوق والحريات العامة واستقلال القضاء .. الخ .. وخرجت من الاجتماع..

كان الأخ الفاتح المقبول أحد العسكريين المفصولين الذين أعادتهم ١٩ يوليو إلى الخدمة منذ يومها الأول وتم تكليفه بحراسة مطار الخرطوم مع آخرين فاستأذنني أن يتردد على منزلي الذي أصبح مجاوراً للمطار بمنطقة العمارات سواء للراحة أو تناول وجبة .. وبعد خروجي من اجتماع المحامين

جاءني الأخ حسين بيومي واقترح أن أذهب معه لوزارة الداخلية لنتحدث مع فاروق حمد الله هاتفياً لمعرفة رأيه في هذا الذي حدث (والمعروف أن فاروق وبابكر النور كانا في لندن في زيارات خاصة عند حدوث ١٩ يوليو) وفعلاً اتصلنا بلندن ولم نجد فاروق .. وفي المساء أبلغني عدد من المحامين أن عبد الخالق يبحث عني بالحاح .. وكانت هناك معلومات قد راجت بأن المصريين سيقومون بعملية إنزال جوي لمصلحة نميري يكون فيها خالد حسن عباس الذي انتقل في ذلك اليوم من لندن إلى القاهرة بطائرة "لونرو" (تايني رولاند) عن طريق براغ وكانت هناك قوات سودانية في قناة السويس، ولذلك كنت قد ناقشت الموضوع مع الفاتح المقبول باعتباره مسئولاً عن المطار، ومع ذلك جاء الفاتح إلى منزلي للاستراحة في مساء الثلاثاء ٧/٢٠ أو الاربعاء ٧/٢١ لا أذكر بالضبط وهو يحمل معه عدداً من جوازات السفر المصرية، استفسرته عن الأمر فقال لي أن طائرة مصرية طلبت الإذن بالهبوط في مطار الخرطوم وعندما رفضت الطلب اتصلوا بطريقة ما بهاشم العطا الذي حضر بنفسه على المطار وسمح للطائرة بالهبوط !! تفحصت الجوازات ووجدت من بينهم الأستاذ أحمد حمروش الصحفي والضابط السابق، ثم الأستاذ أحمد فؤاد العضو القيادي السابق بالحزب الشيوعي المصري (حدتو) والذي عيّنه الرئيس عبد الناصر مديراً لبنك مصر مكافأة له لأنه كان يقوم بطباعة منشورات الضباط الأحرار، والثالث اسمه حسن بليل أو فؤاد حسن بليل الذي اتضح لاحقاً أنه كان مديراً أو نائباً للمدير في الاستخبارات العسكرية المصرية ثم أصبح الوكيل الأول

للخارجية قبل أن يتقاعد .. الخ.. سألته عن بليل هذا – وكانت مهنته المكتوبة في الجواز "سكرتير ثالث بالخارجية" – فقال أن أحمد حمروش وأحمد فؤاد رافقا هاشم العطا إلى القيادة العامة أما بليل فقد ذهب بمفرده إلى السفارة المصرية حسب قوله !! فطلبت منه أن يأخذني على هاشم العطا فوراً لأن بليل هذا مثير للشك في أنه يحمل خطة انقلاب مضادة لإعادة نميري..

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساءً والجو ممطراً عندما ذهبنا إلى القيادة العامة واستطعنا الدخول رغم نسيان الفاتح المقبول لكلمة السر (سر الليل) للوهلة الأولى، وعندما قال له الحارس : "ليلتنا" رد عليه فوراً "خضراء" فسمح لنا بالدخول مما يعني أنه كان على الداخل أن يقول العبارة كاملة "ليلتنا خضراء".. المهم دخلنا وكان الصمت مطبقاً على القيادة و لم يعترضنا أحد إلى أن صعدنا مكتب القائد العام وهناك وجدت ضابطاً من أقربائي آل حمو وعمر الدرديري إسماعيل وحسين بيومي وأحد أبناء آل الملك وعدد آخر إضافة إلى إبراهيم سيد أحمد أركان حرب هاشم العطا آنذاك ومسئول مقابلاته والذي أبلغه الفاتح رغبتي في لقاء هاشم لأمرهام .. وحسب رغبة هاشم جلسنا ننتظره ريثما ينتهي من لقائه بأحمد حمروش وأحمد فؤاد ونحن نستمع لإذاعة لندن وأخبارها عن أحداث السودان .. طال انتظارنا حتى حوالي الثالثة صباحاً فتضايقت للغاية وطلبت من إبراهيم سيد أحمد أن ينقل رجائي لهاشم العطا بأن يعطيني فقط ٥ دقائق لأن الأمر أمر حياة أو موت لهم ولحركتهم، فكانت إجابة هاشم غريبة للغاية مفادها أن أترك رقم هاتفي وهاتف الأخ بدر

الدين وأعود إلى مترلي وأنام ليتصل هو بنا لاحقاً !! فاكتفيت بأن طلبت من إبراهيم أن يبلغ هاشم العطا قولي : " الله يعوضنا وإياكم .. حقنا كلنا راح " ومضيت ..

كان موعد خروج مواكب التأييد الشعبي لحركة ١٩ يوليو في ذلك اليوم "الخميس" بقيادة الاتحاد العام لنقابات العمال الذي كان بعض زعمائه كالأخ الحاج عبد الرحمن وآخرين يريدون التغطية على موقفهم الانقسامي بذلك التأييد الواسع للحركة .. وكانت الإشارة التي تركها لي عبد الخالق بواسطة بدر الدين هي أن التقيه بمترل كمال رمضان بامتداد الدرجة الثانية في تمام الواحدة بعد الموكب وأنني سأجد الباب الخلفي مفتوحاً، انتظرته حتى الثانية والنصف فقررت أن أذهب إليه لاحقاً في مترله وخرجت .. وفي طريقي مررت بالأخ صلاح عبد الله صاحب كاميرا آرتست وأحد زعامات الأخوان المسلمين ولكنه أحد عملاء مكتبنا بحكم قرابته بالمرحوم عقيل أحمد عقيل، وبينما كنا نتحدث حول الحركة وهو يقول لي أنها لن تعيش طويلاً دخل علينا المرحوم محمد نور سعد الضابط الكبير بالجيش آنذاك وكرر نفس رأي صلاح وأضاف أن هناك أمراً مضاداً لها سيحدث قريباً .. ذهبت إلى مكتبي وأثناء خروجي منه التقيت الأخ الطاهر عوض الله ، وكانت هنالك صدامات قد وقعت بين الناصريين والشيوعيين أثناء موكب ذلك اليوم، وكان للناصريين مكتب بأحد منازل آل كشه في مواجهة جامع فاروق بوسط الخرطوم تحت اسم "جمعية الدراسات العربية" وكانوا يديرون عملياتهم من هناك .. وكان

الطاهر عندما التقيته يرتجف خوفاً، يريد الذهاب إلى موقف بصات الجريف غرب ولكنه خائف من أن يعترضه أحد الشيوعيين، فأخذته معي بسيارتي وهو يهذي بأن قوات إنقاذ مايو قادمة من ود مدني والقاهرة !!.. الخ.. وعندما وقفت عند موقف البصات جوار الجامع الكبير سمعت شخصاً ملثماً بعمامته يناديني فاقتربت منه لأجده الأخ يوسف عبد المجيد سكرتير القيادة الثورية للحزب الشيوعي (الجناح الصيني) والذي كرر أيضاً رأيه بأن ١٩ يوليو في طريقها إلى السقوط وأضاف أنه في طريقه للاختفاء .. وكنت قد التقيت قبل ذلك في الموكب الأخ محمود عتباني ذو العلاقات الحميمة بالمصريين وألمح أيضاً أن أمراً جللاً سيحدث.

(١٣)

... واحترقت ١٩ يوليو

كان الخبر الأكثر أهمية في ذلك اليوم (الخميس ٢٢ يوليو) هو إجبار السلطات الليبية لطائرة الخطوط البريطانية على الهبوط في ليبيا واعتقال فاروق حمد الله وبابكر النور، اللذين كانا على متنها في طريقهما من لندن إلى الخرطوم .. كذلك كان من المفترض أن تصل الطائرة العراقية، التي كانت تقل الوفد الرسمي والحزبي العراقي، ومن ضمنه رفيقنا محمد سليمان الخليفة، عضو القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي. وعندما ذهبنا باكراً إلى المطار لنكون في استقباله أخطرونا أن الطائرة ستتأخر .. وأذكر أننا كنا قد وجدنا والدة محمد سليمان، الحاجة فاطمة بنت الأمير يونس ود الدكيم، وهي تبكي وتعتقد أن ابنها قد مات. فحاولنا تهدئتها بأن الموضوع مجرد تأخير في موعد الطائرة، إلا أنها واصلت البكاء مؤكدة أنها رأت ذلك في الحلم وأنه حقيقة .. وكان حلمها حقيقة بالفعل.

عدت إلى منزلي ووجدت الأخ بدر الدين في انتظاري. واستمعنا معاً للاذاعات ومن بينها إذاعة القاهرة، التي كانت تذيع أنباءً عن قتال يدور في شوارع الخرطوم سقط فيه أعداد من القتلى والجرحى !! .. وفي نفس اليوم وصلتني إشارة أخرى من عبد الخالق يطلب فيها أن أقابله بمنزل سمير جرجس (وهو قبطي من كوادر الحزب الشيوعي) في حي الزهور، وهناك وجدنا الأخ جرجس ومعه الأخ الجزولي سعيد وعدد من الأخوة الشيوعيين. وسألناهم عن

عبد الخالق فقالوا أنه سيتناول طعام الغداء بدعوة من حسن التاج بمترله بجوار النادي العربي بالخرطوم، ولأن رجل الأعمال حسن التاج صديق عزيز وزميل دراسة، فلم أتردد في أن نذهب إليه مباشرة لنجد الأخوة الشيوعيين هناك في حالة احتفال كبير بالذبائح والمشروبات من كل نوع بالصناديق، وعلمنا منهم أن عبد الخالق قد ذهب إلى مترل السيدة سعاد إبراهيم أحمد فتوجهنا إلى هناك ووجدنا عدداً من قيادة الحزب الشيوعي من بينهم : جوزيف قرنق، محمد إبراهيم نقد، والتجاني الطيب. وقالوا لنا أن " عبد الخالق لم يصل بعد ولكن إذا كان موضوعكم عاجل فيمكنكم مناقشته مع الأخ نقد .." فانفردنا بالأخ نقد. وقلت له أنني لا أعلم ماهو الموضوع الذي يريدني فيه عبد الخالق. ولكن الأمر الهام والعاجل وهو (ذكرت له أمر الوفد المصري وعدم انتباه هاشم العطا لما يجري لدرجة الاجتماع مع أحمد حمروش لأكثر من ١٠ ساعات متواصلة في مثل هذه الظروف، اضافة إلى معلوماتنا عن العمل المضاد الذي يجري وأن كلمة السر فيه: "عائد عائد يا نميري !!)..

- وماذا تقترح ؟ - سأل نقد ..
- قلت : اقترح تقديم رأس النظام (نميري) لمحاكمة شعبية عاجلة ومفتوحة ينقلها التلفزيون وتنفيذ ما يصدر من حكم فوراً وعلناً حتى لو كان اعداماً ..

- نقد : انتم بعثيون فاشيون .. نحن نحتفظ بجعفر نميري لنفدي به بابكر النور وفاروق حمد الله، وقد أكد لنا الاتحاد السوفيتي العظيم أن السادات لا يستطيع تحريك طائرة واحدة من مصر دون موافقتهم. أما القذافي فهو رجل "هايف" لا شيء لديه !!

في اللحظة التي قال فيها نقد ذلك سمعنا دوي انفجار ضخم لقذيفة دبابات (دانة) فاستأذن نقد بحجة أنه يريد استطلاع الأمر وخرج دون أن يتحدث مع بقية رفاقه وانطلق بسيارته الفولوكسواجن. ولم أقابله مرة أخرى إلا في القصر الجمهوري بعد انتفاضة مارس / أبريل ١٩٨٥م.

خرجنا أنا وبدر الدين من منزل السيدة سعاد إلى الأخ العقيد طيار سعيد كسباوي بمنزله جوار مقابر فاروق، ووجدنا معه الأخ كمال رمضان، واقترحوا أن نذهب إلي القيادة العامة لمعرفة ما يجري لأن خطوط الهاتف لا تعمل بصورة جيدة، فذهبنا جميعاً بسيارة واحدة لنجد المعارك حامية داخل مباني القيادة العامة للجيش. ولكن كانت قوات هاشم العطا (قوات حركة ١٩ يوليو) المكلفة بحراسة القيادة العامة قد بدأت في الاستسلام، حيث شاهدنا بعض أفرادها يلقي السلاح ويستبدل الملابس العسكرية بملابس مدنية لينصرف .. قال سعيد كسباوي أن الجهة القادرة على حسم هذه المعارك هي "كتيبة

الزعيم جعفر" بأمدرمان لأنها قوات خاصة، وهي الوحيدة التي تمتلك مدفعاً مضاداً للدبابات يستطيع اغلاق جسر النيل الأبيض (كوبرى امدرمان) ويمنع انتقال القوات بين الخرطوم وامدرمان .. وعليه انطلقنا إلى امدرمان. وعندما اقتربنا من مدخل الجسر وجدنا دبابة T 55 تسير أمامنا ثم مدرعة من نوع "صلاح الدين"صغيرة كانت داخل الجسر، أطلق قائدها قذيفة في اتجاه الدبابة الكبيرة بمجرد ظهورها ووقعت القذيفة في النيل وقفز من المدرعة، فاطلقت الدبابة طلقة واحدة دمرت بها المدرعة صلاح الدين تماماً .. هنا قال سعيد كسباوي أن الأمر أصبح في غاية التعقيد، وطالما أن جماعة نميري معهم هذه الدبابة ودخلوا بها الجسر فإن الوسيلة الوحيدة لمقاومتها هي قذفها بطائرة هليكوبتر !! وفي هذا أعود إلى الوراء لأذكر واقعة ذات دلالة هامة، ففي وقت سابق من تلك اللحظات كانت الأخت، الأستاذة خديجة صفوت، تحاول الاتصال هاتفياً بالقيادة العامة عندما التقطت محادثة أخرى وقامت بتسجيلها في شريط كاسيت .. كانت تلك المحادثة بين هاشم العطا من مكتب القائد العام والطيار الحربي صبري أرباب في قاعدة وادي سيدنا الجوية بشمال امدرمان، ومنها :

صبري أرباب : يمكنني اصدار الأوامر لطائرات الهنيلكوبتر بقصف الدبابات المعادية واخراجها من المعركة في لحظات ..

هاشم العطا : لا .. مهما حدث ويحدث فأنا ضد وقوع مجزرة دموية في الخرطوم قد تطال المدنيين..

لم يكن أمامنا الاستمرار أكثر من ذلك، فعدنا إلى منزل سعيد واتفقنا أن يذهب كل منا إلى حال سبيله وتدبير أمنه الشخصي .. فعدت إلى منزلي ومعي بدر الدين. وأذكر أن أول شئ فعلته هو التخلص من مسدس كنت أملكه، وجاءني بعد قليل الأخ الأستاذ الطيب أبو جديري المحامي، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، بينما كانت زوجتي قد ذهبت إلى منزل أهلها، فجلسنا نتابع ارسال التلفزيون السوداني وشاهدنا نميري بعد قليل يطلّ على الشاشة ثوراً هائجاً وبدأ حديثه المشهور .. إذن ذهبت كل المحاولات واللهث لتثبيت ١٩ يوليو ادراج الرياح، وأصبح لزاماً علينا أن نختفي ولو لفترة، فذهبت مع بدر الدين، بسيارته الفلوكسواجن، التي كانت أول سيارة حزبية كنا قد اشتريناها بمبلغ مئتي جنيه، إلى منزل عمته جوار محطة بنزين الغالي بالديوم الشرقية، وتركنا السيارة على بعد حوالي نصف كيلومتر من ذلك المنزل و لم نجدها حتى الآن .. قامت الأسرة الكريمة باستضافتنا وتخصيص غرفة وجهاز راديو لنا. فقضينا ليل ذلك الخميس وطوال يوم وليل الجمعة ونحن نتابع اخبار المجازر التي نصبها نميري وعصابته .. وفي الصباح الباكر من يوم السبت جاءني الأخ سليمان مدثر، شقيق بدر الدين، ليبلغني خبر اعتقال زوجتي كرهينة إلى أن أقوم بتسليم نفسي لجهاز الأمن !!

كنا في حاجة لمعلومات أكثر، فذهبنا إلى امتداد الدرجة الثالثة قاصدين منزل الأخ يوسف همت، باعتباره مصدر معلومات بحكم عمله في بنك مصر مع عدد من كوادر الناصريين مثل الأخوة : ميزو، وحسن عثمان،

الذي أصبح مديراً لمكتب اللواء خالد حسن عباس لاحقاً، وغيرهم .. وفوجئنا بهم كلهم في مترل يوسف. وقالوا لنا أنهم قاموا بتوصيل سيارة يوسف همت لمترله لأن جهاز الأمن قد اعتقله، ثم خرجوا .. فافترقنا أنا وبدر الدين. واستطعت أن أصل إلى مترلنا بالعمارات بسيارة تاكسي. وعلمت من سائقها أن المعارك لا زالت تدور داخل الخرطوم في شكل اطلاق كثيف للنيران من على أسطح المباني والشوارع فيما يشبه طريقة "القناصة"، وبعد دقائق قليلة من دخول المترل شعرت بدخول عساكر للمترل وسمعتهم يفتشون المترل ويحركون اثاثاته ثم خرجوا دون أن يلتقوني، وبعدها أعادوا زوجتي إلى المترل وعلمت منها أنهم نقلوها من جهاز الأمن القومي إلي الأمن العام التابع لوزارة الداخلية، وكان مسئول الأمن العام هو الأخ المرحوم خليفة كرار، الذي تعود معرفتي به للمرحلة الابتدائية ثم تطورت علاقتي به لدرجة الصداقة الخاصة من خلال نشاطاتنا في دعم الثورة الاريترية ورجالها سياسياً وعينياً. وهو من موقعه في الأمن العام كان يقوم بتمرير الاسلحة الواردة للثورة من العراق .. المهم أن المرحوم خليفة كرار وبمجرد دخول زوجتي لمكتبه أمر رجاله باعادتها إلى مترلها فوراً .. بعد ذلك بدقائق جاءت قوة من الأمن. وفوجئت بأن قائدهم هو الضابط عثمان إبراهيم، الذي حضر مع الضابطين عبده مصطفى وعبد الرحيم شداد للالتقاء بي في نقابة المحامين بصحبة الأخ اسحق شداد المحامي، كما أشرت في صفحات سابقة !!، وكان معه ضابطين آخرين، أحدهما ابن اللواء الكمالي الذي كان يحمل ضغينة شخصية تجاه أهل زوجتي حول استئجار

مترل، والآخر ضابط من مباحث الشرطة (مشلخ دنقلاوي) كنت التقيه دائماً أما في مباريات نادي المريخ الهامة، كمشجعين له، أو في المحاكم بحكم عمل كل منا .. أشهر الدنقلاوي مسدسه في وجهي فزجره عثمان إبراهيم بأن هذا غير صحيح مع شخص غير مسلح، ولم يحاول المقاومة .. بعدها طلب ود (ابن) الكمالي تفتيش المترل. فاعترض عثمان إبراهيم أيضاً. بحجة عدم وجود أوامر بالتفتيش. وقد ارتحت لذلك كثيراً لأنني كنت أخفي حوالي ٥٠٠ نسخة وصلتني للتوّ من كتاب جديد للاستاذ ميشيل عفلق بعنوان "نقطة البداية" وكتب أخرى .. وعندما تهيأت للذهاب معهم طلب ود الكمالي من زوجتي أن ترافقنا تحت تهمة التستر على شخص مطلوب للقبض، ولم تكن اعتراضات وأوامر عثمان إبراهيم هذه المرة ذات جدوى أمام الاصرار الغريب من ود الكمالي. فحسمت زوجتي الموقف بأن قررت الذهاب معنا بعد أن وصفته بجهل القانون، باعتبار أنه لا يدين المرأة في التستر على زوجها .. وذهبنا معهم. وفي مدخل مباني الأمن العام وجدنا المرحوم خليفة كرار، الذي انفعل في وجه رجاله عندما رأى زوجتي وقد أعادوها مرة أخرى بعد قراره اطلاق سراحها. فاعتذر لنا وقادنا إلى غرفة صغيرة كانت تجلس بداخلها ضابط الأمن الشهيرة "حفصة عبادي" (التي تمت ادانتها لاحقاً بعد انتفاضة ابريل ١٩٨٥ مع رجال أمن آخرين في قضية تعذيب البعثيين) فأرسلها خليفة كرار لاحضار شاي وساندوتشات وقال لنا أنه قصد بذلك أن يمنحني فرصة إذا كانت لدي أية وصايا خاصة أود توصية زوجتي بها .. ثم أصدر أوامره باعادتها إلى مترلنا وأمراً

آخر بنقلي إلي وزارة الداخلية، التي وجدتها تفيض بحشود من المعتقلين وكان أول مشهد رأيته هو منظر المرحوم عوض الصايغ، التاجر المشهور بامدرمان، وهم يقتادونه ويداه مقيدتان من خلف ظهره .. أخذوني مباشرة لضابط فوجئت به تماماً. فقد كان من مجموعة فاروق حمد الله ومن المخلصين له وكان من مرافقيه ضمن الوفد الشعبي والرسمي السوداني الذي سافر في يوليو ١٩٦٩م إلى بغداد للمشاركة في الاحتفال بالعيد الأول لثورة ١٧ يوليو هناك، استقبلني الرجل وأكرمني بالشاي والسجاير وقال دون أي تحقيق "للأسف سنذهب إلى سجن كوبر". فقلت له "ذلك أفضل من غيره" في اشارة إلى المشانق .. في وزارة الداخلية رأيت أيضاً الاخوة : محجوب سيد أحمد والصحفي الوليد إبراهيم والمحامي سليم عيسى، كانوا يحققون معهم ثم لحقوا بي مع آخرين في الحافلة التي أقلتنا إلى سجن كوبر. وعند مدخل مبنى الوزارة وجدت صديقي العزيز مصطفى عبد القادر المحامي، واستطعت ابلاغه اننا ذاهبون إلى كوبر .. وطوال الطريق من الوزارة إلى السجن لاحظنا آثار المعارك والخراب في الشوارع، التي خلت تماماً من الناس والسيارات .. وصلنا سجن كوبر بالخرطوم بحري عند المغيب. وأمام البوابة الرئيسية له وجدنا مدير السجن، القمندان "زكريا واني" – وهو من أبناء جبال النوبة وزميل دراسة – جالساً على كرسي. وفي مكاتب ضباط السجن أخذوا ساعات اليد التي معنا وكل ما في جيوبنا وأعطوا كل منا "نمرة" (وهي قطعة برش للنوم عليها أرضاً وبطانية منهالكة وقدح (سلطانية) لاستعمالها في كل شئ : اناءً للأكل وكوباً لشرب

الماء والشاي .. الخ.. ثم جاء الأخ زكريا مدير السجن وقال لي أذهب مع فلان وفلان إلى المدرسة (أحد أقسام السجن) وهي عبارة عن مبنى مربع به الزنازين وحوله حوش. وبالداخل وجدنا عدداً من المعتقلين، من بينهم محمد عثمان محجوب، الموظف بوزارة التجارة، والأخ نديم، من الجامعة، وصلاح الزبير ومحجوب شريف وآخرين .. ومنذ الليلة الأولى لاحظنا أن أفراد الحراسة الذين يطوفون فوق أسوار السجن للمراقبة هم من القوات المسلحة وليس السجون، وبدأنا في تنظيم حياتنا في حدود المكان. وكنا أنا ومعي سليم عيسى ومحجوب شريف قد انتظمنا في رياضة المشي بالطواف حول مبنى الزنازين صباحاً ومساءً. وفي أثناء ذلك رآني أحد جنود الحراسة وناداني باسمي وعرّفني بنفسه وأنه كان يقوم بخدمات الشاي والقهوة في جنينة السيد علي أثناء اجتماعنا كمكتب سياسي لحزب الشعب الديمقراطي، ولاحقاً قام هذا الأخ بتقديم خدمات ممتازة لنا بجلب الاحتياجات الهامة وتوصيل رسائل عائلية وغير عائلية .. ومن اللحظات التي لا أنساها في أيامنا الأولى بالمعتقل لحظة سماعنا نبأ اعتقال الشهيد عبد الخالق ومحاكمته واعدامه فوراً والوجوم الذي أصاب المعتقلين، خاصة الشيوعيين، والصمت المطبق الذي ساد بيننا لمدة يومين تقريباً ولدرجة أن كل حبوب النوم والادوية المهدئة التي جلبها الطبيبان نصيف وعمر حمزة معهما إلى المعتقل قد انتهت منذ اللحظات الأولى لذلك النبأ..

بدأت الحياة الطبيعية تعود للمعتقل مع الأيام، إلى أن كان يوم ١٧ أغسطس، عندما فوجئنا بقوة من الحرس الجمهوري تدخل علينا وينتشر

أفرادها داخل المكان وعلى الأسطح والأسوار شاهرين رشاشاتهم وأمرونا بالوقوف صفاً بمحاذاة حائط السور .. وبعد لحظات دخل جعفر نميري وابو القاسم محمد إبراهيم، عيونهم محمرّة، ورائحة الخمر تنبعث منهم بقوة، وخلفهما حاشية وحرس خاص .. وقف نميري ينظر إلينا فرداً فرداً وفي يده عصاه يضرب بها ساقه اليمنى، ثم قال : "لا تعتقدوا أننا قد اعتقلناكم عبثاً. فلكل واحد منكم تهمة محددة". بينما كان بيننا عدد من المعتقلين اعتقالاً عشوائياً لا علاقة لهم ولا فكرة بما حدث ولا اهتمام بالسياسية !!، ثم توجه نحوي قائلاً : "شوقي ملاسى، أهلاً بالبعثي رقم واحد .. أخرج من الصف وقف هنا جوار أبو القاسم" .. وعندما اقتربت من حيث يقف سألني أبو القاسم بطريقته العدوانية اللئيمة : "ماذا كانت تحمل الطائرة العراقية التي احترقت ؟" قلت له " لا أعرف"، وبالفعل لم تكن لدينا أية معلومات حتى عن نبأ احتراقها أو اسقاطها !! فقال "سنريك" .. وفي تلك اللحظة كان نميري قد توقف أمام الأخ صلاح الزبير، وصلاح الزبير رجل مهذب وودود وليست لديه ارتباطات حزبية سوى صداقته الشخصية القوية بالأخ ابوزيد محمد صالح ومجموعته. سأله نميري : " ياصلاح يا وزير مالية عبد الخالق، اخرج وقف بجوار شوقي ملاسى".. ولاحقاً عرفنا أنهم عثروا على قصاصة من الورق بخط الشهيد عبد الخالق تحتوي على ترشيحات لحكومة ١٩ يوليو .. وبعد قليل خرج الرجلان واعتقدنا أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد، إلا أنهم قاموا باستدعائنا إلى مكتب القمندان (مدير السجن) حيث وجدنا كل المعتقلين من

مختلف اقسام السجن يقفون في صفوف طويلة، إلا أن الحرس أمرونا أنا وصلاح الزبير أن نقف منفردين عنهم ضد رغبتنا قائلين أن لديهم أوامر بذلك باعتبارنا "ناس خطرين" !! جلس نميري على طاولة مدير السجن وبجواره ابو القاسم ويقف خلفهما ميرغني أبو الروس، نائب مدير عام مصلحة السجون، ثم الحرس الخاص، وكان ينادي المعتقلين باسمائهم ويسأل كل واحد بعض الأسئلة. بدأ ببعض الشيوعيين، أذكر منهم : صلاح مازري – قريب الله محمد حامد .. وعندما جاء دوري (كنت الخامس) أجلسوني على الكرسي المواجه لنميري ودارت أسئلته حول علاقتي بالأخ محمد سليمان الخليفة، لأنهم "وجدوا وثيقة خطيرة هي مفكرته الشخصية" وبها اسمي ورقم هاتفي !! فكنت أقول له إنه صديقي .. فالتفت إلى أبو القاسم وسأله إن كانت لديه أسئلة لي، فقال لي أبو القاسم: "انك فاتح مكتب للحزب وليس للمحاماة" قلت له أنت وزير الداخلية وقمت بقفل وتشميع مكتبي وهو تحت سيطرتك الآن ويمكنك تفتيش كافة الملفات والوثائق وستجد أنني المحامي والمستشار القانوني لأهم الشركات والبيوتات التجارية الوطنية ومنهم آل مصطفى ساتي – وآل ابو العلا – والشيخ مصطفى الأمين، ويمكنك معرفة دخل المكتب وحجم الضرائب التي أسدّدها للدولة .."

وهنا تدخل النميري قائلاً :"ياشوقي، ما عايز تقول كلام ينفعك؟" والسؤال يوحي في ذلك الموقف أنهم قد حكموا عليّ مسبقاً بالاعدام !!، قلت له ليس لدي شئ أقوله سوى الاجابة على أي سؤال في حدود ما أعرف ..

فقال ضاحكاً : " إذاً ما عندي معاك ونسه بعد ده". وهذا يوحي بالانفراج، مما جعلني انتقل من الشعور إلى ضده بصورة مزعجة، ثم التفت فجأة للسيد ميرغني ابو الروس وقال له بعصبية :"خذوه إلى زنازين الاعدام الانفرادية. "فلم اتمالك و لم اضبط نفسي من الانفجار في وجهه بمختلف الشتائم، إلى أن انتزعني الحراس وقادوني عبر أقسام "الشرقيات" و"المعاملة" إلى زنازين الاعدام في "البحريات".

من داخل زنزانتي في البحريات شعرت بحركة في الزنزانة المجاورة. فتحدثت مع الموجود فيها، فاتضح لي أنه حسن قسم السيد، الذي قال لي أنه كان في قسم السرايا ولكنهم وجدوا عنده قلماً وورقة فكانت العقوبة هي تحويله إلى هنا، ومعه بنفس التهمة بدر الدين مدثر الموجود في احدى زنازين الصف الخلفي .. فكانت معلومة جديدة بالنسبة لي أن بدر الدين ايضاً تمَّ اعتقاله .. وقبيل وقت المغرب جاءوا ببقية المعتقلين ومعهم الحاج عبد الرحمن – والدكتور الحارث حمد – صلاح الزبير – صلاح مازري – والفنان محمد وردي .. الخ، واختار صلاح الزبير أن يكون معي في زنزانتي لأن قرارهم كان توزيع كل اثنين في زنزانة لكثرة عددنا لحسن الحظ ..

أتوقف هنا لتسليط الضوء على قصاصة ورقة ترشيحات وزراء حكومة ١٩ يوليو التي وجدوها عند عبد الخالق. وذلك فيما يخص ترشيح محمد سليمان، لأن البعض يعتقد أن محمد سليمان المقصود في تلك الترشيحات هو الأخ الدكتور محمد سليمان، القيادي الشيوعي، بينما المقصود هو الشهيد

محمد سليمان الخليفة .. فقد علمت لاحقاً – وأكد ذلك كل من الاخوة : العميد طيار سعيد كسباوي (لواء بالمعاش يعيش الآن في نيوزيلندا) وطارق العاني، الدبلوماسي العراقي آنذاك في الخرطوم – أن الشهيد عبد الخالق طلب مقابلة أركان السفارة العراقية في الخرطوم يوم ٢٠/٧، وبالفعل تمّ اللقاء الذي حضره سعيد كسباوي مرافقاً لعبد الخالق، ومما جاء في الحوار :

عبد الخالق : أرصدة السنودان لا تتجاوز الـ ١٤٠ الف دولار، ونحن نحتاج لخمسة ملايين كدعم عاجل لتغطية الاحتياجات الضرورية للبلاد..

العراقيون : ولماذا لا تطلبون ذلك من الاتحاد السوفيتي ؟!

عبد الخالق: السوفيت ضدي، وإذا وجدوا طريقة لتصفيتي والتخلص مني لن يترددوا..

العراقيون : ثم ؟

عبد الخالق : نرجو حضور وفد شعبي ورسمي من العراق للاشتراك في موكب الخميس، اعلاناً للتأييد والمساندة لحركة ١٩ يوليو التصحيحية..

وثالثاً : نرجو أن توافق القيادة القومية لحزب البعث على تعيين محمد سليمان الخليفة وزيراً للتربية والتعليم في حكومة ١٩ يوليو.

التلبية العراقية لتلك المطالب شملت ذلك الوفد الشعبي والرسمي والفني العسكري برئاسة الشهيد محمد سليمان، عضو القيادة القومية، مسئول مكتب العلاقات الخارجية، الذي كان قادماً لاسناد حركة ١٩ يوليو بطائرة خاصة، لم تجد إذناً بالهبوط في مطار الخرطوم عند وصولها صباح الخميس، فعادت وجرى لها الحادث المعروف واستشهد كل من كان فيها على الأراضي السعودية ..

هكذا قامت واحترقت ١٩ يوليو لتكون مأثرتها الكبرى هي كشف وتعرية الوجه الحقيقي لنظام جعفر نميري، وتلك هي المشاهدات والوقائع التي أذكرها عن أيامها الثلاث، لنبدأ بعدها رحلتي مع المعتقل طوال أكثر من عامين ثم الخروج إلى لندن ..

(١٤)

الخروج إلى لندن والتحالف مع الشريف

عند خروجي من المعتقل كان عليّ مواجهة أعباء الحياة اليومية بعد طول غياب، ومشاكل العمل المعلقة في المكتب .. الخ .. ولكن موقف الأصدقاء والزملاء خفف عليّ كثيراً. وفي هذا لا أنسى موقف الصديق الأستاذ/ مصطفى عبد القادر المحامي، الذي حمل عنّي أعباء مكتبي بمساعدة زوجتي صفية لفترة. وعندما أعادوها إلى وظيفتها السابقة بديوان النائب العام (بعد فصلها باسم الصالح العام في ١٩٧١) واصل الأخ مصطفى تلك المهمة بمفرده. كذلك موقف عملاء مكتبي الذين لم يتخلوا عنى وعن اسناد أعمالهم القانونية لمكتبي، وعلى رأسهم آل أبو العلا والشيخ مصطفى الأمين وآل مصطفى ساتي وغيرهم، مما أتاح لي أن أستعيد التوازن المادي والنفسي بسرعة والقيام بأعباء مصاريف المنزل والمكتب والعائلة .. وكان الشئ المرير الوحيد هو قرار الحزب بعدم ادماجنا في الحياة الحزبية والنشاط السياسي، وذلك بسبب الظروف الأمنية المتشددة في تلك الفترة. ولكن كان هناك اتصال فردي من وقت لآخر، بهدف المتابعة وتبادل الآراء والمعلومات. وبالفعل تواصلت المضايقات الأمنية بالرقابة والمتابعة اللصيقة في المنزل والمكتب والاستدعاءات المستمرة، التي كان أبرزها يوم وقوع حرب أكتوبر ١٩٧٣م. ففي الصباح الباكر من ذلك اليوم سمعت طرقاً في باب المنزل لأجد جماعة من الأمن بأشكالهم وهيئاتهم المعروفة، كان من بينهم الضابط عوض الذي أعرفه منذ أن

كان ضابطاً بالشرطة وانتقل إلى جهاز الأمن ثم عاد إلى الشرطة فيما بعد .. قال لي الضابط عوض أن لديه أمراً بتفتيش مترلي ومكتبي. وبحكم المعرفة سألته عن الأسباب فذكر أن هناك منشوراً صدر عن حزب البعث السوداني بتوقيع الاشتراكيين العرب، وأنه لا يعلم السبب بالضبط ولكن قد يكون هذا المنشور سبباً مباشراً وكان في غاية الأدب والتهذيب. فعندما دخلنا غرفة النوم سألني أن أفتح له فقط الادراج والأرفف التي تخصني وألقى عليها نظرة دون أن يمدّ يده بالتفتيش، ثم على المكتبة وبعدها، مباشرة ذهبنا إلى المكتب، حيث عاين ادراج المكتب ثم فتح دفتر الأجندة "Diary" وأذكر أنني علقت عليه متسائلاً إن كان يعتقد أنني اكتب فيه مواعيد الاجتماعات الحزبية وتوزيع المنشورات؟! فرد ضاحكاً بكل أدب أنه مأمور بذلك. وسألني ان كان لدي عمل في المحاكم في ذلك اليوم. ولما أجبته بنعم، كان قراراه أن أذهب إلى أعمالي وبعدها إذهب لمقابلة الضابط المختص بجهاز الأمن العام. وأمر السائق أن يذهب إلى الأمن بصحبتي وابلاغهم قراره ذلك .. وفي طريقي إلى غرفة الاستعلامات رأيت في الزنزانة المجاورة لها مجموعة معتقلين من الاشتراكيين العرب من بينهم الأخ تيسير مدثر، عبد المنمعم الشافعي وعندما جلست جوار الشرطي المسئول لاحظت على طاولته قائمة باسماء : الصادق شامي، اسحق شداد وآخرين. فشعرت أن هنالك حملة اعتقالات واسعة وسط البعثين والاشتراكيين العرب.

رفض ذلك الشرطي أمر الضابط عوض، الذي نقله له السائق بأن أذهب إلى أعمالي وأعود إليهم بعدها وأصرّ على استشارة الضابط العظيم،

وعرفت منه أن الضابط العظيم هو "معاوية حمو"، ولأن معاوية له صلة قرابة معنا استبشرت خيراً وقلت له أسأله .. تحدث معه الشرطي بالتلفون. فطلب معاوية أن يتحدث معي بنفسه. وفوجئت أنه يطلب مني الانتظار لحين مقابلته .. وعندما لاحظ الشرطي أنني استرق النظر للأوراق التي أمامه طلب مني أن أجلس تحت الشجرة في فناء مكاتب الأمن العام. وأحضر لي كرسياً جلست عليه .. أثناء جلوسي مرّ بجواري السيد عبد الوهاب إبراهيم، مدير الأمن العام. فحياني وسألني عن الأحوال ثم صعد إلى مكتبه، وبعد قليل أرسل يطلبني إليه، فجلست معه وسألته "انشاء الله خير". قال لي "لا" لقد أزعجتمونا كثيراً بالمنشور، الذي أصدرتوه وطالبتم فيه الحكومة بارسال قوات سودانية إلى قناة السويس دعماً للقوات المسلحة المصرية في الحرب .. (سمعت خبر المنشور قبل قليل من الضابط عوض. والآن عرفت مضمونه وسببه). فقلت للسيد عبد الوهاب ذلك واضفت له أن مجهودهم هذا في اعتقادنا كان يمكن أن ينصرف لتحقيق ذلك المطلب .. الخ.. سألني عن أموال وصلتنا مع كتيب صغير في حجم "الحصن الحصين"، وفي الحقيقة كنا في تلك الفترة قد لجأنا إلى طباعة كتبنا الفكرية والتنظيمية في سلاسل من أحجام صغيرة جداً ليسهل ادخالها وتداولها .. وفي تلك اللحظات دخل علينا السيد خليفة كرار، مدير الأمن الداخلي، وسألني بعد التحية مباشرة : "كيف تقضي أوقاتك أو برنامجك اليومي." قلت له أنت تعلم ذلك بحكم الرقابة اللصيقة التي تمارسها على حركتي وشرحت له حركتي اليومية بين المنزل والمكتب صباحاً ومساءً وأن

بعض الأصدقاء يتردّدون عليّ بعد التاسعة مساءً بالمترل للأنس ومشاهدة التلفزيون وعلى رأسهم دكتور بشير عبادي .. قاطعني سائلاً : "هل بشير عبادي بعثي؟" فقلت له أن صديقي بشير عبادي كان أثناء الدراسة الجامعية "بيبسي كولا" (وهو التعبير الذي كان شائعاً آنذاك في وصف المستقلين والمحايدين وسط الطلبة) وفي فترة لاحقة أصبح "اشتراكي " والآن، وعندما جنّ جنوناً حقيقياً أصبح عضواً باللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي (تنظيم مايو الجديد آنذاك) ... سألني : ماذا أقصد؟ قلت له أنه الجنون نفسه ولا أعرف له وصفاً آخر .. فعاد بي إلى موضوع الفلوس قائلاً : كثرت عندكم الأموال والاسلحة والمنشورات هذه الأيام، ماذا هناك؟ فقلت لا أعرف شيئاً. ولكن إذا وصلتني أموال سأقسم لك وللاخ خليفة كرار معي !! فسالني بانفعال "ماذا تقصد؟! فذكرت له أن الأخ خليفة التقاني قبل أيام وقال لي انكما اشتريتما قطع أراضي سكنية من البنك وانكما لا تملكان المال اللازم للبناء وسألني ان كان من بين عملاء مكتبي من المقاولين من يستطيع أن يقوم عنكما بهذه المهمة .. فردّ عليّ بسرعة بأنه يمكنه اعتقالي لفترة غير محدودة بموجب قانون الأمن بدون تحديد التهمة، فكان ردّي أنه حرّ وأن ذلك ليس شيئاً غريباً عليكم وأنا مستعد ومعي حقيبتي .. إلا أنه أنهى الجلسة بقوله أنه قد قرر مسبقاً اعفائي هذه المرة ونهض مصافحاً ومودعاً. فعدت إلى مترلي مباشرة.

ازدادت المضايقات بعد ذلك بالاستدعاء شبه اليومي لجهاز الأمن .. وبعد فترة قصيرة حصلت زوجتي على منحة من ديوان النائب العام لاستكمال

دراساتها العليا لنيل الدكتوراه من انجلترا. فسافرت بصحبة ابننا الأول "خالد" بينما بقي معي الثاني "عمرو". وهنا كان الأخ بشير عبادي يقوم بدور الوسيط عند عبد الوهاب إبراهيم لكي أحصل على الاذن اللازم لزيارتها في الندن..

كان المفترض أن نخرج أنا والأخ بدر الدين مدثر من السودان بعد أن ترتب الأمور والاحوال الخاصة بنا .وذلك بقرار حزبي. وكان يتابع معنا ذلك الأخ محمد علي جادين، الموظف بوزارة المالية آنذاك. وكان أيضاً يمثل صلتنا بالحزب. سبقني الأخ بدر الدين بالسفر بصحبة والدته الحاجة فاطمة، التي كانت تحتاج لبعض العلاج الطبي في القاهرة، ومن هناك ذهب إلى بغداد. وكنت أعمل للحاق به سريعاً.

وقبل أن استكمل اجراءات سفري تم استدعائي للتحقيق في جهاز الأمن. وكان الضابط المسئول عن ذلك التحقيق هو الأخ الرشيد مكي وهو من أبناء حي القلعة في الأبيض، وكان هو والأخ عاصم عطا أعضاء في تنظيمات الاشتراكيين العرب في مدينة الأبيض، بينما كان اللواء عثمان السيد قريباً من حزب البعث أثناء دراسته في بيروت. وبحكم العلاقة الخاصة التي كانت تربط هؤلاء الثلاثة مع الرائد مأمون عوض أبوزيد قاموا بالانضمام لجهاز الأمن. وكان الأخ عثمان السيد في تلك الأيام مبعوثاً في دورة للمعلمين والتربويين في لبنان وحصل على ترفيع في درجته التنظيمية بالحزب آنذاك، وأذكر أنه عندما عاد من بيروت جاءني برسالة من الدكتور بشير الداعوق مدير دار الطليعة للطباعة والنشر وعضو قيادة حزب البعث اللبناني يسألني فيها

عن بعض الحسابات المالية التي لم نستكمل تسويتها معه بعد. وقصة تلك الحسابات تعود إلى أننا كنا نستورد منه مطبوعات دار الطليعة ونقوم بتوزيعها عبر الأخ "حامد المطري" صاحب مكتبة الثقافة للملايين (كشك الصحف والكتب الشهير بالمحطة الوسطى).. أعود لموضوع التحقيق الامني باشراف الضابط الرشيد مكي، لاذكر أن الأخ الرشيد كان بالطبع متعاطفاً معي للغاية لدرجة أنه عندما طلبت منه أن يطلعني على الملف الأمني الخاص بي لديهم لم يتردّد في احضار حوالي ٤ ملفات، كان أولها باللغة الانجليزية لأنه ملف يعود إلى أيام الاستعمار. واكتشفت أن الأمن في ذلك العهد كان يقوم بتصوير حتى الصحف الحائطية التي كنا نصدرها في جامعة القاهرة فرع الخرطوم. وأخذ الرشيد يقرأ لي كل مقال أو تعليق كتبته في تلك الصحف، ثم كل منشور أصدرناه .. وفي تلك الجلسة قلت للرشيد أن من الخير لهم أن يتركونا نحن ويبحثوا عن المخاطر الحقيقية المحدقة بهم (كانت لديّ اطراف معلومات عن حركة وقعت بالفعل بعد عامين من ذلك وعرفت بالغزو الليبي) .. وعندما استفسر عن قصدي رفضت الحديث وغيرت الموضوع طالباً منه أن يستخرج لي إذناً بالسفر إلى لندن لزيارة عائلتي، وفعلاً اتصل بالسيد عبد الوهاب إبراهيم، الذي منحني تصديقاً بالسفر ، ثم تحت الحاحي كتب مذكرة خطية لمكتب الأمن في المطار لأنني كنت أعلم أنهم يمكن أن يمنحوا تأشيرة الخروج ولكنك لن تمرّ إلى الطائرة دون مذكرة خطية من مدير الجهاز..

كانت عائلتي تسكن في منطقة "كرولي" البعيدة عن لندن، و لم يكن لديّ أي عمل أو أعباء ولا مصدر دخل. فاعتمدنا جميعاً – أنا وزوجتي وأطفالي الاثنين – على المنحة التي كانت تأتي لزوجتي كمبعوثة، واقضي كل وقتي في متابعة التلفزيون والصحف واصطحاب الأطفال إلى المدارس .. بعد أيام من وصولي، وبالتحديد يوم ٢ يوليو ١٩٧٦م عُدت إلى المنزل بعد جولة في الأسواق. فاستقبلتني زوجتي بنبأ وقوع انقلاب في السودان، وبمتابعة الأنباء علمت أنه الحركة التي كانت تُعدّ لها الجبهة الوطنية انطلاقاً من ليبيا، بقيادة الشريف حسين الهندي .. ولكن سرعان ما انتهت الحركة للأسباب المعروفة للجميع وعاد جعفر نميري، الذي كان مختبئاً بمنطقة العيلفون أو منطقته الجريف غرب حسبما علمت في ذلك الوقت، وكان في البدء قد حاول الاختفاء بمنزل د. بشير عبادي في مساكن اساتذة جامعة الخرطوم، إلا أن حرسه نصحه بأن هذا المنزل سيكون أول مكان تتم مداهمته وتفتيشه فخرج إلي منطقة بعيدة.

كانت خطتي أن أعود مرة أخرى للخرطوم لتصفية أعمالي ومكتبي ومنزلي .. الخ.. ولكن بعد وقوع حركة ٢ يوليو طالبني والدي وبعض أهلي ألا أعود لأن هنالك حملة اعتقالات كيفية واسعة واعلان لحالة طوارئ. فاضطررت الانتظار فترة أخرى.. وكانت لديّ مستحقات مالية لدى شركة "جليت" الانجليزية نظير أعمال قانونية قمت لهم بها، الشئ الذي ساعدني على البقاء فترة أخرى .. وعندما رفعوا حالة الطوارئ في ديسمبر ٧٦ طلبوا مني أيضاً عدم العودة لأنهم سيسألون عن سبب بقائي كل هذه المدّة في الخارج.

فأصبحت اقامتي في انجلترا أمراً واقعاً .. وهنا لا يفوتني أن أذكر للأخ حسن قنجاري اننا انتقلنا للسكن في منزل يملكه نظير ايجار شهري رمزي، وأنني كنت أسدد ذلك الايجار في شكل استشارات قانونية .. وفي فترة لاحقة حضر الأخ التجاني الكارب لانجلترا وزارني في المنزل. وعندما تكرم بالاستفسار عن أوضاعي واحتياجاتي طلبت منه أن يرتب لي مبلغ مائة جنيه شهرياً في شكل قرض أقوم بتسديده عندما تتحسن الأوضاع. وأذكر له، بكل التقدير، أنه انتظم في منحي ذلك المبلغ الشهري ورفض لاحقاً أن يسترد تلك المبالغ، رغم الاتفاق المسبق على ذلك .. هذا اضافة إلى أن الأخ بشير عبادي كان يتردّد على لندن دائماً وعند عودته يترك بقية المبالغ التي تكون معه..

بعد فترة اخرى من الزمن اتصل بي الاستاذ شبيب المالكي، الامين العام لاتحاد الحقوقيين العرب، وكلفني بالعمل على تأسيس فرع للاتحاد بالمملكة وأعطاني قائمة من الأسماء للاتصال بها في هذا المشروع، من بينهم المحامي العراقي، الأستاذ سامي الفلاحي. وأثناء لقاءات العمل لتأسيس فرع الاتحاد عرض عليّ الأخ سامي أن أشاركه العمل في مكتبه، وذلك أثناء دعوة غداء أقامها لي بمنزله. فاتفقنا على شروط العمل وبدأنا .. وكنت قلقاً جداً بسبب عدم اتصال الحزب بي حتى تلك اللحظة وذلك رغم تقديري لظروف الرفاق في الخرطوم بعد محاولة الجبهة الوطنية للاستيلاء على السلطة في ٢ يوليو ١٩٧٦. ثم اختلفنا أنا والأخ سامي. فتركت العمل بمكتبه. وفي نفس اليوم اتصل بي الحزب بواسطة صديق .. وعندما جاء عمنا أحمد البشير العبادي

للاستشفاء في لندن، وأثناء احدى زياراتي له، التقيت بالأخ المهندس "سيد شداد" شقيق صديقي عبدالرحيم شداد، والذي أبلغني أن صديقاً اسكتلندياً له، يملك الشقة المجاورة لشقة أحمد متولي العتباني يسألني أن كنت أرغب في العمل معه، وعندما وافقت اعطاني العنوان .. وبالفعل ذهبنا للرجل وكان التعامل معه سهلاً للغاية، لأنه اسكتلندي وليس انجليزياً، اضافة إلى أنه عاش فترة في السودان وله علاقات واسعة مع السودانيين. وقمنا بتأسيس شركة Falcon Middle East Consultance وبعد معاناة طويلة واجراءات معقدة تحصلت على إذن عمل من السلطات البريطانية وبدأنا العمل..

بعد أيام قليلة من بدء العمل عام ١٩٧٧م سمعت بنبأ المصالحة بين الصادق المهدي وجعفر نميري، لأول مرة من الدكتور عبد الحميد صالح، الذي التقيته مصادفة في محطة للقطار وسرد لي قصة طويلة ختمها بان الصادق وضع شروطاً وافق عليها نميري، وعليه فالهم عائدون إلى السودان .. وفي نفس ذلك اليوم، وفي منطقة كويـــتر وي بقلب لندن وجدت مجلة الدستور، ضمن مطبوعات عربية أخرى. ولفت نظري إليها أن سكرتير تحريرها هو الأستاذ سليمان الفرزلي شقيق رفيقنا القيادي البعثي اللبناني نيقولا الفرزلي أمين سر القيادة القطرية للحزب في لبنان سابقاً، فاتصلت به فيما بعد ودعاني لزيارته بالمكتب وطلب مني أن أكتب لهم عن السودان. فكتبت له أول مقال عن السودان تنشره "الدستور" عن تلك المصالحة وبعض أسرارها.. بعدها دعاني رفيقنا اللبناني أيضاً الأخ رغيد الصلح بمترله في اوكسفورد. ووجدت معه

الاستاذ علي بلوط (الكبير) مالك مجلة الدستور. واتفقنا أنا وسلمان الفرزلي على أن انتظم في كتابة اخبار وتعليقات عن السودان وأن يكون أحد اصدقائه واسمه "يوسف شويري" على اتصال معي لاستلام ما اكتبه ثم يقومون هم باعادة تحريرها للنشر .. وفي تلك الأيام كان الشريف حسين الهندي قد ظهر في لندن ومعه حسين عثمان منصور وعباس بابكر الشهير بـــ "عباس صفوت" وهو المعروف بأنه هو الذي قام بتهريب الشريف الهندي خارج السودان يوم ٢٥ مايو ١٩٦٩م عن طريق مدينة ود مدني ومنها إلي الحدود الاثيوبية.

المهم أنني نصحت الأخ سليمان الفرزلي في تلك الجلسة أن يتصل بالشريف حسين للحصول على موضوعات ساخنة عن السودان. وكان حسين عثمان منصور قد بدأ في اصدار مجلته "الصباح الجديد". وكعادته كان منصور دائماً يحتاج للمال. فبدأ في نشر اعلانات للخطوط الجوية العراقية في الصفحة الأخيرة من جريدته، ليخلق انطباعاً بأنه على علاقة بالنظام العراقي، وبالفعل ذهب إلى السفارة العراقية في لندن وقدم نفسه على أنه آخر وزير اعلام عند وقوع انقلاب نميري في ٢٥ مايو، وأن نميري اعتقله، واستطاع أن يهرب من السودان إلى ليبيا، وهناك اختلف مع القذافي، الذي حاول تصفيته فهرب واجرى عملية لتغيير ملامح وجهه، وأنه الآن يود التعامل مع العراقيين ويخصص صحيفته في نقد القذافي والنميري .. الخ ذلك من القصص الخرافية التي اكتشف العراقيون كذبها وحقيقة شخصية صاحبها..

انتظمت في الكتابة لمجلة الدستور عن طريق يوسف شويري إلى أن ظهرت محاولات المصالحة، التي عرضها نظام نميري على الشريف حسين، بواسطة عمر محمد الطيب والتجاني محمد إبراهيم، الذين حضرا إلى لندن للتفاوض معه، إلا أن الشريف انسحب وأعلن معارضته الصريحة للمصالحة التي دخل بموجبها الصادق المهدي للمكتب السياسي لحزب نميري "الاتحاد الاشتراكي " .. وفي تلك الظروف نشأت علاقة بين حزب البعث والاستاذ محمد عبد الجواد الذي نجح في تأسيسها كعلاقة بين حزب البعث السوداني والاتحاديين. إذ وصلتني في تلك الأيام رسالة مطولة من القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي جوهرها أن اتصل بالشريف حسين ومناقشته في جملة من القضايا، من بينها رأيه في النظام الاثيوبي آنذاك وموقفه من الثورة الاريترية والمصالحة مع نميري ومن قضية الديمقراطية. وفي نهاية الرسالة زودوني بعنوانه ورقم هاتفه وكان ذلك في فندق "بريتانيا" الواقع خلف ميدان السفارة الامريكية بلندن، حيث كان يقيم فيه تحت اسم (محمد سعيد عبد الله) ..

أذكر أنني التقيت مرة واحدة قبل ذلك بالشريف حسين، وذلك قبيل آخر انتخابات عامة قبل انقلاب نميري .. وفي تلك الانتخابات كان الأخ "أبو اليسر مدني شمبول" (نائب الحصاحيصا دائماً في البرلمان) في ضيق من الأمر في دائرته. وطلب مني بإلحاح أن أشاركه بالحديث في ليلته السياسية بمدينة الحصاحيصا .. أخذني الأخ محمد عبد الجواد بسيارته ووصلنا الحصاحيصا عند الغروب وقد احتشدت الجماهير في الميدان .. ولأن الانارة كانت بالفوانيس

(الرتاين) غير كافية، وربما لتشابه الحروف في الاسمين (شوقي – الشريف) اعتقد الجمهور أنني أنا الشريف حسين. فعلت الهتافات الداوية على هذا الأساس ولم يكن أمامي سوى أن اتحدث منتحلاً اسم الشريف .. وبعد نهاية الليلة السياسية ذهبنا لتلبية دعوة العشاء بمترل أحمد يوسف علقم، أحد قادة الحزب الاتحادي الديمقراطي بالحصاحيصا. وبينما كنا نتسامر، والذبائح تنحر، وصل شخصان عليهما غبار السفر الطويل، لاكتشف أن أحدهما هو الشريف الهندي والثاني الشاعر المعروف اسماعيل حسن .. استلقى الشريف على سرير وبدأ في سرد استنتاجاته بعد جولة واسعة في البلاد وصل منها للتوّ وختمها بتقديراته لنتائج الانتخابات القادمة في منطقة الجزيرة :- كذا مقعد للاتحادي الديمقراطي، وكذا لحزب الامة جناح الهادي، وأن جناح الصادق سيسقط سقوطاً شنيعاً. والغريب أن النتائج فيما بعد جاءت مطابقة لتلك التقديرات !!.. وبعد اعلان النتائج وتكوين الحكومة، التي أصبح الشريف فيها وزيراً للمالية والاقتصاد، وكنت وقتها سكرتيراً للشئون الوطنية بنقابة المحامين، ذهبنا إليه أنا والنقيب، الدكتور عقيل أحمد عقيل، مطالبين الحكومة من خلاله أن تمنح نقابة المحامين داراً من الدور الحكومية في الخرطوم..

تلك كانت الفرصتين الوحيدتين اللتين التقيت فيهما بالشريف حسين، والآن وبتكليف من قيادة حزب البعث، اتصلت به في العنوان والهاتف المحدّدين وبالاسم الحركي المحدّد "محمد سعيد عبد الله" واتفق معي أن نلتقي عنده بالفندق، وكان ذلك في عام ١٩٧٨م..

جلست في صالة الفندق. ولا أدري لماذا كنت أتخيل أن الشريف سيكون متنكراً ومخفياً لملامحه.. بعد دقائق قليلة رأيت شخصاً يهبط بالمصعد وقد تدلت قبعته لتغطي وجهه، ثم فوجئت به يتوجه نحوي مباشرة قائلاً "ازيك يا شوقي". انه الشريف كما هو دون تنكر .. بعد التحية والمجاملة اتفقنا أن نلتقي واقترح أن يكون اسمي "الجيلي" في كل اتصالاتنا ومعاملاتنا القادمة .. كان أول موعد بيننا بعد ذلك في شارع اسمه "ماونت استريت" على مقربة من "بيكاديلي ستريت" بلندن. وهناك أخذني إلى الطابق الأخير من المبنى الذي عرفت أن مالكه قبرصي من مواليد الاسكندرية، استطاع الشريف أن يقنعه بعمل تجاري مشترك بينهما في مجال الملبوسات .. وانتظمت لقاءاتنا في ذلك المكان إلى أن اكملت مناقشاتي معه في كل البنود المطلوبة. وكتبت رسالة تفصيلية بما دار فيها لقيادة الحزب. ووصلتني رسالة من الحزب فيها اشادة وتقدير لكل ما توصلت إليه مع الشريف، وطلبوا فيها أن ارتب لقاءً بينه وبين الأخ بدر الدين مدثر. وفعلاً وصل بدر الدين من بغداد إلى لندن..

فاتني أن أشير إلى أن الأستاذين عبد الماجد أبو حسبو وأحمد زين العابدين كانا في حيرة من أمر "الجيلي" هذا الذي كلما اتصل بالشريف يتركهم ويذهب إليه. وكان معهم آخرون في هذه الحيرة، حاولوا بكل السبل معرفته دون جدوى .. الوحيد الذي عرف حقيقة "الجيلي" فيما بعد هو "جلال يوسف الدقير" لكنه احتفظ بالسرّ لأن الأستاذين أبو حسبو وأحمد زين

كانا على عداء شديد لحزب البعث والعراق دون سبب وكانا حريصين على استئناف علاقتهما بليبيا وأجهزتها ..

استأجرت شقة الأخ "إبراهيم البان جديد" في منطقة تقع خلف "اكسفورد سيركس" لتنتظم فيها لقاءاتنا بالشريف بعد حضور بدر الدين .. ومن أخطر مميزات الشريف ومواهبه أنه حاد في التقاط الاشارة والمقصد وطريقة تفكير الطرف الآخر ولغته، وفي نفس اللحظة يستطيع استخدام نفس طريقة التفكير والمفردات تلك، كأنه جزء من ذلك الطرف .. وفي نهاية الأمر تم الاتفاق على أن يذهب الشريف إلى بغداد لاستكمال المفاوضات في اتجاه بناء تحالف بين الحزب الاتحادي الديمقراطي وحزب البعث في السودان، كنواة لتجمع واسع يضم كل قوى المعارضة السودانية.

سافرت معه إلى بغداد وبصحبته الأخ "أحمد سعد عمر". والأخ أحمد سعد شخصية غريبة للغاية، كان يلازم الشريف كالظلّ، يساعده في كل حركة حتى في غسل اليدين وفي الوضوء ولا يفارقه إلا عند النوم، هذا إذا نام الشريف، لأن الشريف كانت لديه قدرة على العمل ٣ أيام متواصلة بلياليها، ويختفي فجأة لينام قليلاً قبل أن يواصل لقاءاته بالناس. وكان يتعامل مع الاتحاديين كطبيب مع مرضاه، حتى أنهم كانوا يطلقون اسم "العيادة" على لقاءاتهم به. إذ كانوا يجلسون في صفوف ويدخلون عليه فرادى بالدور. وغالبية قضاياهم كانت مادية. وكان قادراً على أن يوفر لهم مستوى معقولاً من المعيشة (مساكن – ملبس – مأكل – هواتف مفتوحة – صحف – ولائم

بالخراف المحشية – دراسة للطلاب الراغبين ..الخ..) طريقة شيخ العرب بالفعل.

كانت اقامتنا في بغداد أنا ومحمد عبد الجواد مع الشريف بأحد المنازل في حي "الخضرا" على ما اعتقد، وأحضروا للشريف كمية كبيرة من الكتب الفكرية والسياسية لحزب البعث والكتاب والمفكرين البعثيين. وفي حوالي يومين أو أكثر قليلاً قرأ الشريف كل تلك الكتب بتركيز ذهني غريب وسرعة خارقة. وذلك قبل أن نبدأ جولة اللقاءات الرسمية، التي بدأها بقوله أن حزب البعث في حقيقته هو امتداد طبيعي وحديث للحزب الاتحادي الديمقراطي، وأن المفروض أن ندمجهما ونعلن عن قيام حزب موحد .. الخ.. وبعد نقاش طويل استطعنا إقناعه بأن المهم الآن هو اقامة تحالف بين الحزبين بأسس ومواثيق واضحة ونترك مسألة الاندماج للتطور العملي. وفعلاً وضعنا الميثاق واتفق عليه الطرفان.

وأعلن هذا الميثاق، والتحالف الذي قام بين الطرفين على أساسه. وكان لهذا الحدث تأثير كبير في إعادة اصطفاف قوى المعارضة بعد مصالحة ١٩٧٧ وفي تنشيط دورها في الداخل والخارج. ونتيجة لذلك ظهرت مجلة الدستور، كمنبر إعلامي للمعارضة السودانية بشكل عام، وتحالف الحزبين بشكل خاص.

(١٥)

مجلــة الدستــور :

بدأت قصتي مع مجلة "الدستور" منذ تلك الأيام التي تشأت بيني وبينها علاقة تعاون، من خلال الاخوة سلمان الفرزلي ويوسف شويري وآخرين .. وفي تلك الأيام جاءني يوسف شويري باقتراح مفاده أن المعارضة السودانية تحتاج إلي منبر اعلامي خاص بها، وبالتالي انصحكم بشراء مجلة الدستور، خاصة وأن صاحبها الأستاذ علي بلوط يمرّ بأزمة ومشكلات مالية وأنه بالفعل يريد بيعها .. فطلبت منه أن يقوم بحصر ممتلكاتها واعداد دراسة جدوى لها .. وفعلاً قام بتنفيذ ذلك الطلب .. وخلال تلك المفاوضات بيننا وبين الشريف حسين في بغداد طرحت الفكرة على الحزب، من خلال الأستاذ بدر الدين، وعقدنا اجتماعاً بيننا أنا وبدر الدين وطارق عزيز وزير الاعلام العراقي بمكتبه .. وافق العراقيون على مساعدتنا في شرائها. ووافقوا أيضاً على رجائي أن تكون سودانية مائة بالمائة .. وعندما اقترحوا أن يكون تسجيلها باسمي وأن أكون رئيس مجلس الادارة والمدير المفوض، اعترضت على ذلك، بأنه طالما أن المجلة هدية مشتركة لتحالفنا مع الشريف والحزب الاتحادي الديمقراطي، فليس هنالك سبب يجعل كل الملكية والمسئولية باسمي فقط ويبقى الشريف مجرد عضو مجلس إدارة فيها، إضافة إلى أنه ليس من المعقول أن تكون لدي كل هذه المبالغ لأشتري بها مجلة، واقترحت عليهم أن يتم تسجيل المجلة كشركة وأن يكون الشريف حسين رئيساً لمجلس الإدارة وأن أكون عضو



مع المرحوم محمد عبد الجواد المشرف السياسي علي مجلة الدستور

مجلس الادارة المنتدب والمدير المسئول عن التسيير اليومي.. الخ.. ووافقوا على ذلك .. وفي اجتماعات التحالف طرحت وثيقة بمضمون ذلك الاتفاق لنوقع عليها جميعاً. ورغم اعتراض بدر الدين باعتبار أن ذلك شئ محرج ولا داعي له استطعت أن اقنعه بأن الظروف غير مضمونة ولاثبات المواقف وأنه من الخير الاحتفاظ بوثيقة كهذه ضماناً للحقوق عند أي منعطف غير محسوب خاصة أن السياسة السودانية مليئة بالمفاجآت.. ووقعنا على الوثيقة التي احتوت أيضاً اسماء بقية أعضاء مجلس الادارة وهم : محمد عبد الجواد، نائباً لرئيس المجلس، وعضوية أحمد زين العابدين وعبد الماجد أبو حسبو وشاب اسمه (جلال يوسف الدقير) وهو من عائلة اتحادية كان يدرس في لندن آنذاك، وكنت أعتقد أن الشريف يعرفه جيداً، لأنه أثناء المفاوضات مع الأستاذ علي بلوط لشراء المجلة كان قد قال لي أن لديه شاباً ممتازاً من أبنائه الاتحاديين .. الخ.. وأن يرشح هذا الشاب لمتابعة الأمر مع علي بلوط. وأخيراً اكتشفت أن الشريف وعلى طريقة شيخ العرب المعروفة عنه، كان قد التقى ذلك الشاب مصادفة مع علي رجب، شقيق الصحفي المعروف عبد الله رجب، ذكر لي ذلك عندما اكتشفنا أنه يعمل لمصلحته الشخصية.

بعد التوقيع على وثيقة الدستور قمنا أيضاً بتأسيس "امنستي سودان" واعلانها كمنظمة مختصة بأوضاع حقوق الانسان في السودان وأن عضويتها مفتوحة لكل السودانيين وأصبح الشريف رئيساً لها وبدر الدين نائباً له وشوقي ملاسي سكرتيراً عاماً .. وأثناء انهماكنا في ذلك النشاط همس لي أحدهم

متسائلاً : "الدهن كيف"؟ حيث أن الاتحاديين كانوا يسمون المال "دهن أو "بوفتيك" !! وعلمت فيما بعد أنهم تحصلوا على دعم سنوي مقدر بحجة أن لديهم معسكرات تدريب وجيش .. الخ وكانت معسكرات وهمية لا تضم في أحسن الأحوال سوى أفراد قلائل من بقايا الانصار في أثيوبيا . واختتم الشريف مباحثاته ولقاءاته بلقاء الرئيس صدام حسين ثم رجعنا جميعاً إلى لندن..

كنت معترضاً على تعيين يوسف شويري رئيساً للتحرير، ولكن مع اصرار الشريف وتمسكه به، طلب مني الاخوة أن أوافق ارضاءً للشريف. فسكت على مضض .. والحقيقة أن يوسف شويري، الذي كان طالب دراسات عليا بلندن آنذاك، شاب صغير لا خبرة لديه، في حين أن تلك الظروف وطبيعة منصب رئيس التحرير كانت تتطلب اسماً معروفاً بالخبرة والقوة في عالم الصحافة وبالتالي جاذباً لكبار الكتاب للمساهمة في المجلة .. بدأ يوسف شويري عمله بنشر صورة الخميني في غلاف العدد الأول بعنوان "قائد الثورة الاسلامية" في وقت تدهورت فيه العلاقات العراقية الايرانية بصورة جادة في تلك الفترة.

ومنذ اليوم الأول لاحظت توافد الاخوة الاتحاديين بكثافة إلى مكاتب المجلة واستعمال هواتفها طوال اليوم في الاتصالات الخاصة وبعضهم يدير أعماله التجارية منها، بل وكل يأخذ ما يريد من أموال المجلة .. وسبق أن قمت بتشكيل لجنة، ضمتني مع العقيد يعقوب اسماعيل، الذي كان الشريف قد

أقنعه بالخروج من السودان والالتحاق به في لندن، والسيد بيتر سميث، وهو شريكي البريطاني في شركة فالكون للاستشارات، وقامت هذه اللجنة بجرد ممتلكات ومحتويات مقر المجلة، الشيء الذي أثار امتعاض الاخوة الاتحاديين واحتجاجهم لدى الشريف..

بعد أسابيع قليلة قرّر الشريف استدعاء الأستاذ محمد عبد الجواد من بغداد ليشرف على المجلة في لندن .. وكنت أعرف الاستاذ عبد الجواد منذ أيام بورتسودان كرجل فاضل ولطيف ولين العريكة ومثقف ومناضل وطني. ومنذ الأيام الأولى اتفقنا على تدبير صيغة لاستبعاد يوسف شويري عن رئاسة التحرير وكان الشريف قد أبعد مسبقاً كلاً من الأستاذين أبو حسبو وأحمد زين من عضوية مجلس إدارة المجلة واصفاً إياهما بالقنابل الزمنية في طريق التحالف، وانهما سيثيران مشاكل ومتاعب كثيرة ويوسف شويري، اللبناني الجنسية، من أبناء الطائفة المسيحية ومتزوج زواجاً مدنياً من شقيقة رفيقنا الفلسطيني الشهيد الدكتور عبد الوهاب الكيالي صاحب المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت.ومع الأيام أصبح دكتاتوراً فرعياً للمحررين والعاملين في المجلة، واكتشفنا أنه افتتح مكتباً في بيروت استخدم فيه حوالي ٣٠ شخصاً بتكلفة كبيرة على حساب المجلة وهم أساساً أعضاء في تنظيم اسمه "الفرسان" بقيادة مسيحي آخر من لبنان اسمه "شفيق منير"وشفيق هذا كان مؤيداً للخمينية أكثر من الخميني نفسه، ومقابل صفحتين يرسلهما للمجلة يصرف له يوسف شويرى مبلغاً مقدراً شهرياً اجتمعنا أنا وعبد الجواد وأصدرنا



شوقي يراجع الدستور بعد صدورها

قراراً باغلاق مكتب بيروت والاكتفاء فقط بمراسل واحد وأعطيت نص القرار للسكرتيرة لطباعته والسكرتيرة لها صديق لبناني، هو في نفس الوقت صديق ليوسف شويري، فقامت بتسريب القرار ليقوم يوسف شويري بتمزيقه، وكان ردّ الفعل الطبيعي أن أصدرنا قراراً بفصله هو نفسه من المجلة، وقاومنا كل محاولات الشريف باثنائنا لأنه في الحقيقة أخلّ بكل شروط العقد واستخدم أموال المجلة في غير أوجهها. وبعد وساطات وضغوط كثيرة وافقنا على منحه تعويضاً مجزياً وإبعاده عن المجلة. وعند البحث عن رئيس تحرير جديد كنا نرى في مسئول القسم الثقافي بالمجلة، الأستاذ خلدون الشمعة، شخصاً مناسباً، غير أن الشريف كان قد قرر استدعاء الأستاذ إبراهيم سلامة من باريس كرئيس للتحرير، وبدورنا كنا نرى فيه شخصاً غير مسئول وغير مناسب للمنصب. وعندما حضر إلى لندن ذهبت إليه في الفندق ومعي عقد فيه شروط عمل تنص على التواجد بالمكتب يومياً من الثامنة صباحاً إلى السادسة مساءً وأن الحضور للمكتب في حالة سكر ممنوع، وشروط أخرى. وبمجرد أن قرأ إبراهيم سلامة تلك الشروط رفض التوقيع وعاد إلى باريس المهم أن المحررين وافقوا بالاجماع على خلدون الشمعة، بحكم خبرته، كرئيس تحرير وبدأت المجلة فعلاً في التحسن، وقمنا بتعيين اثنين من الاخوة المصريين، هما الأستاذ الفريد فرج وآخر اسمه بكري الشرقاوي بواسطة من الملحق الصحفي العراقي في لندن آنذاك الأستاذ سعد البزاز. ولذلك اعتقدا أن بامكانهما التصرف كما يريدان دون محاسبة. فمثلاً والحرب العراقية الايرانية قد اشتعلت طالبوا بأن تسكت المجلة

عن حديث الحرب للاحتفال بالذكري السنوية للشاعر أحمد شوقي، مع نشر صورته في الغلاف ! ويحضران إلى مكتب المجلة بعد منتصف النهار بعد التجول في الأسواق وشراء الخضر والفواكه. وبعد حوالي ساعة واحدة يعودون إلى مساكنهم !! وبعد فترة قصيرة وصلتنا معلومة بأن الأخ بكري الشرقاوي يعمل مراسلاً لصحيفة "تشرين "السورية .. المهم، وبعد أن كثرت التحاوزات اتخذنا قراراً بفصلهما من المجلة، فذهبا بالشكوى إلى الأستاذ سعد البزاز وطارق عزيز وسعد قاسم، وقام السيد عبد المجيد فريد بتوصيل شكواهما إلى الرئيس صدام حسين. فرفضت كل الوساطات والضغوط واضعاً استقالتي مقابل أعادتهما إلى المجلة، وبالتالي نفذنا قرارانا فلم يكن أمامهما سوى كيل الشتائم لي ولكل السودانيين في كل مكان ..

استمرت الامور هادئة إلى أن قامت شلّة معروفة آنذاك وتضم : جلال الدقير – مضوي الترابي – الوسيلة السماني – ورابع لا أذكر اسمه الآن، بدأت في تحريض الشريف الهندي ضد الأستاذ خلدون الشمعة وكيف أنه يملأ صفحات المجلة بالأدب والشعر وأنه لا يصلح لرئاسة التحرير .. الخ .. وفي مساء أحد الأيام اتصل بي خلدون هاتفياً وروى لي أن جلال ومضوي والوسيلة ذهبوا إليه في مترله منتصف الليلة السابقة وأبلغوه أن الشريف يريده الآن لأمر هام وقادوه إلى مكان ما حيث كان الشريف، وبدأ الجميع في توجيه النقد اللاذع له بما يعني أنه جاهل بالسياسية وفاشل في إدارة مجلة سياسية .. الخ .. طلبت منه أن يهدأ ويترك لي الأمر. وفي الصباح اتصلت بجلال يوسف



مع رفاقه الصادق شامي، تيسير مدثر، يحيي محمد الحسين، سعيد حمور في مؤتمر اتحاد المحامين العرب في تونس ١٩٨٤

ووجدت مضوي الترابي يردّ على التلفون. فسألته ان كان عضواً بمجلس إدارة الدستور فأجاب بالنفي. فقلت له إذاً لا يجوز لك أن تحشر نفسك بهذا المستوى. ووبخته هو ومن كان معه .. بعد فترة طويلة – بعد الانتفاضة على ما اعتقد – وجدت، ضمن أوراق تخص الأستاذ عبد الجواد، مذكرة من يوسف شويري كان قد رفعها للشريف جوهرها أنه يريد أن يعود رئيساً لتحرير المجلة مرة أخرى، وكان تاريخها يعود لأيام حملة تلك المجموعة ضد خلدون الشمعة !! .. المهم، قاومت تلك الحملة بشدّة ودعمت خلدون .. وعندما تأزمت الأمور قرر الشريف ابعادي عن الدستور، بحجة تفريغي لعمل امنستي سودان، وأستأجر لنا مكتباً أنا وأحمد زين العابدين. فكانت فرصة أن اقترب فيها من أحمد. ومع الأيام انعقدت بيننا صداقة كانت لها جذور تعود لأيامنا في المعتقل .. ومن خلال تلك الصداقة وجدت أن أحمد يشعر بالغبن من الشريف، لأنه عزله عن الدستور ويحاربه مادياً من وقت لآخر، بينما في الحقيقة كان الشريف يرتب له مرتباً شهرياً إضافة إلى إيجار المسكن وفاتورة الهاتف ومصروفات التعليم لأبنائه في امريكا. ولكنه أحياناً ينقطع عنه شهراً أو اثنين فيتأزم أحمد .. من ناحية أخرى كان الشريف يستهدف التخلص مني أيضاً وبشكل نهائي، حيث اعتقد أن تفريغي مع أحمد زين في مكتب امنستي سيخلق بيننا تنافساً ثم أزمة. فتنفجر الأزمة ليجد مبرراً لاغلاق المكتب وابعادنا نهائياً. وذلك باعتبار انني سكرتير عام امنستي وأحمد زين المسئول المالي وأن أحمد لن يقبل العمل

تحت قيادتي في مكتب واحد. غير أن ذلك التقدير قد فشل تماماً وعلى العكس توثقت العلاقة بيني وبين أحمد أكثر..

وبعد اسابيع قليلة من ذلك اختفى الشريف فجأة كعادته. واتضح هذه المرة أنه ذهب إلى السعودية، حيث داهمته الازمة القلبية التي توفي بسببها فيما بعد .. وسبق ذلك أن داهمته نفس النوبة مرتين، ولكن بدرجة أقل وكان أعوانه يخفون تلك الحقيقة ويقولون أنه مصاب بزكام أو انفلونزا.

كانت حياة الشريف في غاية الغرابة، ليس لديه مقر ثابت، يستأجر عدداً من الغرف في الفنادق وعدداً من الشقق، يقضي يوماً هنا ويوماً هناك .. كان يحرص كثيراً على تأمين نفسه، وفي نفس الوقت كان سلوكه لا يخلو من الإهمال واللامبالاة وروح المغامرة !! حتى عندما جاءتنا معلومة بأن نظام نميري قرر تصفيته وابلغناه بذلك، وذهبت معه إلى غرفته بأحد الفنادق، التي كان يستأجر فيها ووجدناها قد تغيرت دون علمه، رفض الاكتراث لذلك. وعندما قمنا بتدبير حراسة خاصة له دون علمه، ولكنه لاحظ وجود وجوه معينة في فندقه بشكل متكرر، اختفى فجأة لمدة ٣ أشهر دون أن يعلم بمكانه أحد .. روى لي مرة بنفسه أنه عندما خرج من أحد الاجتماعات وجد بالخارج عدداً من عناصر الأمن السوداني، التابعين للسفارة بلندن، فلم يتردد في الذهاب مباشرة إلى سيارتهم وجلس بداخلها وطلب منهم توصيله إلى مكان معين. فقاموا فعلاً بتوصيله !! ولكن من المعروف أيضاً أنه كان يمنح تلك العناصر،



مع الفنان الشهيد خوجلي عثمان في لندن

وغيرهم من العاملين في سفارة السودان بلندن، هدايا وهبات عينية ومادية ولاسر بعضهم في السودان أيضاً .. وذلك بهدف جذبهم لمساعدته بدل ايذائه.

في تلك الفترة كانت تشاد وصراعات السلطة فيها هي التقليعة التجارية وسط السياسيين السودانيين. فيقوم الواحد منهم بتأييد أحد أطراف التراع ويذهب لتسويقه لدى الدول المهتمة بالشأن التشادي بأنه كذا وكذا وخلفه كذا من المقاتلين والمعسكرات ويحتاج من الدعم كذا وكذا مقابل كل مقاتل !! .. وفي هذا السياق جاءني الشريف قبيل وفاته طالباً أن نذهب إلى العراق، لأنه يؤيد "جوكوني عويدي" في صراعه ضد "حسين حبري" ويريد جلب الدعم له. وفعلاً استدعى "محمد علي" رئيس هيئة أركان جوكوني عويدي ومدير مكتبه ليصحبه معنا ويقدمه للعراقيين .. وكانت بغداد في تلك الأيام تعج بالأخوة التشاديين بمختلف تياراتهم وقبائلهم، وبما فيهم الأخ منصور الشرتاي منغمسين كلهم في هذه اللعبة .. وفعلاً أخذنا موافقة العراقيين وتم تحديد الموعد، على أن نلتقي يوم السفر بمترل الأخ فتح الرحمن البدوي .. وفي آخر لحظة تعلّل الشريف بأن لديه عملاً طارئاً وهاماً يجب عليه انجازه ثم يلحق بنا في بغداد .. وكعادتهم استقبلنا الاخوة العراقيون بحفاوة وكرم، واستضافونا في قصر، خاصة وأن معنا رئيس هيئة أركان اضافة، إلى الشرتّاي منصور .. وظللنا في انتظار الشريف أياماً كثيرة، كنا خلالها نذهب للمطار لاستقباله في كل طائرة يقال لنا أنه سيأتي عليها إلى أن وصل أخيراً .. عقدنا اجتماعاً مع المسئولين العراقيين ومعي الأخوة الشريف وبدر الدين ومحمد علي والشرتّاي.

وفي هذا الاجتماع تحصلنا على موافقة الجانب العراقي على امداد التشاديين بإمدادات كثيرة !!

وفي ختام الزيارة أعلن الشريف للمسئولين العراقيين أنه يريد دعم العراق في حربه ضد ايران بثلاثة آلاف مقاتل من الحزب الاتحادي الديمقراطي، وأعلن الشريف اسم الأخ أحمد حامد (وهو من الأخوان المسلمين الذين بقوا معه في المعارضة بعد المصالحة) كمندوب يقيم في الأردن لاستقبال المقاتلين في عمان ونقلهم إلى العراق .. وبالفعل قامت الجهات المختصة بتجهيز معسكرات التدريب والاعاشة لهؤلاء المقاتلين دون أن يدروا أن ذلك كان واحدة من مبالغات الشريف ومحاولاته لإقناع أصدقائه وحلفائه بوقوفه معهم بكل ما يملك من قوة وامكانيات. ولكنه قد لا يستطيع ذلك .. المهم أنه لم يعد إلى العراق بعد ذلك. فقد شغلته تطورات المعارضة في تلك الفترة الحاسمة حتى داهمه الموت في مؤتمر الطلاب الاتحاديين في اليونان عام ١٩٨١.

(١٦)

مع الشريف، حياً وميتاً :

من نوادر الشريف حسين أيضاً أن بعض الشباب كانوا يضغطون عليه، مطالبين بممارسة العمل المسلح ضد نظام نميري، من بينهم فتح الرحمن البدوي وشاب آخر من اصدقائه، صغير في السن ولكنه ضخم الحجم، يلقبونه بـ "أبو دبزه"، وأصروا عليه أن يوصل لهم فقط السلاح داخل السودان ويترك لهم مهمة التنظيم والقتال .. فتظاهر الشريف بالموافقة على مطلبهم وطلب منهم أن يذهبوا بعد شهر واحد إلى مكان معين في غرب السودان وعند شجرة معينة، حدّد لهم مكانها، وأن يبدأوا في حفر الأرض تحت تلك الشجرة إلى أن يأتيهم شخص يقول لهم "برتقال"، فيردون عليه قائلين "تفاح". وعندها سيأتيكم ذلك الشخص بالأسلحة التي تحتاجونها لتخفوها في تلك الحفرة لحين احتياجكم لاستعمالها !! فذهب الاخوة بعد شهر إلى ذلك المكان وانتظروا شهراً آخر، دون أن يأتيهم أي شخص ولا تفاح ولا برتقال ثم سكتوا عن الموضوع بعد ذلك ..

من جانب آخر كان الشريف يوهم الانصار بأن الامام الهادي حيّ يرزق، وأنه هو وكيله لديهم. وفي ذلك كان يستغل ابن الامام، السيد ولي الدين الهادي. فيجمع الانصار ليلاً ليظهر ولي الدين من بُعد ممتطياً حصاناً أبيضاً، وقد طلاه بمادة "الفلوروسنت" المضيء، ويقول ذلك هو الامام الهادي وأنه سيأتيكم في الوقت المناسب. حتى ولى الدين نفسه كان مقتنعاً أن الامام



شوقي يلقى كلمة فى حفل تأبين الشهيد الشريف حسين الهندي في لندن عام ١٩٨٣

سيعود !! وفي أحد الأيام جاء الأخ علي العبيد إلى الشريف الهندي وقال له "إلى متى ستستمر في خداع هؤلاء الانصار؟ أرجو أن تصارحهم بوفاته واعلان ولي الدين إماماً عليهم .." فرد عليه الشريف بدون تردّد: "ومن قال أن الامام الهادي توفى؟ هو حي ويعيش الآن في جبل طارق وتزوج هناك وأنجب طفلين اسماهما الحسن والحسين!!"

كان الشريف رجلاً ذكياً، متواضعاً، وبسيطاً في حياته واحتياجاته وملبسه، قليل الأكل .. وميزته الكبرى أنه سخّر كل حياته لقيادة قوى المعارضة وقضية اسقاط نظام نميري ولا وقت له لأي شئ سوي ذلك، مطوفاً العالم كلّه وراء ذلك الهدف .. كانت حياته نضالاً مستمراً دون انقطاع. وفي هذا الطريق الصعب والمعقد يحتاج في بعض الأحيان لرفع معنويات البعض بالدعم والترضية وربما الكذب الأبيض. هكذا كان حاله وهو يقود المعارضة في بلد متخلف ويعاني مشاكل معقدة وأهله يحبون (النفخة) والأيدى البيضاء . أثناء عودتنا إلى لندن من آخر زيارة له للعراق، نام في مقعده في الطائرة، حيث كان مرهقاً للغاية. وعندما أفاق وسألني أين نحن؟ قلت له ان الطائرة هابطة الآن في مطار هثرو. فسكت قليلاً، قبل أن يشتكي متحسراً عن بؤس حياته، حيث لا دار ولا عيال ولا زوجه. فخففت عليه بأن ذلك هو اختياره وضريبته الوطنية ثم اتفقت معه أن اصطحبه إلى مترل في لندن، أخفيه فيه عن الناس وعن صفوف الذين لا يريدون منه سوى المال، لفترة يرتاح فيها جيداً ويتأمل أوضاعه أثناء ذلك .. اتفقنا على ذلك ولكنه بعد دقائق — ونحن لا زلنا في



المرحوم صلاح أحمد إبراهيم يلقي كلمة في تأبين الشهيد الشريف الهندي، لندن ١٩٨٣

مطار هيثرو – استودعني الله فجأة وتوجه إلى صالة الترانزيت قائلاً أنه ذاهب إلى نيجيريا !!

ومن أغرب تصرفاته، كان للاتحاديين قوائم طلابية للدراسة في الجامعات العراقية، قائمة من السيد محمد سر الختم، ومن السيد محمد عثمان، والأستاذ عبد الجواد والشريف نفسه، غير أن الشريف في واحدة من تلك السنوات أرسل قائمته للعراقيين على أساس أنهم متطوعون في الحرب وليسوا طلاباً. فقام العراقيون بتجهيز المعسكرات لهم دون ادراجهم في منافسات القبول للجامعات. وعندما حضرت تلك المجموعة اتضح انهم يريدون الدراسة وليس التطوع !! وفاتهم قطار القبول .. فاتصل بي الشريف وطلب حضوري إليه فوراً، حيث انفرد بي في غرفته وواجهني ثائراً : "أنا رجل ذو كرامة، لا أقبل الاهانة والاستصغار، كيف يقبل العراقيون قوائم الآخرين ويرفضون قائمتي ؟؟ هذه إساءة لا أقبلها وإذا كانوا يعتقدون أنهم قد اشتروني بالمال، فإنني سأعيد لهم فوراً المبالغ التي استلمتها منهم." ثم انفجر باكياً !! حاولت تهدئته. ولما لم أفلح وجدت نفسي أبكي معه بحرقة دون أن أفهم الموضوع أو ماذ حدث !! في النهاية اقترحت عليه كتابة رسالة للمسئولين العراقيين يشرح لهم الموقف، وفعلاً تم ذلك وجاءته رسالة من بغداد كانت مرضية له ..

كان الشريف يحتقر المال. قال مرةً للأخ عباس بابكر "نحن نوسخ الناس بالفلوس". فرد عليه عباس "أرجو أن توسخني يامولانا". فقال له الشريف : " لكن انت فارس ياعباس" وهنا قال له عباس : "وفي أي بنك



المرحوم محمد عبد الجواد يلقي كلمة في تأبين المرحوم الشريف الهندي في لندن ١٩٨٣

يمكنني صرف درجة فارس." ..الخ .. كان كريماً سخياً، لم يقصده أحد، سواء من طرف المعارضة أو من طرف النظام، إلا ووجد عنده ما يريد، وأحياناً تجد الشريف بجانبك معيناً دون أن تقصده. وقد شهدت مواقفه مع الأعمام : المرحوم محمد عمر بشير فوراوي، والمرجوم حسن عوض الله، والمرحوم الأمير عبدالله نقد الله .. ومن المواقف التي أذكرها جيداً موقفه مع الأخ العميد إبراهيم أبو زيد، صاحب شركة باسط، الذي اعتقله نميري وشرده، وذلك عندما حضر إلى لندن مع زوجته لاجراء جراحة لها في القلب. وبحكم صداقته لي وأنه كان أحد عملاء مكتبي في الخرطوم، جاءني في مكاتب المجلة واشتكى من تكلفة العلاج المرتفعة جداً وأنه يحتاج لحوالي ٣ ألف جنيه اضافي .. ولما لم يكن لدي مثل هذا المبلغ، استأذنته أن نلحأ للشريف .. ورغم أن الأخ إبراهيم كان من الضباط الأحرار والمتحمسين لثورة ٢٥ مايو في أول عهدها وبالتالي أنه والشريف أعداء الداء، إلا أن الشريف، وعندما ابلغته، استقبله أكرم استقبال ودون أن يسأله عن أية تفاصيل أو يحاول استثمار الموقف لمعرفة معلومات، أعطاه مظروفاً فوجئ الأخ إبراهيم عندما خرجنا منه أنه يحتوي على ضعف المبلغ المطلوب.

ومن أفضال الشريف عليّ شخصياً، انني في فترة سكنت بالمكتب لحين استلام المترل، الذي اشتريته بنظام الرهن، وعندما علم الشريف ذلك جاءني وقد قرر أن يشتري لي مترلاً كهدية. وعندما شرحت له الأمر وأقنعته أصرّ على أن يمنحني شقة اسكن فيها لحين استلامي لمترلي. وبالفعل أعطاني

شقة وجمع لي فيها أسرتي لبضعة أشهر، إلى أن انتقلنا لمترلنا.. رحمه الله. فقد كان دمثاً ودوداً كريماً مع الجميع، أعداءه وأصدقاءه. كان رمزاً لقوى المعارضة كلها وليس فقط الحزب الاتحادي الديمقراطي. وكان مخلصاً في تحالفه مع حزب البعث السوداني وفي موقفه المشرف مع العراق وهو يواجه العدوان الإيراني الظلامي.

*** وفاة الشريف :-**

وشاءت الأقدار أن تكون محطته الأخيرة معنا ومع الحياة الدنيا في أثينا، حيث انقعد المؤتمر العام للطلاب الاتحاديين في توقيت مع الاحتفالات بعيد الاستقلال في الأول من يناير ١٩٨١م، وتم اعلان الأخ العزيز الأستاذ/ ربيع حسنين رئيساً للمؤتمر .. تضافرت عوامل كثيرة ساعدتني أن أذهب إلى اثينا في تلك المناسبة .. ويبدو أن اجتماعاتهم الداخلية الخاصة كانت في احدى الجزر، ثم بعد ذلك كان الاجتماع المفتوح والاحتفال بعيد الاستقلال في قاعة جامعية بالعاصمة اثينا. وتزامن ذلك مع انتفاضة شعبية واسعة في السودان بسبب الأزمات في الوقود والسكر ..الخ.. وفي هذا أذكر أن الأخ ربيع حسنين، وبحماسته المعهودة، أذاع تلك الأخبار في الاحتفال معتبراً أن الثورة الشعبية قد انفجرت .. وأذكر أيضاً أن الرفاق البعثيين في أثينا ساهموا في الاحتفال وأن الأستاذ بكري محمد خليل جاء من بغداد ممثلاً للحزب وألقى كلمته في المؤتمر .. وبعد نهاية الاحتفال عدت إلى الفندق ونمت مبكراً .. وفي

حوالي الثانية صباحاً اتصل بي الأخ الباقر أحمد عبد الله. وعندما استيقظت فاجأني بعبارة "البركة فيكم". ثم ألجمني بأن الشريف وصل أثينا ليلاً وتوفي فور دخوله إلى غرفته بالفندق الذي ذهب أليه، وأنهم سيعقدون مجلس العزاء بمنزل الأخ "عصام العمدة" (وهو من أبناء منطقة بري القريبين من الشريف ومقيم كطالب في اليونان).. فذهبت فوراً إلى هناك ووجدت الأخوة الاتحاديين قد تجمعوا وعلى رأسهم السنادة : العم أحمد خير المحامي – عبد الماجد أبو حسبو – أحمد زين العابدين – ربيع حسنين – محجوب الماحي – فتح الرحمن البدوي. الخ .. كانوا في وجوم وفي حيرة من أمرهم. فاستأذنتهم أن أذهب لدقائق كي أحاول أن أنقل الخبر هاتفياً للأخ بدر الدين وبقية الرفاق في بغداد والخرطوم فانتحي بي عمنا وأستاذنا أحمد خير جانباً وهمس لي أن أقول للأخ بدر الدين أن الشريف كان سيقوم بتسديد نفقات المؤتمر والفنادق .. الخ وأن أمرهم قد اضطرب الآن، لكي يساعدنا في تغطية هذه النفقات .. وبعد محاولات مضنيه استطعت الحديث مع بدر الدين، الذي تأثر للغاية ووافق فوراً أن يتعهد الحزب بدفع تلك المصروفات. وأضاف أن العراق على استعداد لارسال طائرة عسكرية لتأخذ الجثمان والمرافقين لتشييعه ودفنه في العراق، إذا لم يكن هنالك مانع لدى الأخوة الاتحاديين. فعدت إليهم بهذا الخبر الذي وجد ارتياحاً واسعاً في أوساطهم. ولكن سرعان ما دبّ الخلاف والانفعال في أوساطهم، عندما طالب كل من عبد الماجد أبوحسبو وحسن دندش أن يكون التشييع في ليبيا وليس في العراق، رغم أن الاخوة الليبيين كانوا غير راضين عن

الشريف وغاضبين عليه في الفترة الأخيرة بسبب تحالفه مع حزب البعث وتأييده القوي للعراق وانحيازه العلني له في حربه ضد ايران .. فطلب مني العمّ أحمد خير أن أجمع الطرفين جانباً وأحاول التوفيق بينهم دون "شوشرة وفضائح" .. وفعلاً انفردت بهم وكان الاتفاق، الذي توصلنا إليه، أن يذهبوا بالجثمان إلى ليبيا وتشييعه هناك ثم إلى العراق لتشييعه مرة أخرى في بغداد، ثم إذا وافق النظام الحاكم في السودان على دفنه في الخرطوم فذلك أفضل وإذا رفض يتم دفنه في بغداد ..

وهكذا ذهبوا به أولاً إلى ليبيا، حيث كان الاستقبال فاتراً للأسباب التي ذكرتها في السطور السابقة، وعادوا إلى أثينا، وجاءت الطائرة العسكرية العراقية، فصعدنا جميعاً بالجثمان باستثناء عبد الماجد أبوحسبو الذي رفض رفضاً باتاً أن يذهب للعراق حتى ولو لتشييع الشريف حسين ..

أثناء هبوط الطائرة في بغداد أذكر أن الأخ فتح الرحمن البدوي وقف و تحدث مُعلناً أن الأستاذ أحمد زين العابدين هو رئيس الوفد .. ولم يعترض أحد على ذلك ..

قبل ذلك، وأثناء مجلس العزاء في أثينا جرت اتصالات مع الخرطوم في محاولة لدفنه هناك، إلا أن النميري رفض ذلك خوفاً من انفلات أمني قد يحدث أثناء التشييع، خاصة وأن النظام كان في أضعف حالاته آنذاك ..

في بغداد وجدنا استقبالاً كبيراً للجثمان والوفد المرافق له، وقاموا باستضافة الجميع في أكبر فنادق العاصمة .. وفي اليوم المحدّد خرجت جموع

كبيرة من جماهير الشعب العراقي في حشود رهيبة لوداع الشريف، الذي وجدوا فيه حليفاً ونصيراً قوياً، يتقدمها كل أفراد قيادة الحزب والدولة، وشيعوا الجثمان حتى مسجد أم الطبول، حيث مقبرة الشهداء، وصلوا عليه هناك ..

وفي اللحظات الأخيرة من التشييع وصلت اشارة تفيد بأن النميري قد وافق على دفنه في السودان بعد اتصالات مع السعودية. وعلمنا فيما بعد أن الملك فهد قد ضغط على نميري بأنه سيأمر بدفنه في مكة المكرمة، إذا رفض هو دفنه في الخرطوم .. وعلى هذا الأساس غيّر الركب وجهته نحو المطار، حيث تناوب الجميع القاء الكلمات المناسبة للموقف قبل رفع الجثمان في داخل الطائرة. وصعد معه لمرافقته إلى السودان كل من العم أحمد خير والأخ فتح الرحمن البدوي وثالث أظن أنه كان صديق الهندي..

عدنا بعد ذلك إلى لندن. وكان العراقيون قد سلموا للأستاذ أحمد زين العابدين مصروفات عودة الاتحاديين لحين ترتيب أوضاعهم للمرحلة الجديدة بعد غياب الشريف،. وأذكر أن اعتماد أحمد زين العابدين، كرئيس للوفد، قد حزّ في نفوس المجموعة المعادية له، وعلى رأسهم حسن دندش، في حين أن أحداً منهم لم يعترض، عندما أعلنوا أحمد زين من داخل الطائرة رئيساً لوفدهم وأبلغوا العراقيين بذلك .. وبالمقابل قام أحمد زين بممارسة ما يشبه المجزرة بسلاح المال ضد من لا يحبهم مما خلق استياءً واسعاً وسط الاتحاديين ..

كانت لجنتهم التنفيذية تتكون من : محمد عبد الجواد – احمد زين العابدين – عبد الماجد أبو حسبو – محجوب الماحي – حسن حامد – عمر محمد عبد الله – حسن دندش، وأخذ كل منهم يتربص بالآخرين.. وبعد ذلك شهدت الفترة اللاحقة تطورات عديدة في صفوف الحزب الاتحادي وفي علاقاته مع حزب البعث السوداني. ولكن المهم أنه هنا هو تكوين جبهة تجمع الشعب السوداني بعد وفاة الشريف الهندي مباشرة، وضحت، بجانب حزبي الاتحادي والبعث، مجموعات سياسية شمالية وجنوبية. وظلت هذه الجبهة تمارس نشاطها حتى انفجار انتفاضة مارس/ أبريل ١٩٨٥. وكانت تمثل تطوراً هاماً في العمل السياسي المعارض، رغم أنها لم تنجح في جذب أطراف سياسية أساسية مثل حزبي الأمة والشيوعي. ولكنها فتحت الطريق للعمل المشترك بين كافة قوى المعارضة. وذلك حديث آخر آمل أن أفصله في الجزء الثاني من هذه المذكرات في أقرب وقت أن شاء الله..

شوقي حسب الله ملاسي
سيرة ذاتية

- ولد في بورتسودان ٢٨/١٠/١٩٣٣م و تلقى تعليمه في مدرسة حي العرب الأولية و المدرسة الأميرية الابتدائية (الوسطى) ثم التحق في ١٩٤٧م بمدرسة حنتوب الثانوية.
- شارك في أول مظاهرة بعد ثورة ٢٤ وهو طالب بالسبنة الثالثة وسطى وذلك في عام ١٩٤٦م. و في مدرسة حنتوب كان من قيادات مؤتمر الطلبة وشارك بفعالية في كافة نشاطاته. و في السنة الثالثة فصل من المدرسة بسبب نشاطه السياسي وضع من الدراسة في المدارس الأهلية. و لذلك أكمل تعليمه الثانوي بمدرسة فاروق الثانوية في الخرطوم (البعثة التعليمية المصرية) بعد انتظار طويل.
- في عام ١٩٥٥م التحق بجامعة عين شمس بالقاهرة في كلية القانون. و بعد عام واحد تحوَّل إلى جامعة القاهرة فرع الخرطوم عند تأسيسها في ١٩٥٦م. و في الجامعة شارك في النشاط الطلابي السياسي و الرياضي.
- شارك في تاسيس حزب البعث العربي الاشتراكي السوداني في الجامعة وساهم في بناء تنظيمات التيار القومي الاشتراكي في الثانويات وجامعة الخرطوم، و تولى منصب سكرتير حزب البعث السوداني في بداياته الأولى عدة أعوام و ظل عضواً بقيادته العليا منذ تأسيسه حتى الآن.

- بعد تخرجه عمل بالمحاماة في الخرطوم و منذ البداية انخرط في العمل العام من خلال نقابة المحامين السودانيين و ظل عضواً في مجلسها لعدة دورات و شارك في تأسيس اتحاد الحقوقيين العرب و في نشاط اتحاد المحامين العرب وجبهة الهيئات و نشاطه الحزبي. و بعد عودة الديمقراطية انتظم في حزب الشعب الديمقراطي بقايدة شيخ علي عبدالرحمن و أصبح عضواً في مكتبه السياسي و بعد اندماجه مع الحزب الوطني الاتحادي أصبح عضواً في اللجنة المئوية للحزب الاتحادي الديمقراطي. و ذلك بجانب نشاطه في حزب البعث السوداني.
- كان موقفه واضحاً منذ البداية من انقلاب ٢٥مايو ١٩٦٩م من خلال موقعه في نقابة المحامين وقيادة حزب البعث السوداني. و بعد القضاء على انقلاب ١٩يوليو و عودة نميري في ٢٢يوليو ١٩٧١م اعتقلته سلطات الأمن مع المئات من الشيوعيين و الديمقراطيين و البعثيين و ظل في سجن كوبر حتى بداية عام ١٩٧٣م. و نتيجة لظروف القهر و الاستبداد السياسي غادر السودان في عام ١٩٧٥م ليستقر في لندن مسئولاً عن العمل الخارجي في حزب البعث.
- في الخارج كان منزله و مكتبه مركزاً للمثقفين السودانيين بمختلف اهتماماقم و انتماءاقم. و كان له دور هام في قيام تحالف حزب البعث والحزب الاتحادي الديمقراطي بقيادة المرحوم الشريف الهندي في ١٩٧٩م و ظل يمثل البعث في قيادة هذا التحالف حتى عام ١٩٨٥م. وفي الوقت

نفسه لعب دوراً أساسياً في إدارة مجلة الدستور الناطقة باسم تحالف الحزبين حتى توقفها في ١٩٩١م.

- في ١٩٧٥م قام بتأسيس منظمة (أمنستي سودان) التي أستمرت طوال السنوات اللاحقة ولعبت دوراً كبيراً في الدفاع عن حقوق الإنسان والحريات العامة في السودان خلال فترة الحكم المايوي. وكان أيضاً عضواً في أمنستي انترناشونال وفي تنظيمات عربية مهتمة بحقوق الإنسان في الخارج. و بعد انتفاضة مارس/أبريل ١٩٨٥م عاد للسودان و واصل نشاطه العام من خلال حزب البعث السوداني و نقابة المحامين السودانيين حتى انقلاب ٣٠/٦/١٩٨٩م.
- في الفترة اللاحقة واصل نشاطه في قيادة التجمع الوطني الديمقراطي بالمملكة المتحدة عند تأسيسه في عام ١٩٩٠م كممثل لحزب البعث حتى عام ١٩٩٥م. و ظل مواصلاً لعلاقاته مع رفاقه و زملائه في كافة أحزاب المعارضة السياسية وفي مجالات النشاط الثقافي و الفني المختلفة.
- بجانب نشاطه السياسي العام له اهتمامات بالنشاط الفني حيث تربطه علاقات متينة بمعظم الفنانين والموسيقيين السودانيين وله أيضاً اهتمامات بالنشاط الرياضي حيث كان عضواً ولاعباً بارزاً في نادي حي العرب ببورتسودان خلال الخمسينيات و شارك في تأسيس نادي الشعلة ببورتسودان في وقت لاحق. ولا يزال يحتفظ بعلاقات واسعة في الوسط الرياضي السوداني والعربي.